

رحلة الى ارضروم

ترجمة: عبدالله حبه

قصص

الكسندر بوشكين

رحلة الى ارضروم
وقصص أخرى

ترجمة: عبدالله حبه



رحلة الى ارضروم
وقصص أخرى



المؤلف: الكسندر بوشكين
عنوان الكتاب:رحلة الى ارضروم .. وقصص أخرى
ترجمة: عبدالله حبه
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: 2016

Author: **Alexander Pushkin**
Title: **«A journey to Arzrum»**
Translator: **Abdulla Haba**
cover designed by: **Majed Al Majedy**
P.C.: **Al-Mada**
First Edition: **2016**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

المقدمة

إن الكتابة عن الكسندر سيرغيفيتش بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) الملقب بأمير شعراء روسيا ليست بالمهمة اليسيرة فقد كتبت عنه مئات المجلدات ولهـذا آثرت لدى كتابة مقدمة ترجمـة أعماله النثرية عدم تنـاول سـيرته وابداعه بالتحليل، وبدلا من ذلـك قمت بترجمة مقالة صـديقه نيقولاي غوغول عنه، التي تعطي صورة صادقة عن شخصية بوشكين كإنسان وشاعر ومواطن.

أما القصـص المترجمة فتعكس عبقرية بوشكين، فهو مثل غيره من كبار الشـعراء أبدع في النـثر بقدر لا يقل عن إبداعه في الشـعر. وقد اخترت من بين الأعمال النثرية تلك التي لم تترجم بدقة سـابقا وحيث سـمح المترجمون لأنفسـهم باطلاق العنان لأقلامهم في «التصرف» بأعمـال بوشكين. كمـا أن بعض الأعمال النثرية قـام بترجمتها من الروسيـة صديقـاي المرحـوم غائب طعمـة فرمان وأبوبكـر يوسف وراجعها مستعربون روس، فهي أصدق من غيرها من حيث المحتوى، ومنهـا «إبنة الضابط» ودوبروفسكي وقصص المرحوم ايفان بيلكين. ولهذا لم أترجمها مجددا.

ولابـد لي من الإشارة الى أن الترجمة من لغات اخرى غير الروسية الى العربية كثيرا ما تتضمن أخطاء المترجم الأول الإنجليزي أو الفرنسي وتضـاف اليها أخطاء المترجـم العربي. فمثـلاً ان المترجمة الأمريكية

ميريان فيل ترجمت عنوان قصة انطون تشيخوف «كاشتانكا»، وهي قصة الكلبة ذات اللون الكستنائي، بـ«شجرة الكستناء». وجذب انتباهي لدى مراجعة أحد تراجم رواية «بيوض الشؤم» (بيوض القدر) لميخائيل بولغاكوف أن المترجم كان يضيف من عنده بعض الأوصاف غير الموجودة في النص الأصلي أو يتصرف حسب هواه في التعامل مع التسميات الجغرافية والمناصب أو يحذف مقاطع بأكملها ربما بسبب عدم فهمه لمعانيها. و يلاحظ في العديد من التراجم الأخرى تحوير الأسماء الروسية فيصبح ليف«ليو» وبافل«بول» ويكاترينا «كاترين» و يلزافيتا «اليزابيث» وهلمجرا. إن الأسماء اللاتينية حين تطلق على شخصيات روسية تفقد هذه الشخصيات صورتها في جو القصة او الرواية.

والقصص المنشورة في هذه المجموعة تعكس موقف بوشكين من أحداث عصره في «رحلة الى ارضروم..» يطرح موقفه من علاقة الروس بالشعوب الأخرى واحترامهم لتقاليدها وعاداتها وحتى لحكامها وقادتها الذين قاتلوهم. ويذكر الكاتب موقف الدراويش الأتراك منه كشاعر وترحيبهم به كأنه واحد منهم ويصف أحوال حريم الحاكم التركي. ويصف بوشكين في القصة طبيعة مناطق القوقاز الجبلية الوعرة وأنهارها الجامحة وفرسانها الأباة، والتي تأثر بها كثيرا وانعكست صورها حتى في أشعاره.

وفي قصة « العربي ربيب بطرس الأكبر» يروي بوشكين قصة جده الأكبر إبراهيم الذي ارسله القيصر الى فرنسا لدراسة العلوم العسكرية وعودته الى روسيا بعد سلسلة من المغامرات في إسبانيا حيث حارب الى جانب الفرنسيين وعلاقته الغرامية في باريس مع كونتيسة فرنسية من النبلاء التي أنجبت منه صبيا تم إخفاؤه عن زوج الكونتيسة وبعيدا

عـن باريس. ويتحـدث بوشكين عن كيف قرر بطرس الأكبر تزويج إبراهيـم من إبنة أحد النبلاء الروس بغيـة أن يوطد مركزه في مصاهرة أحدهـم. والقصة كلها من بنات خيال بوشكين حيث أن جده الأكبر لم يتزوج إبنة نبيل روسي بل إبنة تاجر يوناني.

وفي قصة «كيرجـالي» يصف الكاتب جسـارة قاطع طريق انضم الى الحركـة الثوريـة اليونانية ثـم هرب الى الأراضـي الروسية. ولكن السلطات سلمته الى الأتـراك الذين حكموا عليه بالإعدام. لكنه أفلح في خداع حراسه وهرب لممارسة «مهنته» مجددا.

أمـا قصـة «ليـال مصرية» فهـي مستوحاة مـن الأسطـورة حول كليوباتـرا وعشاقها وترتبط بالموضة الشائعـة في زمان الشاعر حول تنـاول المواضيـع الرومانسيـة في الإبداع الأدبي. ونشـرت بعد وفاة الشاعر فقط في مجلة «سوفريمينيك».

وقصـة « ملكـة البستـوني » تظهـر جانبا هامـا من حيـاة الطبقة الأرستقراطية وطيشها وولعها بالقمار، بما يولده من مصائب وخراب أسر كاملة. ويصف بوشكين بأسلوب ساخر حياة المقامرين وجشعهم واستعدادهم لارتكاب أفظع الأفعـال لتحقيق أهدافهم. ومصير بطل القصة في مستشفى المجانين.

وفي قصة «روسلافليوف» يتناول الكاتب فترة غزو نابليون لروسيا في عام ١٨١٢ وأصداء تلك الأحداث في مجتمع الطبقة الأرستقراطية الروسيـة. وتعكس القصة لحد كبير الروح الوطنية التي كان يتمتع بها الشاعر.

ويتنـاول بوشكين في «تاريخ قريـة غوريوخينو» في الواقع ما كان

يعانيــه الفلاحون (الموجيــك) الروس مــن الآم بسبب نظــام القنانة.
وبوشكين مثل غيره من المثقفــين الروس في زمانه أدان القنانة، واعتبر
ان نظام العبودية هذا يمثل عارا على المجتمع.



الدقـة والإيجاز هما من أكبر فضائل النثر، إنهما يتطلبان طرح الافكار والأفكار، وبدونهما لا تعني التعابير الإنشـائية المنمقة أي شيء.

(بوشكين حول النثر)

عدة كلمات حول بوشكين

بقلم نيقولاي غوغول

عندمـا يذكر إسم بوشكين تنبجس على الفور الفكرة حول وجود الشاعر القومي الروسي. وفعلا لا يضاهيه في هذا أي احد من شعرائنا ولايمكـن تسميـة أحد غـيره بالشاعر القومـي: فهذا الحـق يعود اليه حصرا. وتجسد فيه، كما لـو كان معجماً لغوياً، كل غنى وقوة ومرونة لغتنا. فقد مضى أبعد من الجميع في توسيع حدودها وأظهر بقدر أكبر جميع أبعاد فضائها الواسع. إن بوشكين ظاهرة فذة، ولربما أنه الظاهرة الوحيدة المميـزة للروح الروسية: فهو إنسـان روسي في تطوره، وما سيكون عليه ربما بعد مائتي عام. وتتجلى فيه الطبيعة الروسية والروح الروسية واللغة الروسية والفطرة الروسية بكل الصفاء، وبكل الجمال الطاهر، الذي ينعكس فيه المنظر الطبيعي على سطح عدسة محدبة.

وحياته نفسها روسية تمامـا. ففيها نزعة التمتع بالملذات وبالحرية، التي يصبو اليهـا الروسي أحياناً، في غفلة مـن النسيان، وتحظى دوما بإعجـاب الشبـاب الروسي الغض، وتتجسد فيه منـذ الأعوام الأولى لظهـوره في أوساط المجتمع. وألقت به الأقدار، كما لو كان ذلك عن قصـد، الى حيـث تكون حدود روسيـا متميزة بحـدة، وبخصوصية عظيمـة، وحيث تنداح ربوع روسيا المترامية الأطراف لتلاقي الجبال التي تناطح السحب، ثم تمضي رواحاً نحو الجنوب. لقد بهره القوقاز الجبار المتلفح بالثلوج، والوديان الشديدة القيظ. ويمكن القول أنه اثار

فيـه قوة الروح، ومزق آخر السلاسل التـي كانت تقيد أفكاره الحرة. ووقع بوشكين في أسر الحياة الشاعرية الطليقة لأبناء الجبال الجسورين، وعراكهـم، وهجماتهم الخاطفـة والقحامة التي لا تقاوم، ومنذ ذلك الحـين اكتسب قلمه ذلك الباع الواسـع، وتلك السرعة والجرأة، التي أدهشت وأذهلـت روسيا التي بدأت لتوه بممارسـة المطالعة. وعندما وصـف المعركة بين شيشاني وقوزاقي ، كانـت تعابيره كالبرق. وتألق وصفـه لها مثـل السيوف اللامعـة، وانطلق بوتيرة أسـرع من المعركة ذاتهـا. إنه وحده لاغيره يعتبر منشـد القوقاز: فقد عشقه بكل كيانه ومشاعره. وقد تشبع وتشـرب بأقاليمه الساحرة وبسماء الجنوب فيه وبوديـان جورجيـا الرائعة وبليـالي القرم وحدائقهـا الجميلة.ولربما أنـه يبدو في إبداعـه اكثر حماساً وحميةً حيثمـا تمس روحه الجنوب. فقـد ضمنه بلا إرادة منـه كل قواه، ولهذا فإن أعمالـه المترعة بأجواء القوقاز وبإنطـلاق الحياة الشركسية وبليالي القـرم، كانت تتسم بقوة عجيبـة وسحرية: وقد أثارت إعجاب حتى الذين يفتقرون الى الذوق والقـدرات الروحيـة الرفيعة لكي يجـدوا القوى لتفهمـه. إن الجرأة متيسـرة لديه بأكبر قدر، وتمس الروح بقوة أشد وبمدى أوسع،لاسيما لـدى الشباب،الذي يتعطشـ الى كل ماهو غير عادي. و لم يعرف أي شاعر آخر في روسيا مصيرا يحسد عليه مثل بوشكين. و لم ينتشر مجد أي أحـد بسرعة مثل مجده. وصار الجميـع في كل مناسبة وغير مناسبة يجـدون ان من واجبهم إيراد، أو أحيانا حتى تحريف مقاطع ما متألقة مـن قصائده. وصار إسمه يكتسب شيئاً سحرياً كالشرارة، وحالما يبدأ أحد مروجي الأقاويل العاطلين بإدراجه في عمله، حتى نراه ينتشر في كل مكان.

لقد كان منـذ البداية وطنياً، لأن السمة الوطنية الحقيقية لا تكون

بوصـف رداء (السارافـان)[1]، بل في وصـف روح الشعب. وحتى قـد يكـون الشاعر وطنيـاً عندما يصف عالمـاً غريباً تماماً، لكنه ينظر إليـه انطلاقـا من نزعتـه الوطنية، وبعيـون شعبه، حـين يشعر المبدع ويتحدث بشكل تجعل أبناء وطنـه يعتقدون أنهم يشعرون ويتحدثون أنفسهـم بلسانه. واذا ما اردنا الحديث عن خصال بوشكين التي تميزه عـن بقية الشعـراء، فإنها تكمن في السرعـة الخارقة في الوصف وفي القدرة الفنيـة غير العادية في تصوير الموضـوع بعبارات مقتضبة. إن سـرده يتميز بالدقة والجرأة بقـدر تجعله بديلا لمقطوعة وصفية كاملة. والمقطع الصغير لديه يكون دائما وكأنه يعادل قصيدة كاملة. وهيهات ان يمكن القول عن شاعر آخر ان مقطوعة قصيرة لديه تتضمن مثل هذا القدر من الجلال والبساطة والقوة كما هو الحال لدى بوشكين.

لكن قصائـده الأخيرة قد نظمها في الوقت الذي توارى بعيداً عن القوقـاز بكل عظمتـه الرهيبة والسامق بمهابـة وراء السحب، وانغمر الشاعـر في قلـب روسيـا، وفي سهولها العاديـة، في الدراسة العميقة لحيـاة وعادات أبناء جلدته وأراد أن يصبـح شاعرا قومياً حقا، – ولم تعـد قصائده تبهـر الجميع بالتألق والجـرأة الخارقةالتي تبهر الأبصار، وهو ما ميز لديه كل ما يتعلق بذرى جبال البروس وأبناء الجبال والقرم وجورجيا.

وأعتقد انه ليس مـن الصعب التعامل مع هذه الظاهرة. فإن جميع القـراء، من المتعلمين وغير المتعلمين، الذين بهرتهم جرأة يراعه وسحر صـوره، كانـوا يطالبـون في صخب، بـأن تكون المواضيـع الوطنية والتاريخيـة مادة لشعره، متناسين أنـه لا يمكن بالتلاوين التي توصف

١. الزي القومي للنساء الروسيات – المترجم

بهـا جبال القوقـاز وساكنيها الأحرار، تصوير الحيـاة الروسية الأكثر دعـة وهدوءاً والخالية بقـدر أكبر من الإنفعـالات والرغبات الجامحة. إن جمهـرة الناس الذين يمثلون الأمـة ذوو رغبـات عجيبـة فهم يصرخون: «صورنـا كما نحـن وبكل صدق، وصـور أفعال أسلافنا كمـا كانت». ولكـن حالما ينقـاد الشاعر إلى إرادتهـم ويصور كل شئ بصـدق تام كما حدث، نجدهم قائلين: « هذا باهت، وضعيف ، وغـير جيد، ولا يشبه البتة ما جرى من أحداث». إن الدهماء في هذا الحـال تشبه المرأة التي تطلب من الرسـام أن يصورها بشكل يشبهها تمامـاً، ولكن الويل والثبـور له إذا لم يخف جميـع نقائصها في لوحة البورتريه! إن التاريخ الروسي يكتسب فقط منذ فترة اتجاهه الأخير فى عهد الأباطرة حيوية متألقة، لكن طابع الشعب حتى ذلك الحين كان أغلبـه باهتاً، و لم يعرف كثيراً تنـوع الرغبات والشهوات. والذنب لا يقـع على الشاعر، لكن يتوفر لدى الشعـب أيضا الشعور الشديد في طلـب المغفرة، متمثـلاً بالرغبة في إكساب أفعـال أسلافه حجماً أكبر من الواقـع. لذا تبقى وسيلتـان هما: إما جرجـرة المحسنات اللفظية الى أرفـع قـدر ممكن، واكسـاب الضعف القـوة، والتحدث بحماس عن أمـور لا تتضمن نفسها الحماس، وعندئـذ يكون حشد المعجبين وحشـد الناس إلى جانبه، ومعـه النقود، وأمـاً أن يخلص المرء لحقيقة واحدة هي أن يكون رفيعاً حيثما تتطلب الرفعة ذلك، وأن يكون حاداً وجريئـاً حيثما تكون الحدة والجـرأة حقيقية، وان يجنح إلى الطمأنينة والهـدوء حيثما لا يكـون الحدث ساخناً. ولكن في هـذه الحالة نقول وداعـاً لجمهور الدهمـاء! إذ لن يكون له وجود لديـه. هذا الا عندما يكون الموضوع الذي يتناوله عظيمـاً وحاداً لدرجة بحيث يثير حتماً الحماسـ العام. و لم يقع اختيار الشاعر علـى الوسيلة الاولى، لأنه أراد ان يبقـى شاعـرا لأنه يتوفـر فقط لـدى كل من يتحسسـ لديه شرارة

الموهبة الفطرية المقدسة موقف دقيق لا يسمح له بضياع موهبته بهذه الوسيلة. ولن يماري أحد بأن إبن الجبل المتوحش بزيه الحربي حر كالحرية، وهو بالنسبة لنفسه القاضي والسيد، يكون أكثر تألقا من أي قاض ما في المحكمة، وبالرغم من أنه يذبح عدوه، مختفيا في الوهدة، أو يضرم النار في قرية بأكملها، فإنه يثير الإعجاب لدينا أكثر، ويولد لدينا روح التعاطف بقدر أشد، من قاضينا الذي يرتدي الفراك البالي، الملوث بالتبغ الذي يحكم بلا براءة بالأدقاع على الكثير من مختلف الأقنان والأنفس الحرة، باستخدام المراجع والتعديلات القانونية. وهذا وذاك من الظواهر السائدة في عالمنا: ويجب ان يحصلا على الحق في التمتع باهتمامنا، ولكن لسبب طبيعي جداً نرى ذلك بدرجة أقل، و يستثير خيالنا بقدر أشد دائما، ونفضل غير العادي على العادي هو ليس إلا نتيجةعدم تبصر الشاعر – عدم التبصر حيال جمهوره الكبير العدد، وليس حيال نفسه. فهو لا يفقد شيئا البتة من كرامته، وحتى ربما يكسب المزيد منها، لكن فقط في عيون الخبراء المتذوقين الحقيقيين. وأتذكر حادثة من أيام طفولتي. فقد كنت أتحسس دوماً رغبة صعبة صغيرة في ممارسة التصوير. وكنت أشغل فكري كثيرا في المنظر الطبيعي الذي أصوره، والذي تبدو في مقدمته شجرة يابسة. ويومذاك كنت أعيش في القرية، وكان الجيران القريبون بمثابة الخبراء والحكام على إبداعي. وقال لي أحدهم بعد أن تطلع الى اللوحة وهز رأسه:« رسام المناظر الطبيعية الجيد يختار الشجرة النامية والطيبة التي تكون فيها الأوراق يانعة، ونامية بصورة جيدة، وليست جافة «. وفي طفولتي بدا لي محزنا سماع مثل هذا الحكم، لكن فيما بعد استخلصت منه الحكمة هي: معرفة ما يعجب الجمهور وما لا يعجبه. وأعمال بوشكين التي تنبض بأنفاس الطبيعة الروسية لديه، هي هادئة ووديعة كالطبيعة الروسية. ولايمكن أن يتفهمها تماما إلا من تتسم روحه

بالعناصر الروسية الخالصة، ومن روسيا وطنه، الذي انتظم ونما برقة في الأحاسيس، والقادرة على إدراك الاغاني الروسية والروح الروسية اللتين تبدوان غير متألقتين لأول وهلة.

لأنه كلما كانت المادة عادية تتطلب أن يكون الشاعر أكثر سموا ورفعة بغية أن يستنبط منها ماهو غير مألوف، ومن أجل ان يصبح الاعتيادي غير المألوف هذا، وبالمناسبة، يصور الحقيقة الكاملة. فهل جرى تقييم آخر لأشعاره بعدالة؟ وهل قيم وفهم أحد ما مسرحية « بوريس جودونوف »، هذا العمل الرفيع والعميق، الذي أبدع بشاعرية داخلية منيعة، يرفض كل ماهو غليظ ومزوق، والذي يتطلع اليه الجمهور عادة؟ على أقل تقدير إن الصحافة لم تعط اي تقييم صائب لها، وبقيت حتى اليوم من دون التطرق اليها.

إن بوشكين يبدو في أعماله الصغيرة، وفي هذه الإنثولوجيا الرائعة، متعدد الأبعاد بصورة غير عادية، وهو أكثر سعة ورحابة من أشعاره. وتبهر الابصار بعض هذه الأعمال الصغيرة، ولا يستطيع أي فرد فهمها، وتبدو عادية بالنسبة الى الجمهور الواسع. وبغية أن يتيسر فهمها يجب ان يتسم المرء بحساسية شم دقيقة للغاية، وأن يتوفر لديه ذوق أسمى من ذلك الذي يستطيع فهم السمات الحادة والكبيرة فقط. ويجب أن يكون المرء بقدر ما شخصاً مترفاً غارقاً في الملذات شبع منذ وقت بعيد بالمأكولات الفاخرة الغليظة والثقيلة، وأكل من لحم الطير بقدر لا يزيد عن حجم الكشتبان وتلذذ بتناول أكلة تبدو غير محددة المعالم وغريبة وبدون أية توابل، -- فهو اعتاد إلتهام الطعام الذي يعده الطباخ القن. إن مجموعة أشعاره القصيرة هي سرب من اللوحات التي تخطف الأبصار. إنه ذلك العالم النير الذي تنبجس فيه سمات عرفت لدى القدماء فقط، وحيث يجري

تصوير الطبيعة بحيوية، كما في مجرى غدير فضي ما، تنبثق فيه بسرعة وبشكل ساطع أكتاف تبهر البصر. او أذرع بيض، او رقبة جبسية بيضاء، ترفلت ليلاً بخصلات مجعدة قاتمة، أو عناقيد عنب شفافة، او أغصان الآس وظلال الأشجار، التي خلقت من أجل الحياة. ويتوفر هنا كل شئ: المتعة والبساطة وسمو الفكر اللحظي، الذي يترفل بغتة بالبرودة العذبة لإلهام القارئ. ولا يوجد هنا سيل من الألفاظ المزوقة، التي تلهي القارئ فقط بكثرة الألفاظ، وتوجد فيه كل عبارة فقط لأنها ترتبط بعبارات أخرى وتخمد سقوط الكتلة بأسرها، ولكن إذا ما فصلت عنها تصبح ضعيفة وواهنة. وهنا لا توجد الفصاحة اللفظية، بل يوجد هنا الشعر وحده: بلا أي تزويق شكلي، وكل ما فيه بسيط، ولائق، وكل شئ مترع بالألق الدفين، الذي لا ينكشف فجأة، وكل شئ مقتضب، وهو ما يتميز به الشعر الخالص دوماً. الكلمات قليلة لكنها دقيقة جداً مما يجعلها تجسد كل شئ. وفي كل كلمة لجة الفضاء، وكل كلمة واسعة الباع كالشاعر. ومن هنا يحدث أن تقرأ هذه الأعمال الصغيرة عدة مرات، في حين أن هذه الخصال مفقودة في الأعمال التي تتراءى فيها فكرة رئيسية فقط.

إنني كنت دوما أستغرب لدى سماع التقييمات حولها من قبل الجهابذة والأدباء ذوي الصيت الذين كنت أثق بهم لحين سماعي أقوالهم بهذا الشأن. ويمكن اعتبار هذه الأعمال الصغيرة حجر الإختبار الذي يمكن بواسطته اختبار الذوق والحس الجمالي للناقد حين يتناولها بالتقريظ. هذا أمر لا يدركه العقل! فقد بدا انها لا يمكن ألا تكون مفهومة للجميع ! فهي بسيطة ومتزنة وساطعة وملتهبة ، وممتعة، وفي الوقت نفسه ذات نقاوة طفولية. فكيف لا يمكن فهمها ! لكن، وأسفاه، ثمة حقيقة دامغة لا تقبل الجدل، هي أن الشاعر كلما

ازدادت شاعريتـه، وكلما صـور بقدر أكبر المشاعـر المعروفة للشاعر وحـده، تتقلص بشكل ملموس دائرة جمهـوره الملتف حوله،وفي نهايـة المطاف تصبـح ضيقة، بحيث يمكن ان يعـد على الأصابع عدد متذوقيه الحقيقيين.

(كتب غوغول هذه المقدمـة لأحد دواوين بوشكين الصادرة في روسيا بعد مصرعه الفاجع - المترجم)

رحلة الى ارضروم في زمن الحملة العسكرية لعام ١٨٢٩

مقدمة

منــذ فترة قريبة وقع بين يــدي كتاب نشر في باريس في عام ١٨٣٤ الماضــي تحــت عنوان-«رحــلات إلى الشــرق بتكليف مــن الحكومة الفرنسية»[٢]. وقد اختتم المؤلف حديثه لدى وصف الحملة العسكرية لعام ١٨٢٩ بالكلمات التالية:

أحــد الشعراء ذو الخيال الباهر وجد في الأحــداث المجيدة التي شهدها موضوعاً ليس لقصيدة بل لمقطوعة هجائية ساخرة(ساتيرا)(بالفرنسية)

لم أكن أعرف من بــين الشعراء الذين شاركوا في الحملة العسكرية التركيــة ســوى أ.س. خومياكــوف وأ.ن. مورافيــوف. وكان الإثنان ضمــن جيش الكونــت ديبيتش. وقد نظــم الأول آنذاك عــدة قصائد ليريكيــة رائعــة ، بينما كتب الآخــر تأملاته حول الرحلــة الى الأماكن المقدســة، والتــي تركت لديه انطباعــات قوية جدا. لكننــي لم أقرأ أية ساتيرا عن الحملة العسكرية الى ارضروم.

و لم أكن أعتقد البتة أن الحديث يدور عني في الكتاب الآنف الذكر لولا انني وجدت إسمي بين أسماء جنرالات لواء القوقاز المستقل.

بــرز بين القــادة الذيــن تولوا قيادتــه (جيش الأمــير باسكيفتشــ) الجنرال مورافيــوف:.. والأمير الجورجــي جيجيفادزه.. والأمير الارمنــي بيبوتوف... والأمــير بوتيومكين، والجنرال رايفسكي واخــيراً السيد بوشكين.. الذي غادر العاصمةمن أجل التغني بمآثر أبناء وطنه.(بالفرنسية)

---

2. *Voyages en Orient entrepris par ordre du Gouvernement Francais.*

ولابد من الإعتراف بأن هذه السطور التي كتبها الرحالة الفرنسي، بالرغم من عبارات المديح قد أزعجتني أكثر من النقد الجارح لأعمالي في المجلات الروسية. إذ أنني كنت دائما أعتبر البحث عن الإلهام نزوة غريبة مضحكة وسخيفة: فالمرء لا يبحث عن الإلهام، بل يجب ان يأتي الى الشاعر بحد ذاته. والذهاب الى الحرب بغية التغني بالمآثر القادمة كان يعني بالنسبة إليّ، من جانب، تجسيدا للغرور المفرط، ومن جانب آخر أمرا غير لائق جدا. وأنا لا أتدخل في الامور العسكرية. فهذا ليس من عملي. ولربما أن الزحف الناجح عبر جبال ساغان-لو، والتحرك الذي قام فيه الكونت باسكيفتش بعزل القائد العام التركي عثمان-باشا، وإلحاق الهزيمة بلوائين للعدو خلال يوم واحد، وبالتقدم السريع نحو ارضرورم، كان قد تم بنجاح تام. هذا كله ممكن أن يثير الضحك التام لدى العسكريين (وعلى سبيل المثال القنصل التجاري فونتانيه، مؤلف كتاب «رحلة الى الشرق»). لكنني كنت سأشعر بالخجل لو كتبت مقالات ساخرة عن قائد عسكري شهير، منحني عطفه بأيوائي تحت خيمته، ووجد الوقت وسط مشاغله الكثيرة للعناية الحانية بي. الرجل الذي لا يحتاج الى حماية الأقوياء، بينما يعتز بترحابهم وكرم ضيافتهم، لأنه لا يمكن أن يطلب منهم شيئاً آخر. ولابد من الإعتراض على اتهامه بالجحود كما في النقد المبتذل أو الشتائم الأدبية. لهذا السبب قررت أن أنشر هذه المقدمة واقدم يوميات رحلتي، شأنها شأن جميع ما كتبته حول الحملة العسكرية لعام ١٨٢٩.

أ. بوشكين

الباب الاول

البراري. الخيمة الكالميكية. مياه القوقاز. طريق جورجيا العسكري. فلاديقوقاز. جنازة اوسيتية. تيريك. فج داريال. عبور الجبال الملفعة بالثلوج. أول نظرة على جورجيا. أنابيب المياه. خوزريف–ميرزا. عمدة دوشيت.

.. توجهت من موسكو الى كالوغا وبيليف واوريول، وبهذا قطعت مسافة تربو على ٢٠٠ فرست[٣]، بيد أنني إلتقيت يرمولوف. فهو يقطن في اوريول حيث توجد قريته قريباً منها. وصلت اليه في الساعة الثامنة صباحاً فلم أجده في البيت. وقال لي الحوذي سائق عربتي أن يرمولوف لا يزور أحدا بإستثناء والده، الشيخ الورع البسيط، وانه يستقبل ليس موظفي المدينة فقط، بل كل من هب ودب. وبعد مضي ساعة عدت إليه مجددا. وقد استقبلني يرمولوف بما عرف به من رحابة صدر. ومنذ النظرة الأولى لم أجد فيه أي شبه بلوحات البورتريه التي يبدو فيها بالبروفيل المعهود. فوجهه دائري وعيناه رماديتان، ناريتان، وشعره يخوطه الشيب ومنتصب. لديه رأس نمر فوق جسد هرقل. وابتسامته غير لطيفة لأنها مصطنعة. وعندما يستغرق في التأمل ويعبس يصبح وسيماً ويشبه لحد كبير اللوحة الشعرية التي رسمها

٣. ملاحظة: الفرست مقياس روسي قديم للطول يعادل ١,٠٦٦٨ متر– المترجم

الفنــان دوف. كان يرتــدي قفطانــاً شركسيــاً أخضــر. وعلقت على جــدران غرفة مكتبه السيوف والخناجر، وأشيــاء تذكارية تتعلق بفترة توليــه مناصــب السلطــة في القوقاز. وأظــن انه يشعر بنفــاد صبر من حياته العاطلة عن العمــل. وتحدث عدة مرات عن باسكيفتش بتهكم دائماً، وتحدث عــن السهولة التي حقق فيها انتصاراته وشبهه بنافين، الذي كانت الأسوار تتساقط أمامه بفعل صوت النفير، وسمى كونت ايريفان بكونت اريحا.

وقــال يرمولــوف «وإذا قام بالهجــوم على باشا غــير ذكي، وغير متمرســ وحاذق، لكنه عنيد فحسب، مثل الباشا الذي يقود العساكر في شومــلا -فعندئذ سيضيع باسكفيتش». ونقلت الى يرمولوف قول الكونــت تولستــويٍ أن باسكيفتشــ أبلى بلاء حسناً جــدا في الحملة الفارسيــة، بحيث أنــه لا يتبقى للرجــل الذكي ســوى العمل بصورة أســوأ، بغية أن يختلــف عنه. فضحك يرمولوف،لكنــه لم يوافق على ذلــك، وقال:«كان من الممكن ان يصون الأفراد ويقلل من الخسائر». وأعتقد أن يرمولوف يكتب أو يريد كتابة مذكراته. وهو غير راض عن «تاريــخ» كارامزين.وكاڽ يود أن يصــور قلمه السيال انتقال الشعب الروسي من الضعة والذل الى المجد والجبروت. وتحدث عن مذكرات الأمــير كوربسكيحماس. بينمــا انهال على الألمــان بالتوبيخ. فقال «بعد ٥٠ عاما سيعتقدون بأنه ساعد في هذه الحملة الجيش البروسي أو النمساوي بقيادة جنرالات ألمان ما». وأمضيت لديه قرابة ساعتين. وأبــدى أسفه لأنه لم يتذكر إسمي الكامــل. واعتذر بكيل المديح لي. ودار الحديــث عدة مرات عــن الأدب. وقال عن قصائدغريبويدوف أنه يصاب بالصداع لدى قرائتها. و لم يذكر كلمة واحدة عن الحكومة او السياسة.

كان يجب علي مواصلة رحلتي بالمرور عبر كورسك وخاركوف، لكنني عرجت على طريق تفليس المباشر، وضحيت بغداء طيب في إحدى حانات كورسك(وهو أمر لا يخلو من لذة في رحلاتنا) و لم أتمتع بزيارة جامعة خاركوف التي لا تعادل زيارة المطاعم في كورسك.

كانت الطرق حتى مدينة ايلتسا فظيعة. وانغرست عربتي عدة مرات في الأوحال الشبيهة بأوحال اوديسا. و لم أكن اقطع في اليوم مسافة تربو على الخمسين فرستا. وفي نهاية المطاف انداحت أمام ناظي براري فورونيج وانطلقت بحرية في السهول الخضراء. وفي نوفوتشيركاسك وجدت الكونت بوشكين الذي كان متوجها الى تفليس أيضا، واتفقنا على مواصلة الرحلة سوية.

إن الإنتقال من أوروبا الى آسيا يغدو محسوساً من ساعة الى أخرى: فاختفت الغابات، واستويت التلال، وأصبح العشب أكثر كثافة ويعتبر من النباتات الأكثر قوة. وظهرت طيور لا وجود لها في غاباتنا، وتربض العقبان فوق النتوءات الصغيرة التي تشير الى الطريق الرئيسي، كما لو أنها تقوم بحراستها ، وتتطلع بكبرياء نحو المسافر. وفي المراعي حيث الأعشاب الريانة تتجول الأفراس الجامحة في القطعان بإعتزاز وفخر.

يرابط الكالميكيون بالقرب من الاكواخ في المحطة. وترعى عند خيامهم جيادهم القبيحة الشعثاء، المعروفة لدى القارئ من رسومات اورلوفسكي الرائعة.

منذ أيام زرت إحدى الخيام الكالميكية (تتألف من هيكل أعواد مظفورة وفوقه غطاء من اللباد الأبيض). وكان قد اجتمع شمل كافة

أفراد الأسرة لتناول طعام الإفطار. وفي الوسط كان يغلي الطعام في قدر. وتصاعد الدخـان نحو فتحة في أعلى الخيمة. وانهمكت فتاة كالميكية مليحة في الخياطة وهي تدخن التبغ. فجلست الى جانبها.» مـا إسمـك؟» - « ». - «ما عمرك؟» - « عشرة وثمانية». - « ماذا تخيطـين؟» - « سراويـل». - « لمـن؟» - « لنفسـي». - وأعطتني غليونها وبدأت بتناول الفطور. كان الشاي يغلي في القدر مع شحم الضـأن والملـح. وقدمت لي قدحهـا. و لم أرد ان أرفض واحتسيت مـا فيـه دفعة واحـدة ساعياً الى عـدم الإختناق. ولا أعتقـد أن أي مطبـخ شعبي يمكن أن يصنع وجبة مـا مقرفة أكثر من هذه. وطلبت تقـديم شيء ما أضيفه اليه. فأعطوني قطعة لحم حصان مقدد، وكنت مسـرورا بذلك. وأثـار التغنج الكالميكي خـوفي، فأسرعت بمغادرة الخيمة وانصرفت مبتعدا عن تسيرتسيا الواقعة وسط السهوب.

وفي ستافروبـل شاهـدت في أطـراف السماء سحبـاً كانت قد أذهلـت بصري منذ تسعة أعوام بالضبط. وبدا كما لو أنها بقيت في مكانها هناك. إنها الذرى الثلجية لسلسة جبال القوقاز.

توجهـت مـن غيورغيفسـك إلى غورياتشيـه فـودي (الينابيع الساخنة). وهناك وجدت تغيرات كبيرة. ففي زماني كانت الحمامات موجودة في خصص بنيت على عجل. علماً أن غالبية الينابيع بقيت في وضعها الأصلي، وتتدفق منهـا المياه، ويتصاعد البخار، وتجري السحـب من الجبال في مختلف الإتجاهات تاركة ورائها آثارا بيضاء مشوبـة بالحمرة. وكنا نغرف الماء من قدح صنع من جذر شجرة أو قعـر قنينة مكسورة. أما الآن فقد شيـدت حمامات رائعة وبيوت. وينحـدر البولفار الذي غرست فيه أشجـار الزيزفون نحو ماشوكا. وبـدت في كل مكان الطـرق النظيفة، والأكشـاك الخضر، وجنائن

الزهور المستقيمـة، والجسور والمتاجـر. وتم فصل الينابيع ورصفت حولها الأحجار، وعلقت على الجدران تعليمات الشرطة، وساد في كل مكان النظام والنظافة والرونق...

ولابد مـن الإعتراف بأن ميـاه القوقاز تتوفر فيهـا وسائل الراحة أكـثر، ومع ذلك شعرت بالحنين الى وضعهـا البدائي الوحشي سابقا، وشعـرت بالأسف لـزوال الممـرات الحجريـة الشديـدة الإنحدار، والشجـيرات والأخاديد من دون سياج والتي كنـت أتدحرج فوقها أحياناً. وتركت المياه حزيناً وعدت راجعاً إلى غيورغيفسك. وسرعان مـا خيمت على المكان عتمة الليل. وتألقـت ملايين النجوم في المساء الصافيـة. كنـت أمشي على ضفاف نهر بودكومـكا. وحدث هنا أن قضيت بعض الوقت مـع أ. رايفسكي واصغيت إلى أنغام خرير المياه. وانبجس أمامي بعيدا جبل بيشتو فيليتشافي الهائل، وصار يزداد سواداً أكثر فأكثر في الأفق البعيد، المحاط بالجبال، وبضياع الإقطاعيين، وفي نهاية المطاف اختفى وسط الظلام..

في اليـوم التالي واصلنا السفر حتى بلغنا مدينة يكاترينوغراد، التي كانت سابقاً مقر حاكم الإقليم.

يبدأ من يكاترينوغراد طريـق جورجيا العسكري، وينتهي الطريق البريـدي. ووجب تبديـل الخيل في فلاديقوقاز. ووفـر لمرافقتنا حرس مـن القوقـاز والمشاة ومدفع واحـد. علماً أن البريـد ينطلق مرتين في الأسبـوع، وينظم إليه المسافرون ويسمى ذلك ب « اوكازيسي». لم ننتظـر طويلاً. فقد جاء البريـد في اليوم التالي. وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم الثالث كنا مستعدين للسفر. وتحشدت في مكان التجمع القافلـة كلها المؤلفة مـن خمسين شخصاً أو حـوالي ذلك. وبدأ قرع

الطبـــول، فتحركنا. وفي المقدمة سار المدفع وحوله الجنود من المشاة. وانطلقــت بعده عربات نقل الحمــولات والعربات الخفيفة والعربات المغلقــة لزوجات الجنود الذين يتنقلون من قلعة الى أخرى، ثم أعقبتها عربــات الحمــل ذات العجلتــين مطلقة الصريــر. بينما ســارت على الجانبــين أسراب الخيل وقطعان الثيران المخصية. وانطلق خبباً بالقرب منهــا المرشــدون من قوميــة ناغاي وهــم يرتدون عبــاءات من الوبر ويحملــون الأوهاق (السياط). إن هذا كله قد أثار إعجابي في البداية لكن سرعان ما تولد لدي السأم. كان موكب المدفع يسير بخطى وئيدة ويتصاعــد الدخان من فتيله، بينما كان الجنود يشعلون غلايينهم منه. وضاق صبري في نهاية الأمر من بطئ مسيرتنا(قطعنا في اليوم الأول مسافــة خمسة عشر فرستا فقــط)، وعانينا من الحــر القائظ الذي لا يطاق، وعدم كفاية المؤونــة، والتوقف للمبيت المترع بالقلق، وأخيرا هناك الصرير المتواصل لعربات الناغاي. إن التتار يعتزون بهذا الصرير، ويقولــون أنهم يسافرون كناس شرفــاء، ولا يحتاجون إلى التخفي عن أحــد. وبالنسبــة لي كان سيسعدني أكثر لو أننــي سافرت مع رهط غير هــذا الرهط المحــترم. وكان الطريــق ذا مشاهد رتيبــة: السهول وفي الجانبــين التلال. وفي أطراف السماء تبدو ذرى القوقاز، التي صارت تعلو أكثر فأكثر يوما بعد يوم. والقلاع كثيرة في هذه الأنحاء، وحولها خنــادق كان يستطيع أي واحد منا في أيام زمان اجتيازها دونما حاجة الى القفز فوقهــا، وفيها مدافع علاها الصدأ و لم تطلق منها النيران منذ أيــام الكونت غودوفيتش، وحولها أيضاً سدود منهــارة تتجول فيها حاميــة من الدجــاج والأوز. وتوجد في القلاع عــدة مرابض يمكن الحصول منها بعسر على عشرات البيوض واللبن الحامض.

كانــت قلعة «المنارة» أول مكان ممتاز. وبغية الإقتراب منها سارت

قافلتنا في طريق رائع وسط تلال تغطيها أشجار الزيزفون والدلب. وهناك مقابر الآف الموتى من المصابين بالطاعون. وتألقت فيها الزهور التي نبتت في التربة الملوثة بالوباء. ومن الجهة اليمنى تعالت جبال القوقاز المجللة بالثلوج، بينما انتصب أمامنا جبل هائل تغطيه الأشجار، وخلفه وجدت القلعة المنشودة.وبدت حواليها آثار قرية طالها الخراب إسمها تتار-توب كانت في زمن ما أكبر قرية في منطقة جبال قبردا الكبرى. وتدل المنارة الرفيعة المنفردة على الحياة في القرية التي زالت من الوجود. إنها تنتصب برشاقة بين أكوام الحجارة على ضفة جدول جف ماؤه. وصعدت إليها حتى بلغت الطارمة التي لم يعد ينطلق منها صوت المؤذن. وعثرت هناك على عدة أسماء مجهولة كتبها رحالة باحثون عن الشهرة بالكتابة على الطوب.

أصبح طريقنا أكثر جمالاً وبهاء. وانداحت الجبال أمامنا.وكانت بالكاد ترى في قممها قطعان الأغنام التي تبدو كالحشرات. واستطعنا تمييز الراعي، ربما هو روسي، وقع في زمن ما في الأسر ودبت فيه الشيخوخة وهو في الأسر. كما واجهتنا التلال وكذلك الخرائب. وعلى جانب الطريق رأينا اثنين أو ثلاثة من شواهد القبور. وعادة يدفن الشركس الموتى من فرسانهم هناك. وترك أحفادهم المتوحشون نقوشاً على الحجر تخليداً لذكرى أسلافهم المتوحشين منها كتابات باللغة التتارية ورسوم سيوف وعلامة تانجا.

إن الشركس يكرهوننا لأننا أبعدناهم عن المراعي الفسيحة، وأنزلنا الخراب في قراهم، وأبيدت قبائل عن بكرة ابيها. إنهم يتوغلون ساعة بعد ساعة في الجبال ومن هناك يشنون هجماتهم. ولا أمل في كسب صداقة الشركسالمسالمين فهم على استعداد دوما لنصرة أبناء جلدتهم الجامحين. لكن روح فروسيتهم الوثابة قد انحسرت بشكل ملحوظ.

إنهم نادراً ما يهاجمون مجموعة قوزاق تماثلهم في العدد أو مجموعة من المشاة ويهربون حالما يرون المدفع. بيد أنهم لا يفوتون أبداً الفرصة للهجوم على فصيل ضعيف أو من يمضي بلا حماية. وفي هذه الأصقاع تتردد كثيراً الشائعات حول أفعالهم الشريرة. ولا توجد تقريباً وسيلة لترويضهم غير نزع سلاحهم، كما جرى نزع سلاح تتار القرم، وهو أمر يصعب تحقيقه، بسبب الشقاق الموروث بينهم، وروح طلب الثأر بإراقة الدم. والخنجر والسيف يعتبران من أعضاء أجسادهم، ويبدأ الطفل بإتقان استخدامهما قبل أن يتقن الكلام. والقتل لديهم مجرد حركة للجسد. إنهم يحتفظون بالأسرى أملاً في كسب الفدية، لكنهم يعاملونهم معاملة لا إنسانية فظيعة، ويجبرونهم على العمل فوق طاقتهم، ويطعمونهم العجين غير المشوي وينهالون عليهم بالضرب متى ما يحلو لهم، ويكلفون صبيانهم بحراستهم، ويمنحونهم حق طعنهم بسيوفهم الطفولية لأتفه الأسباب. ومنذ فترة قريبة ألقي القبض على شركسي مسالم أطلق النار على جندي. وقد برر ذلك بأن بندقيته كانت محشوة خلال فترة طويلة جداً. فما العمل مع مثل هؤلاء الناس؟ ولابد لنا من الأمل في أننا بعد سيطرتنا على القسم الشرقي من البحر الأسود، وعزل الشركس عن التجارة مع تركيا، يمكن أن نرغمهم على التقارب معنا. إن تأثير حياة الترف يمكن أن يساعد على ترويضهم: والسماور قد يكون ابتكاراً جديداً هاماً. وهناك وسيلة أشد، وأكثر أخلاقية، وتلائم أكثر نزعة التنوير في عصرنا هي «التبشير» بواسطة الإنجيل. إن الشركس اعتقنوا العقيدة المحمدية منذ فترة قريبة جداً. وقد سيطر عليهم التعصب الشديد لدعاة التبشير بالقرآن، وبرز من بينهم الشيخ منصور، الرجل غير العادي الذي أثار الفتن في القوقاز خلال فترة طويلة ضد السيطرة الروسية، وفي نهاية المطاف ألقينا القبض عليه وتوفي في دير سولوفكي. إن

القوقــاز بانتظار المبشرين المسيحيين. لكــن يبدو من الأيسر بالنسبة إلى كسلنــا أن نعوضــ الكلمة الحية بالحــروف الميتــة وأن نرسل الكتب الخرساء الى أناس لا يعرفون القراءة والكتابة.

بلغنــا فلاديقوقاز، كابكاي سابقاً، الواقعة عند سفوح الجبال. أنها محاطــة بالقرى الأوسيتينية، وقد زرت واحدة منها فوجدت نفسي في جنازة. وقد تحشد الناس بالقرب من بيت المتوفي. وفي الباحة وقفت عربة يجرها ثوران. وسار أقارب واصدقاء المتوفي من مختلف الأنحاء وهــم يطلقــون النحيب بصوت عــال، ويلطمون جباههــم بقبضات أيديهــم. أما النساء فقد وقفن صامتات. وحمل المتوفي فوق عباءة من اللباد(بوركا)..

... like a warrior taking his rest

With his martial cloak around him[4]..

ووضعوا جثمانه على العربة. وتناول أحد الضيوف بندقية المتوفي، ونفخ منها البــارود ثم وضعها بالقرب من الجثمــان. إنطلق الثوران. وســار الضيوف خلف العربــة. وكان الواجب أن يدفــن الجثمان في الجبال في مكان يبعد قرابة ٣٠ فرستا عن القرية. وللأسف لم أجد من يفسر لي هذه الطقوس.

علماً أن الأوسيتيين من أفقر الشعوب القاطنة في القوقاز، ونساؤهـم حسناوات، وكما تناهى إلى سمعي فإنهن يبدين اللطف ازاء المسافرين. وعنــد بوابة القلعة إلتقيت زوجة وابنة أحد السجناء الأوسيتيين. كانتا تحملان إليه الطعام. وتراءى لي أنهما هادئتان وجريئتان، لكنهما حالما

٤. كالمقاتل الراقد للراحة في وشاحه العسكري (بالانجليزية).

رأتا مقدمـي أطرقتا برأسيهما وغطيتا رأسيهمـا بالحجاب المؤلف من أسمال. ورأيـت في القلعة الرهائن(الأمانـات) الشركس، وهم فتيان يتسمون بالرشاقة والوسامة. وتجدهم في كل لحظة ينطلقون في العبث والجري الى خارج القلعة.ويجري احتجازهم في وضع بائس. وتراهم يرتدون الأسمال وهم شبـه عرايا وتعلوهم الوساخة. ورأيت بعضهم مكبلين بقيود خشبية. ويبدو أن الرهائن الذين يطلق سراحهم فيما بعد لا يأسفون على فترة وجودهم في فلاديقوقاز.

تركنـا المدفع ومضـى في اتجاه آخـر. وواصلنا المسـيرة مع المشاة والقوزاق. واحتضننا القوقاز في معبده.وسمعنا ضجيجا خافتا ورأينا نهر تيريـك الذي يجري في مختلـف الإتجاهات.. وسرنـا على ضفته اليسـرى. إن امواجـه الصاخبة تحـرك دواليب الطواحـين الأوسيتية المنخفضـة التي تشبه زرائب الكلاب. وكلمـا تعمقنا في الجبال يغدو الفج أكثر ضيقا. ويقذف تيريك المحاصر أمواجه العكرة عبر الصخور، التـي تقف حائـلا في طريقه. ويغدو الفج متعرجـاً على امتداد مجراه. وشحذت الأمواج السفـوح الصخرية للجبال. وكنت أواصل المشي واتوقـف بين الفينة والفينة وأنا أعجب لجمـال الطبيعة الرائع القاتم. كان الجو غائما، وامتدت السحب ثقيلة فوق الذرى السود. وعندما تطلـع الكونـت بوشكين وشيرنفال الى تيريك عـادت الى ذاكرتيهما المدينـة الفنلندية ايماترا واعطيا التفوق الى النهر الصاخب في الشمال. لكنني لم أستطع مقارنة المشهد الماثل أمامي بأي شيء.

وقبـل أن نصل الى لارس تخلفت عن القافلـة وأخذت أتطلع الى الصخور الهائلة التي يتدفق تيريك بينها بعنف يصعب تفسيره. وبغتة هـرع الى جنـدي صارخاً من بعيد:«لا تتوقـف ياصاحب السعادة، سيقتلونك!». وبدا هذا التحذير لي غريبا للغاية بسبب عدم الإعتياد.

ومجمل القضية أن قطاع الطرق الأوسيتيين، الذين يشكلون خطراً في هذا المكان الضيق، يطلقون النار على المسافرين عبر تيريك. وقد هاجموا في العشية قبيل عبورنا الجنرال بيكوفيتش الذي انطلق وسط وابل رصاصهم. وترى فوق الصخرة خرائب قلعة ما، إنها ملاصقة لبيوت الأوسيتيين المسالمين التي تبدو مثل أعشاش السنونو.

توقفنا في لارس للمبيت. ووجدنا هناك رحالة فرنسياً أخافنا من الطريق القادم. ونصحنا بأن نترك العربات في كوبي وأن نواصل المسيرة ركوباً على الجياد. وشربنا معه لأول مرة نبيذ كاخيتي من قربة كريهة الرائحة، ذكرتنا بمأدبة الإلياذة:

كان النبيذ، بهجتنا،في قربة من جلد الماعز !

ووجدت هناك المسودة المخربشة لقصيدة «أسير القوقاز»، واعترف بأنني قرأتها بسرور بالغ. علماً أن هذا كله عمل ضعيف وفتي ومبتسر، لكن أكثريته قد تم تخمينه، والتعبير عنه بشكل صائب.

في صباح اليوم التالي واصلنا الدرب. وكان الأسرى الأتراك يعملون بتعبيد الطريق. وقد اشتكوا من رداءة الطعام المقدم لهم. و لم يستطيعوا البتة اعتياد تناول الخبز الأسود الروسي. وقد أعاد هذا لي ذكرى ما قاله صديقي شيريميتيف لدى عودته من باريس: « الحياة، يا أخي، صعبة في باريس: فلا يوجد ما يؤكل: وحتى الخبز الأسود غير موجود هناك».

يوجد جسر درايال على بعد سبعة فرستات عن لارس. والفج يحمل الإسم نفسه. وتنتصب الصخور شامخة من الجانبين. وكتب أحد الرحالة أن المكان هناك ضيق وضيق بحيث أن المرء يرى ليس فقط

ضيق المكان، بل ويتحسسه أيضا كما يبدو. وتظهر فوق رؤوسنا قطعة من السماء كالشريط. أما روافد الشلالات المتساقطة من أعالي الجبال بسيول صغيرة ومتطايرة فقد ذكرتني باختطاف غانيمادس، وبلوحة رمبراندت الغريبة. زد على ذلك أن إنارة الفج تتم وفق ذوقه تماما. وفي بعض الأماكن يغسل تيريك أسفل الصخور، وكذلك الأحجار المتراكمة بهيئة سد في طريقه. وأقيم بالقرب من نقطة الحراسة جسر فوق النهر بجسارة. وحين تقف فوقه يبدو كما لو كنت فوق طاحونة. إن الجسر يهتز كله، أما تيريك فيطلق ضجيجاً شبيهاً بضجيج العجلات التي تدير فردتي حجر الطاحونة. وترى خرائب قلعة فوق صخرة شديد الإنحدار مقابل داريال. وتحكي الأساطير أنه كانت تتخفى فيها قيصرة إسمها داريا، ومنها أطلقت التسمية على الفج: إنها حكاية. إن كلمة داريال باللغة الفارسية القديمة تعني البوابة. وبشهادة بلينوس فإن بوابة القوقاز، التي تسمى خطأً بوابة قزوين، كانت توجد هنا. ويغلق الفج بواسطة بوابة حقيقية، خشبية، ومؤطرة بسيور حديدية. وكتب بلينوس أنه يجري تحتها نهر ديريودوريس. وأقيمت القلعة هناك من أجل التصدي الى هجمات القبائل المتوحشة، وهلمجرا. (راجع رحلة الكونت ا. بوتوتسكي الذي تعتبر طروحاته العلمية ذات قيمة كبيرة مثل الروايات الإسبانية).

توجهنا من داريال الى كازبيك. فشاهدنا بوابة الثالوث الأقدس(إنه قوس تولد من تفجير البارود في صخرة) - كان يمضي الطريق تحتها في وقت ما، أما الآن فيجري هناك نهر تيريك الذي يغير مجراه باستمرار.

بالقرب من قرية كازبيك عبرنا بيشينايا بالكا (العتبة المسعورة)، وهي وهدة، تتحول في أثناء تساقط الأمطار الغزيرة الى سيل عرمرم.

لكنهـا كانت في هذا الوقت جافة تماماً واسمها فقط ينم عن سمعتها الصارخة.

تقع قرية كازبيك عند سفح جبل كازبيكو يمتلكها الأمير كازبيك. والأمـير رجـل في الأربعين من العمـر وقامته أطول مـن قامة ضابط في فرقـة برياوبرجينسكـي. ووجدنـا في «الدخـان»، (تطلـق هذه التسميـة على الحانات الجورجية الأكثر فقراً والأقل نظافة من الحانات الروسية). ووضعت عند المدخل قربة من جلد الجاموس تنتصب منها سيقانها الأربع. ومد الرجل العملاق يده في القربة واغترف منها نبيذ (تشيخـير) وطرح عليّ عـدة أسئلة أجبت عنها بإحـترام يتناسب مع مقامه وطول قامته. وافترقنا كصديقين حميمين كبيرين.

وسرعان ما زالت الإنطباعـات وخمدت. فحالما مضى يوم واحد لم يعـد يجـذب اهتمامـي هدير تيريـك وشلالاته الشنيعـة، وكذلك المنحـدرات والوهـاد. وتملكتني حصـرا الرغبة بصبر نافـد في بلوغ تفليس. ومضيت منطلقاً بلا مبالاة بمحاذاة جبل كازبيك كما مضيت مـن قبل بمحاذاة تشاتيرداغ. حقاً أن الجو الممطر والضباب حالا دون رؤيتي لذروته المغطاة بالثلوج، وكما قال الشاعر، التي تناطح السماء.

إنتظرنا مجيء الأمير الفارسي. فقد التقينا بالقرب من كازبيك عدة عربات سدت الطريـق الضيق. وفيما كانت العربات تمر عبره أوضح لنـا الضابط المرافق أنه يرافـق شاعر البلاط الفارسـي وقدمه لي بإسم فاضـل - خان. وقابلته بمعونة المترجـم بالترحيب في عبارات فخمة علـى عادة أهل الشرق، لكن لدهشتي وخجلي رد فاضل - خان على كلامي المنمق بعبارات بسيطة وذكية لإنسان محترم! وأعرب عن أمله في أن يلقـاني في بطرسبورغ، وعن رغبته في أن يتواصل التعارف بيننا

وهلمجرا. وقد اضطررت لخجلي الى تغيير لهجة التبجيل الهزلية والإنتقال الى العبارات الأوروبية العادية. وهذا يمثل درسا يجعلنا نحن الروس أضحوكة للأخرين. وفي المستقبل لن أصدر حكمي على الإنسان انطلاقا من قبعته المصنوعة من فرو الضأن (باباخا)، بل من أظافره المطلية.

توجد نقطة الحراسة كوبي عند سفح جبل كريستوفايا الذي وجب علينا اجتيازه. فتوقفنا للمبيت هناك واخذنا نفكر بالكيفية التي نجترح بها مأثرتنا الرهيبة: هل نترك العربات ونمتطي جياد القوزاق أم نستدعي الثيران المخصية الأوسيتية؟ على أي حال أنني كتبت طلباً رسمياً بإسم القافلة كلها الى السيد تشيليايف المسؤول في تلك المنطقة، ورقدنا للنوم بانتظار القرار.

في اليوم التالي وفي حوالي الساعة الثانية عشرة سمعنا ضجيجاً وصراخاً ورأينا مشهداً عجيباً: فقد كان ١٨ زوجا من الثيران النحيفة والقصيرة، يسوقها رهط من الأوسيتيين الشبه عراة، تجر عنوة عربة خفيفة من طراز «فيينا» تابعة لصديقي «و». وقد أزال هذا المشهد فورا جميع شكوكي. وقررت أن أعيد عربتي البطرسبورغية الثقيلة إلى فلاديقوقاز وأواصل الرحلة على صهوة الجواد الى تفليس. لكن الكونت بوشكين لم يرغب في الإقتداء بي. وفضل أن يربط قطيعاً كاملاً من الثيران بعربته المحملة بشتى أصناف المؤونة، وأن يعبر معها ظافرا سلسلة الجبال المكسوة بالثلوج. فافترقنا وتوجهت مع العقيد اوغاريوف لمشاهدة طرق المنطقة.

كان الطريق يمتد عبر انهيالات الصخور التي حدثت فييونيو عام ١٨٢٧. وتحدث مثل هذه الأمور عادة مرة في كل ٧ أعوام. فقد

انهارت صخرة ضخمة، وغطت الوهدة لمسافة فرست كامل وسدت مجرى تيريك. وسمع رجال الحرس الواقفون في الأسفل قعقعة رهيبة ورأوا كيف نقصت مياه النهر بسرعة وبعد مضي ربع ساعة توقف جريانها فيه ونضبت كلياً. و لم يشق تيريك مجراه عبر الإنهيال إلا بعد مضي ساعتين.إن ما حدث كان شيئاً رهيباً!

كنا نصعد المنحدرات الشديدة أعلى فأعلى. وكانت جيادنا تغوص في الثلوج الرخوة التي كان يسمع تحتها خرير الجداول. وطفقت اتطلع بعجب الى الطريق و لم أدرككيف يمكن السفر بالعربات.

ولحظتئذ سمعت قرقعة مكتومة. وقال لي السيد اوغاريوف:«أنه انهيال». والتفت فرأيت جانباً أكوام الثلج المتساقطة والمنهالة ببطئ من المرتفع. إن الإنهيالات الصغيرة غالباً ما تقع هناك. وفي العام الماضي كان حوذي روسي يسير فوق جبل كريستوفايا، وانهالت كتلة ثلجية ضخمة رهيبة فوق عربته فابتلعتها مع الحصان والحوذي الموجيك، ثم عبرت الطريق وانحدرت نحو الهاوية مع فريستها.

بلغنا قمة الجبل. وقد نصب هناك صليب من الجرانيت ، وهو نصب قديم قام يرمولوف بتجديده.

وعادة يترجل المسافرون هنا من عرباتهم ويواصلون السير مشياً على الأقدام. ومنذ فترة قريبة كان يسافر هنا قنصل أجنبي ما: وكان من الضعف بحيث طلب أن تعصب عيناه، وأن يقاد من يديه، وعندما رفعت العصابة ركع وشكر الرب وهلمجرا، الأمر الذي اثار عجب مرافقيه كثيرا.

إن العبور الخاطف لجبال القوقاز الرهيبة والتوجه نحو جورجيا

الجميلة أمر يبعث على الإعجاب. فقد أخذ هواء الجنوب يغمر المسافر بدفئه فجأة. وبدا من ذروة جبلغوت- غورا وادي كايشاؤور ببيوته المأهولة وبساتين هوبنهر اراغفي المتألق الذي يمتد مثل شريط فضي، - وهذا كله يبدو بهيئة مصغرة على عمق هوة ارتفاعها ثلاثة فرستات، و يمر فيها الطريق الخطر.

هبطنا الى الوادي. وظهر في السماء الصافية هلال رفيع. وكان الهواء في المساء هادئاً ودافئاً. وأمضيت الليل على ضفة نهر اراغفي، في بيت السيد تشيليايف. وفي اليوم التالي افترقت عن صاحب البيت الطيب القلب وواصلت طريقي.

هنا تبدأ جورجيا. وديان مضيئة يرويها نهر اراغفي المرح بدلاً من الفجوج القاتمة وتيريك المزمجر. وبدلاً من الصخور العارية رأيت حولي الجبال المكسوة بالخضرة والأشجار المثمرة. وأثبت وجود أنابيب الماء هناك وجود التمدن. وقد أدهشني أحدها بكمال الخداع البصري: إذ يتراءى كما لو أن الماء فيه يصعد في الجبال من تحت إلى أعلى.

توقفت في بيساناؤر لغرض تبديل الخيول. وهناك إلتقيت الضابط الروسي الذي كان يرافق الأمير الفارسي. وسرعان ما سمعت رنين الأجراس وانطلق في الطريق سرب من البغال المربوطة ببعضها البعض بالطريقة الأسيوية. وسرت مشياً على الأقدام من دون انتظار الجياد. فالتقيت خوزريف - ميرزا عند منعطف الطريق وعلى بعد نصف فرست من انانور. كانت عرباته واقفة هناك. بينما تطلع إلي من عربته وحياني بإيماءة من رأسه. وبعد مضي عدة ساعات من لقائنا هاجم أهل الجبل الأمير. وعندما سمع الأمير أصوات الرصاص خرج من عربته

وامتطى صهـوة حصان وانطلـق مبتعداً. وقد أثـارت جرأته عجب الروس المرافقين له. ومجمل القضية أن الأسيوي الشاب الذي لم يألف الجلوس في العربة اعتبرها في أغلب الظن مصيدة أكثر من ملاذ له.

وصلـت إلى انانـور دون أن اشعر بالتعب. و لم تصـل جيادي إلى هنـاك بعـد. وقيـل لي أن المسافة الى مدينة دوشيـت لا تتجاوز عشرة فرستات، فتوجهت مـرة أخرى في الطريق مشياً على الأقدام. لكنني لم أعـرف أن الطريق يقود الى الجبـل. واصبحت العشر فرستات هذه تعادل عشرين فرستاً.

حل المساء وأنا أمضي قدماً إلى الأمام صاعداً الجبل أكثر فأكثر. علماً أن المـرء لا يمكـن أن يضيع في هذا الطريـق. ولكن وجدت في بعض الأماكن أوحـالا طينية تصل حتى الركبتين. وتملكنـي الإرهاق تماماً. واشتـدت العتمـة. وسمعت صوت عواء ونبـاح كلاب، فابتهجت لاعتقـادي أن المدينة باتت قريبـة. لكنني أخطأت: فقد نبحت كلاب الرعـاة الجورجيين ، بينما عوت الضباع، وهـي من الوحوش المألوفة في ذلـك المـكان. ولعنـت قلة صبري، لكـن لم يكـن في اليد حيلة. واخيراً رأيت الأنوار وبحلول منتصف الليل بلغت البيوت التي تظللها الأشجـار. واقتادني أول شخص ألقـاه الى العمدة وطلب مقابل ذلك إكرامية (اباز).

أثار ظهـوري عند العمدة، وهو ضابط قديم مـن جورجيا، ردود فعـل كبيرة. وقد طلبـت، أولاً، غرفة حيث يمكـن أن أخلع ملابسي، وثانيـاً، قدح نبيذ وثالثاً منح الإكرامية(اباز) إلى مرافقي. لكن الضابط لم يكن يعـرف كيف يستقبلني، وصار يتطلع إلي بحيرة. وعنما رأيت أنـه لا يسـارع في تلبية طلباتي، بـدأت أمامه بخلـع ملابسي معتذراً

بالقـول[٥] de la liberte grand. ولحسـن الحـظ وجدت في جيبي بطاقة تؤكد أنني مسافر مسا لم ولست رينالدو- رينالديني[٦]. وتركت الورقـة المباركة فـوراً تأثيرها: فقد وفرت لي الغرفـة وجلب لي قدح النبيـذ ودفعـت الإكرامية(الابـاز) إلى مرافقي مع التعنيـف الأبوي لجشعـه الذي يشـكل إهانة إلى كـرم الضيافة الجورجـي. فاستلقيت علـى الديوان أمـلاً في أن استغـرق في النـوم كالجبابرة بعـد مأثرتي التي اجترحتهـا: لكن حدث أمر لم يكن في الحسبـان! فإن البراغيث الأشـد خطراً من الضبـاع هاجمتني طوال الليـل و لم تتركني وشأني. وفي الصبـاح جاء إلي الخادم وأبلغني أن الكونت بوشكين عبر بالبغال الجبـال المغطاة بالثلوج بسـلام ووصل إلى دوشيت. فما الذي دعاني إلى العجلـة ! وزارني الكونت بوشكين وشيريفال وعرضا علي السفر معهما مجـدداً. وغادرت دوشيت وراودتني فكرة طيبة بأنني سأمضي الليل في تفليس.

كان الطريـق ظريفـاً وجميـلاً ولـو أننا نـادراً مـا كنا نلقـى آثار سكنـى البشـر. وعبرنا نهر كـورو في موضع يبعد عـدة فرستات عن غارتسيسكالا فوق جسر قديم، هو من آثار غزوات الرومان، ووصلنا إلى تفليـس ماضين خببـاً سريعاً، وأحياناً بالتقافز،حـين بلغت الساعة الحادية عشرة من دون أن نلحظ ذلك.

---

٥. لرفع الكلفة (بالفرنسية)- المترجم

٦. قاطع طريق ذاع صيته في القرن التاسع عشر بعد نشر رواية بهذا الاسم بقلم الكاتب الالماني كريستيان فولبيوس-(المترجم)

الباب الثاني

تفليس. الحمامات الشعبية. غسان الأجدع الأنف. العادات الجورجية. الأغاني. نبيذ كاخيتيا. أسباب الحر. الغلاء. وصف المدينة. مغادرة تفليس. ليلة جورجية. منظر ارمينيا. عبور مزدوج. قرية ارمنية. قلعة غيرغيري. غريبويدوف. بيزوبدال. ينبوع المياه المعدنية. عاصفة في الجبال. المبيت في غومري. آرارات. الحدود. كرم الضيافة التركي. كارس. اسرة ارمنية. مغادرة كارس. معسكر الكونت باسكيفتش.

توقفت للمبيت في نزل، وفي اليوم التالي توجهت إلى حمامات تفليس الذائعة الصيت. وبدا لي أن المدينة مزدحمة بالناس. وذكرتني البيوت الأسيوية الطراز والسوق بمدينة كيشينوف. وكانتسير في الشوارع الضيقة والملتوية الحمير وفوقها السلال، والعربات التي تجرها الثيران. وتحشد الأرمن والجورجيون والشركس والفرس في ميدان غير منتظم الشكل. بينما كان الموظفون الشباب الروس يتجولون بينهم على جياد قره باغية. وجلس عند مدخل الحمامات صاحبها وهو شيخ فارسي. وفتح لي الباب، فدخلت إلى غرفة واسعة فماذا رأيت؟ كان هناك ما يربو على خمسين إمرأة، شابات وعجائز، شبه عرايا أو بهيئة (ربي كما خلقتني)، يقفن أو يجلسن وهن ينزعن الملابس

أو يرتدينهــا فوق مصطبات عند الجــدار. فتوقفت. وقال لي صاحب الحمامــات:« هيا، هيا، اليــوم الثلاثاء، يوم النســاء. لا بأس، فما هي بمصيبــة». فاجبته:«طبعاً، إنها ليست مصيبة، بل بالعكس». و لم يترك ظهــور رجل اي انطبــاع لدى النساء. فقد واصلــن الضحك وتبادل الأحاديــث. و لم تهرع أية واحدة منهن لتغطية نفسها بالحجاب، و لم تكف أية واحدة عن نــزع ملابسها. وبدا كما لو أنني دخلت كرجل خفي. وكانت الكثيرات حسناوات حقا وبررن خيال توماس مور».

a lovely Georgian mail,

With all the bloom the freshen'd glow

Of her own country maiden's looks,

When warm they rise from Teflis' brooks.(٧)

Lalla Rookh

بيــد أنني لم أجد شيئاً أكثر بشاعة مــن العجائز الجيورجيات: فهن قبيحــات وشريرات.إقتــادني الفارسي إلى الحمامــات: ثمة ينبوع من الماء الساخن الحديدي–الكبريتــي يتدفق في حوض عميق حفر وسط صخــرة. وأنــا لم أر في روسيا أو في تركيا حمامــات أكثر فخامة من حمامات تفليس. وسأتحدث عنها بإسهاب.

تركني الفارســي تحت وصاية الحمامجي التــتري. ولابد من القول أنــه كان بلا أنــف، لكن هذا لم يقــف حائلاً دون اتقانــه لمهنته. وبدأ غسان (كان هــذا إسم التتري الأجدع الأنف)بأن ألقاني فوق الأرض

٧. الحسناء الفتية الجورجية ذات الحمرة الساطعة وتورد الخدين.. وهو مايميز الفتيات في بلادهن، حين يخرجن حاميات من غدران تفليس (باللغة الانجليزية)– المترجم

الحجرية الدافئة، وبعد ذلك صار يحطم أعضائي، ويجرجر جسدي ، ويضربني بقبضته بعنف،لكنني لم أشعر بأي ألم، بل بارتياح عجيب.(يتهج الحمامجية الأسيويون أحياناً ، فيتقافزون فوق كتفيك، وينزلقون براحة أقدامهم فوق الفخذين ويتراقصون فوق الظهر ، بشكل *e sempre bene*[٨].وبعد هذا كله أخذ يدلكني فترة طويلة بقفاز صوفي، ويسكب على جسمي الماء الساخن بوفرة، ثم أخذ يغسلني بمنشفة كروية بها رغوة الصابون. ويصعب وصف شعوري عندئذٍ: إن الصابون الساخن يغمرني كالهواء! ملاحظة: يجب أن يستخدَم في الحمام الروسي حتماً القفاز الصوفي والمنشفة الكروية: وسيكون المتضلعون بالمهنة شاكرين لإستخدام هذا الإبتكار الجديد.

بعد المنشفة الكروية أنزلني غسان في الحوض، وبهذا انتهت المراسم.

كنت آمل ان ألتقي رايفسكي في تفليس. وعندما علمت أن كتيبته قد بدأت الزحف قررت أن أطلب من الكونت باسكيفتش السماح لي بمرافقة الجيش.

أمضيت في تفليس فترة أسبوعين تعرفت خلالها على المجتمع هناك. وروى لي سانكوفسكي رئيس تحرير صحيفة « أخبار تفليس» أشياء طريفة كثيرة عن هذا البلد، وعن الأمير تسيتسيانوف، وعن أ.ب. يرمولوف وغير ذلك. وسانكوفسكي يحب جورجيا ويتنبأ لها بمستقبل باهر.

أصبحت جورجيا تحت حماية روسيا في عام ١٧٨٣، لكن هذا

---

٨. بشكل طيب دائما (بالفرنسية)– المترجم

لم يقف عائقاً أمام أغا- محمد من دون الإستيلاء على تفليس وانزال الخراب فيها واقتياد ٢٠ ألفاً من سكانها كأسرى (في عام ١٧٩٥). وأصبحت جورجيا تابعة لتاج الإمبراطور ألكسندرفي عام ١٨٠٢. والجورجيون شعب مقاتل. وقد أبدى هذا الشعب بسالته في القتال تحت راياتنا. وتنتظر قدراتهم الذهنية الحصول على معارف أكثر. وعموماً فإنهم ميالون إلى المرح والمعاشرة الطيبة. وفي أيام الأعياد يسكر الرجال ويتجولون في الشوارع. بينما يردد الصبيان ذو العيون السود الأغاني ويتقافزون ويقومون بألعاب بهلوانية، أما النساء فيؤدين رقصة ليزجينكا.

إن الأغاني الجورجية ذات إيقاع جميل. وقد ترجمت لي كلماتها لفظة لفظة،وأعتقد أنها نظمت في العصر الحديث، لكنها تتضمن شيئاً من السخافة الشرقية الخالية من المعنى، بيد أنها ذات قيمة شعرية. وإليكم شيئاً منها:

«الروح، ولدت مؤخرا في الجنة! الروح خلقت من أجل سعادتي!

وانا انتظر حياتي منك، أيتها الخالدة.

انا أنتظر الحياة منك، أنت الربيع الزاهر، وأنت القمر ذو الأسبوعين،وملاكي الحارس.

وجهك صبوح، ويمرح بإبتسامة. أنا لا أريد امتلاك الدنيا بل أريد نظرة منك. وانتظر منك الحياة !

أيتها الزهرة الجبلية، المبللة بقطرات الطل! ياحبيبة الطبيعة الأثيرة!أيها الكنز الخفي الهادئ! انا أنتظر منك الحياة».

والجورجيون يعاقرون الخمر - لكن ليس مثلنا، وهم أقوياء بشكل عجيب. ولا يمكن نقل نبيذهم لأنه يفسد بسرعة، لكنه رائع في بلدهم. وأصناف النبيذ الكاخيتي والقره باغي تعادل بعض أصناف نبيذ بورغون. ويحفظ النبيذ في مارانات(دنان خزفية كبيرة) تدفن تحت الأرض. ويتم فتحها بمراسم احتفالية. ومنذ فترة قريبة فتح فارس من كتيبة دراغون روسية أحد هذه الأوعية سراً، وسقط فيه وغرق في النبيذ الكاخيتي، مثل كلارنس التعيس[٩] في دن نبيذ ملقاً.

تقع تفليس على ضفاف كورا، في واد تحف به الجبال الصخرية. إنها تقيه من الرياح من كافة الجهات، وعندما تتلظى تحت الشمس فإنها لا تسخن بل يصل فيها الهواء الساكن الى درجة الغليان. وهذا هو سبب الحر الذي لا يطاق السائد في تفليس بالرغم من أن المدينة تقع أيضاً فقط على الدرجة ٤١ من خطوط العرض. وتسمية المدينة نفسها (تبليس-كالار) تعني المدينة الحارة.

إن القسم الأكبر من المدينة شيد على الطراز الأسيوي: فالبيوت منخفضة، والسطوح مستوية. وفي القسم الشمالي تنتصب بيوت شيدت بأسلوب العمارة الأوروبي، وحولها بدأت بالنشوء الميادين المتساوية الأبعاد. وينقسم السوق إلى عدة صفوف للباعة: الدكاكين ممتلئة بالسلع التركية والفارسية، الرخيصة جداً، إذا ما أخذنا في الإعتبار الغلاء العام. وسلاح تفليس غالي الثمن في الشرق بأسره. واختبر الكونت ساموليوف و«ف»، اللذان يعتبران هنا من الجبابرة، اختبرا هنا سيوفهما الجديدة بقطع خروف إلى قسمين أو بتر رأس ثور بقطفة واحدة.

---

٩. الدوق كلارنس الانجليزي الذي اغرقه اخوه الملك ادوارد الرابع في برميل من النبيذ (المترجم).

يشــكل الأرمن غالبية الســكان في تفليس : في عام ١٨٢٥ وصل عددهــم إلى ٢٥٠٠ أســرة. وفي فــترة الحــروب الراهنــة تضاعــف عددهــا أكثر. بينمــا يبلغ عدد الأســر الجورجيــة ١٥٠٠. أما الروس فلا يعتــبرون أنفسهم من الأهــالي المحليــين. والعسكريون المطيعون للواجــب، يعيشون في جورجيــا بحكم الأوامر الصــادرة إليهم. أما المستشــارون الشباب من الأعيــان فيأتون إلى هناك بغية الحصول على لقــب «اسيسور» أي النقيب المأمول كثــيرا. وأولئك وهؤلاء ينظرون الى جورجيا بصفتها المنفى.

ويقــال أن الطقــس في تفليس غــير صحي. والإصابــات بالحمى هنــاك فظيعة، وتجــري معالجتهــا بالزئبق، الذي لا يسبــب استخدامه الضــرر بسبب الحرارة. ويعطيه الأطباء مرضاهم بلا أي تأنيب ضمير. ويقــال أن الجنرال سيبياغين قــد توفي لأن طبيب الأســرة الذي رافقه مــن بطرسبورغ قد خشي العلاج الذي اقترحه الأطباء و لم يعط الدواء المذكــور. إن اصابات الحمــى هناك تشبه الحمى في القــرم ومولدافيا وتعالج بنفس الطريقة.

يشــرب الأهالي ماء نهر كورا العكر لكن الطيــب المذاق. علماً أن مذاق الكبريت يتحسس بشدة في مياه جميع الينابيع والآبار. والجميع يحتسون النبيذ عموماً هناك ولهذا لا تلاحظ شحة المياه.

لقــد أثار دهشتــي في تفليس أن النقود لا قيمــة لها. فوجب علي أن أدفــع للحوذي روبلين فضيين لدى التنقــل في شارعين والإنتظار لمــدة نصف ساعــة لينصرف بعدها. وفي البداية فكــرت بأنه ربما أراد استغــلال كوني مسافرا عابراً لا يعرف المكان، لكن قيل لي أن هذا هو السعر فعلاً. وجميع الخدمات والأمور الأخرى غالية لدى المقارنة.

ذهبنا الى المستوطنة الألمانيـة وتناولنا الغداء هناك. واحتسينا هناك البـيرة المصنوعة محلياً، ومذاقها غـير طيب البتة، ودفعنا ثمناً غالياً جداً لقاء غداء سيء جداً. وفي نزلي أطعموني أيضا بثمن غال. وحدث مرة أن استدعـاني الجنرال ستريكالوف، المعروف بكونه ذواقة في الطعام، لتنـاول الغداء معه. ولسـوء الحظ فإن الطعام لديـه كان يقدم حسب المناصـب، وكان يجلسـ وراء المائدة ضباط إنجليـز يحملون شارات جنرال. وقد أبدى الخدم همة في إطعامي لدرجة أنني قمت من المائدة جوعان. ليأخذ الشيطان الذواقة من تفليس!

بقيت أنتظر بفارغ الصبر تقرير مصيري. وفي نهاية المطاف تلقيت رسالة من رايفسكي يطلب فيها أن أعجل بالسفر الى كارس، لأنه بعد عدة أيام ستواصل القوات التحرك. فسافرت في اليوم التالي.

توجهت علـى صهوة جواد، وكنت أغـيره في نقاط الحراسة التي يرابط فيها القـوزاق. وكانت الأرض حولي شديدة السخونة. وبدت لي القـرى الجورجية من بعيد وكأنها بساتين رائعة، لكنني كنت لدى الإقـتراب منها أجد عدة أكواخ فقيرة، تظللهـا أشجار الحور المغبرة. ومالت الشمس الى المغيب لكن الهواء بقي خانقاً:

ليال قائظة !

ونجوم غريبة!..

تألـق القمـر، وسـاد الهـدوء في كل مـكان: ولم يكـن يسمع في سكـون الليل سوى وقع حوافر جوادي. وسـرت فترة طويلة دون أن ألقـى علائم السكن. وأخيراً شاهدت كوخاً منفرداً. وطرقت الباب. وخرج رب البيـت. وفي البداية رجوته بالروسيـة ومن ثم بالترية أن

يعطينـــي ماءاً. لم يفهم كلامي. إنها لامبالاة غريبة! فعلى مسافة ثلاثين فرستـا من تفليس، في الطريـق إلى فارس وتركيا، أجد رجلا لا يعرف كلمة بالروسية أو التترية.

قضيـت ليلتي في نقطـة الحراسة القوزاقية، وعنـد الفجر واصلت طريقـي. وكان الطريق يمتد عبر الجبال والغابـات. وإلتقيت مسافرين من التتر، وكانت بينهم عدة نساء، كن يمتطين الجياد ويلتففن بالحجاب، ولم يكن يرى منهن سوى العينين وكعوب الأحذية.

بـدأت بتسلق بيزوبدال، الجبل الذي يفصـل جورجيا عن أرمينيا القديمـة. الطريق واسع وتظللـه الأشجار، ويمتد ملتويـاً حول الجبل. ولـدى صعودي إلى ذروة جبل بيزوبدال مـررت عبر فج صغير أظن أن إسمه «بوابة الذئـب»، وأصبحت عند الحدود الطبيعية لجورجيا. وظهـرت أمامي جبال جديدة، وأفق جديـد، وانداحت تحتي حقول الغلال الخضراء. وتطلعت مرة أخـرى إلى جورجيا الرمضاء ثم بدأت بالهبوط من الجبل القليل الإنحدار إلى سهول أرمينيا النضرة. وشعرت وقد تملكني الإرتياح البالغ أن القيظ قد خف فجأة. وتغير الطقس.

تخلف عني خادمي مع خيول الحمل. وانطلقت وحدي في البرية الزاهرة، المحاطة بالجبال البعيدة. وبسبب غفلتي مررت بمحاذاة نقطة الحراسـة حيـث وجب أن أبـدل الخيول دون التوقـف فيها. ومضت فـترة تربو على ست ساعات ، واخذت أعجـب لكون مسافة العبور طويلة. ورأيت جانباً أكوام أحجار تشبه الأكواخ، فتوجهت نحوها. وتبـين في الواقع أنني جئت إلى قرية أرمنية. وكانت عدة نساء يرتدين الأسمـال الصارخة الألـوان يجلسن علـى السطـح المستوي لكوخ بني تحـت الأرض. وشرحت لهن حالي بشكل مـا. وولجت إحداهن

المسكـن وجلبت لي الجبن والحليـب. وبعد فترة إستراحـة استغرقت عـدة دقائق واصلت المسيرة وشاهدت من الضفة العالية للنهر أمامي قلعـة غيرغيري. فعـبرت النهر. وكان إثنان من الثـيران المربوطان إلى عربـة يصعدان في الطريـق الشديد الإنحدار. وثمـة عدة جورجيين يرافقون العربـة. فسألتهم:من أين انتم قادمـون؟». « من طهران « – ومن تنقلون؟» – « جريبويدوف «.– كان هناك جثمان جريبويدوف القتيل الذي رافقوه الى تفليس.

لم أكن افكر بأنني سألتقي شاعرنا جريبويديوف! إنني افترقت عنه في العام الماضـي، في بطرسبورغ، قبيل سفـره الى بلاد فارس. وكان حزينا وغلبه شعور داخلي غريب. وعندما أردت أن أطمأنه قال لي:

« *Vous ne connaissez pas ces gens—la: vous verrez qu'il faudra jouer des couteaux*"[١٠]

وكان يعتقد أن سبب إراقة الدماء سيكون وفاة الشاه والصراع بين أولاده السبعـين. لكن الشاه العجوز ما زال حيا يرزق، بينما تحققت تنبؤات جريبويدوف. فقد اغتيل الشاعر بخناجر الدهماء من الفرس، وراح ضحية الجهل والغدر. و لم يتم التعرف على جثمانه المشوه ، بعد أن كان جثمانه ألعوبة بيد الدهماء في طهران خلال ثلاثة أيام، إلا من أثر في يده المصابة في وقت ما برصاصة مسدس.

لقد تعرفت على جريبويدوف في عام ١٨١٧ . وكان كل شيء فيه يتسـم بالجاذبية، طبعه السوداوي الميـال الى الكآبة، وعقله المستشري

١٠. انت لا تعرف بعد هؤلاء البشر، وسترى ان المسألة ستصل الى حد الطعن بالسكاكين(بالفرنسية)–المترجم.

غضبـاً، وطيبتـه، وهـي من أكـثر الصفات ضعفـاً وعيبـاً التي تلازم البشريـة، لكن مع هذ فإن كل شيء فيه يتسـم بجاذبية غير عادية. لقد ولـد بشعور مـن عزة النفس يعادل موهبتـه، وكان خلال فترة طويلة أسـير شباك سفاسف الأمور، وغير معروف. أمـا قدراته كرجل دولة فلم تتحقـق، و لم يعترف بموهبتـه كشاعر، وحتـى شجاعته المقحامة غير المباليـة والرائعة بقيت على مدى فترة طويلـة موضع ريبة وشك. وعرف بعض الأصدقاء قيمتـه، وكانوا يرون إبتسامة عدم الثقة، تلك الإبتسامة السخيفة والثقيلـة الوطأة على الوجوه، حين يدور الحديث عنه كرجل فذ غير عادي. فالناس يصدقون فقط ذيوع الصيت والمجد ولا يدركون بأنه يمكن أن يوجد بينهم نابليون ما لم يتول قيادة أية سرية جبليـة، أو ديكارت ما لم ينشـر أي سطر في صحيفة «موسكوفسكي تلجـراف». علماً أن احترامنـا للشهرة ربما ينبثق مـن الغرور وحب الذات: إذ أن صوتنا أيضا يوجد في صنع الشهرة والمجد.

لقد عكرت حياة جريبويـدوف عدة سحب قاتمة: بحكم جموح العواطف والظروف الجبارة. وكان يشعر بضرورة التخلص مرة وإلى الأبد مـن نزوات فـترة الشباب،وتغيير نمط حياته تغيـيرا تاماً. فغادر بطرسبـورغ شارد الذهن عاطـلاً، وسافر إلى جورجيـا، حيث عاش طوال ثمانية أعوام متوحداً منعزلاً، ومتشدداً حيال نفسه لدى ممارسة أعمال ما بلا توقف. وكانت عودته إلى موسكو في عام ١٨٢٤ نقطة انعطـاف في مصيره وبدايـة نجاحات متواصلة. فقـد تركت مخطوطة مسرحيتـه الكوميديـة «ذو العقل يشقى بعقله» انطباعـا شذيدا يفوق الوصف وبغتة وضع في مصاف شعرائنا الكبار. وبعد فترة من الوقت فتحـت مجالاً جديـداً للعمل معرفتـه الكاملة بالبلاد التـي بدأت فيها الحـرب آنذاك، فعين مبعوثاً للدولة. وجـاء إلى جورجيا وتزوج الفتاة

التي أحبها.. وأنا لا أعرف شيئاً عن حياته العاصفة التي يحسد عليها في الأعوام الأخيرة.أما الموت نفسه في معركة غير متكافئة تجلت فيها بسالته فلم يكن فيه أي شيء فظيع وثقيل الوطأة بالنسبة إلى جريبويدوف نفسه. فقد عاجله الموت في لحظة خاطفة وبشكل رائع.

وكم آسف لأن جريبويدوف لم يترك خلفه أية مذكرات. ووجب أن يكتب أصدقاؤه سيرة حياته. لكن الرجال البارزين يختفون عندنا من دون أن يتركوا أثراً. فنحن كسالى وغير تواقين إلى المعرفة...

إلتقيت بوتورلين في غيرغيري الذي كان مثلي يتوجه إلى الجيش. وكان بوتورلين يسافر مصحوباً بمختلف أصناف اللوازم. وتغديت معه كما لو كنت في بطرسبورغ. واتفقنا على السفر سوية. لكن غلبني مرة أخرى شيطان عدم الصبر. ورجاني خادمي أن أسمح له بأخذ قسط من الراحة. فمضيت بمفردي حتى بدون مرشد يرافقني. فالطريق واحد وآمن تماماً.

عبرت الجبل ونزلت إلى الوادي الوارف الظلال، فرأيت ينبوعاً يجري مأوه عبر الطريق. وهناك إلتقيت قساً أرمنياً كان متوجها من اخالتسيك إلى يريفاني. فسألته:«ما الجديد في يريفاني؟» فأجابني قائلا:«في يريفاني طاعون»، – «وماذا يحدث في اخالتسيك؟». فأجاب قائلاً «في اخالتسيك طاعون». وبعد أن تبادلنا هذه الأخبار السارة افترقنا.

كنت أسير عبر المزارع المثمرة والمراعي المزهرة. وكانت المحاصيل قد نضجت وانتظرت المناجل. واخذت أمتع نظري بالأراضي التي أصبحت خصوبتها مضرب المثل في بلدان الشرق. وبحلول المساء وصلت إلى بيرنيك.

توجـد هناك نقطـة حراسة للقوزاق. وغطـت السحب السماء، وكنـت آمل في أن تشتـد الرياح في المساء وتبددهـا. لكن السحائب ألقت أرواقها وبدأ تساقط رذاذ المطر ثم اشتد شيئاً فشيئاً وازداد عنفاً. تبلغ المسافة من بيرنيـكا إلى غومري قرابة ٢٧ فرستا. فأحكمت ربط حزام عباءتي الوبرية، وألقيت القلنسوة فوق قبعتي وأسلمت أمري إلى العناية الإلـهية.

مضـت فترة تربو علـى الساعتـين. و لم يتوقف المطـر. وكان الماء يسيـل مـدراراً من عباءتي الثقيلـة والقلنسوة. وفي نهايـة المطاف بلغ سيل الماء البارد وراء ربطة العنق وسرعان ما أصاب البلل جسدي كله. إحلولكت ظلمـة الليلة، وسار في المقدمة قوزاقي يدلني على الطريق. وبدأنـا بتسلق الجبال. وتوقف المطر وتبددت السحب. وبقيت أمامنا مسافة عشر فرستات لبلوغ غومري. وكانت الرياح العاصفة من الشدة بحيـث أنها جففت ملابسي في غضون ربع ساعة. وأخذت أفكر في تفادي الإصابة بالحمى. وأخيراً وصلنا إلى غومري عند منتصف الليل تقريباً. فقادني القوازقي إلى نقطة الحراسة مباشرة. وتوقفنا بالقرب من خيمة سارعت إلى دخولها. فوجدت هناك إثني عشر قوزاقيا، راقدين أحدهـم إلى جانب الآخر. وافسحوا المجال لي، ورقدت على العباءة، و لم أشعـر بشيء من التعب. ففي هذا اليوم قطعت مسافة ٧٥ فرستا. وغفوت كالميت.

أيقظني القـوزاق عند الفجر. وكان أول ما جال في فكري هل أنا أرقد مصاباً بالحمى. ولكنني شعرت والحمد لله أنني رائق المزاج فياض العافيـة، و لم يكن هناك أي اثر للمرض وكذلك للتعب. وخرجت من الخيمـة إلى هـواء الصبـاح المنعش. وقـد أشرقت الشمـس. وتألق في السماء الصافية جبل ذو ذروتين تغطيه الثلوج. وسألت وأنا اتمطى «ما

هذا الجبل؟»»، فجـاء الجواب: «أنه ارارات». ما أشد تأثير الأصوات! وصـرت أتطلع بإمعان وشغف إلى الجبـل الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس. وترائت لي سفينة نوح التي ترقد فوق ذروته أملاً في التجدد والحياة –والغراب والحمامة وهمـا الطائران اللذان يرمزان الى الموت والمصالحة[١١]..

كان حصاني جاهـزاً. وسافرت برفقة الدليل. بـدا الصباح رائعاً. والشمس ساطعـة. وسرنا في مرعـى فسيح الأرجـاء يغطيه العشب الأخضر الكثيف الذي يرويه الطل وقطرات مطر الأمس. وتلألأ أمامنا غديـر وجب علينا اجتيازه. وقال لي القوزاقـي: « هوذا ارابتشاي! ». ارابتشاي ! إنها حدودنا! إنها حظيرة ارارات ! واندفعت نحو النهر وقـد تملكني شعور مبهم لا يمكن تأويلـه. إنني لم أر من قبل أبداً أرضاً أجنبيـة. وكانت الحـدود بالنسبة لي شيئاً غامضـاً، ومنذ طفولتي كان السفر في رحلات حلمي المحبوب. وجبت فيما بعد في حياتي الكثير مـن الأصقاع، وسافرت جنوبـا تارةً وشمالاً تـارةً أخرى، لكنني لم أنطلق بعد أبداً خارج حـدود روسيا المترامية الأطراف. وولجت مياه النهـر المأمول وحملني جوادي الطيب الى الضفة التركية. لكن كانت هذه الضفة عندئذٍ قد احتلت: أي أنني مازلت في روسيا.

بقيـت مسافـة ٧٥ فرستا حتى بلوغ كارس. وكنـت آمل أن أرى معسكرنـا بحلـول المسـاء. و لم أتوقف في أي مـكان. وفي منتصف الطريـق، وفي قريـة أرمنية شيدت على ضفة النهـر في الجبل، تناولت التشـورك اللعين، وهو الخبز الأرمني الذي يصنع بهيئة أرغفة نصفها مـن الرماد، إنهـا الأرغفة التي كان الأسرى الأتـراك في وادي داريال

١١. بوشكين يستعيد أسطورة سفر التكوين في الكتاب المقدس – الاصحاح الثامن، لكن لا يعرف لماذا اعتمد الطائرين المذكورين كرموز– المترجم.

يبتلعونهـا بجهد. إننـي كنت سأدفع ثمناً غالياً لقـاء قطعة من الخبز الأسـود الروسـي الـذي نفر الأسرى منـه. ورافقنـي شاب تركي ثرثـار مزعج للغاية. وكان طوال الطريق يثرثر دون أن يهتم فيما إذا كنـت أفهم شيئاً مما يقـول أم لا. وكنت أركز انتباهي وأسعى إلى أن اخمـن مغزى أقواله. وبدا أنه شتم الروس الذين اعتاد رؤيتهم في البزات العسكرية، وعندما نظر إلى ملابسي اعتبرني أجنبياً. وإلتقينا في الطريـق ضابطاً روسيـاً. وكان قادماً من معسكرنـا فأبلغني أن جيشنا قـد غادر كارس. ولا أستطيع وصـف خيبة أملي: فالتفكير بأننـي يجب أن أعود إلى تفليس، بعد مـا عانيته عبثاً من عذاب في أرمينيـا القاحلة، جعلني أشعـر بالإحباط التام. وانطلق الضابط في طريقه، بينما بدأ التركي مونولوجه مجدداً، ولكنني لم أعد أهتم به. فاستبدلـت الحصان بجواد سريع كبير ووصلـت في المساء الى قرية تركية تبعد مسافة ٢٠ فرستا عن كارس.

وبعـد أن ترجلـت من الجـواد أردت دخـول أول بيـت هناك فأوقفنـي في الباب صاحبـه ودفعني وهو يطلـق الشتائم. ورددت على تحيتـه هذه بضربـة السوط. وصـرخ التركي وتجمهـر الناس. وأظـن أن مرافقي قد دافع عني. وأشـاروا إلى نزل هناك، فدخلت بيتـا كبيراً(سـاكلا) يشبـه زريبة، ولم أجـد مكاناً أضع فيـه العباءة اللبادية(بـوركا). فطلبـت جواداً. وجـاء إلي رئيـس عرفاء تركي. فأجبـت عن جميع أقواله غير المفهومة بعبارة واحدة: فيربانا آت (أعطني جواداً). ولم يوافق الأتراك. وفي نهاية المطاف حدست بأن مـن الواجـب أن أريهم النقود (وهذا مـا كان يجب علي فعله منذ البداية). فاقتيد إلي الجواد فوراً، وأعطوني مرافقاً أيضاً.

مضيـت علـى صهـوة جـوادي في واد واسع تحيط بـه الجبال.

وسرعان ما رأيت كارس، بإبيضاضها فوق أحد الجبال. وأشار التركي اليها وكرر قائلاً: كارس، كارس ! وانطلق بجواده وتبعته، وطفح قلبي بعذاب القلق: فكان يجب أن يتقرر مصيري في كارس. ووجب ان أعرف هناك أين يوجد معسكرنا وهل ستتوفر لدي الفرصة للحاق بجيشنا. وفي هذه الأثناء تلبدت السحب في السماء وانهمر المطر مجدداً. لكنني لم ألق بالاً له.

بلغنا كارس. وعندما اقتربنا من البوابة في السور سمعت صوت قرع الطبل الروسي مؤذنا بالإصطفاف عند الفجر. إستلم الحارس مني بطاقتي وتوجه الى الكومندان. ووقفت تحت المطر حوالي نصف ساعة. وأخيراً سمحوا لي بالمرور. وأمرت مرافقي بأن يقودني فوراً إلى الحمام. فسرنا في شوارع ملتوية وشديدة الإنحدار. وكان الحصانان ينزلقان فوق الأرضية التركية السيئة. وتوقفنا عند أحد المباني ذي المظهر البائس جداً. كان هناك الحمام. وترجل التركي من الحصان وأخذ يطرق الباب. فلم يجب أحد. وانهمر المطر علي مدراراً. واخيراً خرج من المبنى المجاور شاب أرمني، وبعد ان تبادل الحديث مع مرافقي دعاني إلى بيته، وكان يتحدث بلغة روسية سليمة جداً. واقتادني في زقاق ضيق إلى جناح آخر من مسكنه. وجلست في الغرفة المزينة بأرائك منخفضة وسجاجيد متهرئة إمرأة عجوز هي أمه. فدنت مني وقبلت يدي. وأمرها الإبن بأن توقد النار وتعد لي العشاء. فخلعت ملابسي وجلست قبالة النار. فدخل الشقيق الأصغر لصاحب البيت، وهو صبي في السابعة عشرة عاماً تقريباً. وكان الشقيقان قد عاشا في تفليس عدة أشهر. وأبلغاني بأن قواتنا قد انطلقت من المدينة في العشية وأن معسكرنا يرابط في مكان يبعد ٢٤ فرستا عن كارس. فغمرني الإطمئنان تماماً.

ورقدنـا جميعاً في غرفة واحدة، ونزعت ملابسي أمام الموقد الذي تخبـو النار فيه، وغفوت وراودني الأمل البهيج في أن أرى معسكر الكونت باسكيفيتش في اليوم التالي.

في الصبـاح خرجت لمشاهـدة المدينة. وتـولى الشقيق الأصغر مهمة أن يكون دليلي (تشيرتشيرون). ولدى مشاهدة التحصينات والقلعة المنتصبة فوق صخرة منيعة، لم أفهم كيف استطعنا الإستيلاء علـى كارس. وشـرح الأرمنـي لي حسـب استطاعتـه العمليات العسكرية التي شهدها. وعندما لاحظت اهتمامه بالحرب عرضت عليـه أن يرافقنـي إلى الجيش. فوافـق على الفـور. وارسلته لجلب جواديـن. وجاء إلي برفقة ضابط طلب مني إبـراز الأمر التحريري للمـرور. وعندمـا شاهدت سمـات وجهه الأسيوية قـررت أنه لا حاجة لكي أنبش في أوراقي وأخرجت من جيبي أول ورقة وقعت في يـدي. فنظر الضابط إليها بوقار، وأمـر على الفور باقتياد جواد «سعادته» حسب ما جاء في الأمر. وأعاد إلي الورقة: وكانت رسالة إلى كالميكيـة خربشتها في إحدى محطات القوقاز. بعد نصف ساعة غادرت كارس، ومضى ارتيمـي (هذا هو إسم صاحبي الأرمني) خبباً إلى جانبي فوق صهوة فرس تركيـة وبيده رمح كورتينيمرن، وثمـة خنجـر في حزامه، وصـار يطنـب في الكلام عـن الأتراك والمعارك.

كنت أسـير في أرض بذرت فيها الحبوب في كل مكان، وكنت أرى حـوالي القـرى، لكنها كانـت خالية فقد هـرب ساكنوها في مختلف الأنحـاء.وكان الطريـق رائعاً وأقيمت جسـور حجرية في أماكن المستنقعات وعبر الأنهار. وصارت الأرض تميل إلى الإرتفاع بشـكل ملحوظ - حيث بـدأت بالظهور التـلال الأمامية لسلسلة

جبال ساغان – لو (تافرا القديمة). وانصرمت قرابة ساعتين،وبلغنا هضبة منحدرة قليلاً، فرأيت معسكرنا الواقع على ضفة نهر كارس – تشايا. وبعد مضي عدة دقائق كنت في خيمة رايفسكي.

الباب الثالث

الزحف عبر ساغان-لو. تراشق بالنيران. حياة المعسكر. الأيزيديون. المعركة مع سيراسكير ارضروم. المبنى المنفجر.

لقد جئت في الوقت المناسب. ففي ذلك اليوم (١٣ يونيو) تلقت القوات الأمر بالزحف الى الأمام. وبينما كنت أتناول الغداء عند رايفسكي سمعت الجنرالات الشبان يتحدثون عن التحرك المقرر لهم. وقد اتخذ الجنرال بورتسوف موقعه من الجهة اليسرى لطريق ارضروم الكبير قبالة المعسكر التركي مباشرة، بينما وجب ان تمضي بقية القوات جميعاً في الجهة اليمنى للقيام بحركة إلتفاف حول العدو.

في الساعة الخامسة بدأت القوات زحفها. فسرت مع كتيبة فرسان (دراغون) نيجني نوفغورود وأنا أتبادل الأحاديث مع رايفسكي الذي لم ألتق به منذ عدة أعوام. ثم حلت دجنة الليل، وتوقفنا حيث وجدت جميع القوات المكان للتوقف. وعندئذٍ أتيح لي شرف تقديمي إلى الكونت باسكيفتش.

وجدت الكونت في بيت يقع قبالة النار المستعرة في المعسكر، وحوله ضباط الأركان. وكان مرحاً متهلل الأسارير واستقبلني

بترحـاب ومودة. ورغم أنني كنت أجهل فنـون الحرب فلم تخالجني الشكوك في أن مصير الحملة العسكرية يتقرر في تلك اللحظة. ورأيت هنـاك صاحبنـا فولخوفسكي وقد عـلاه الغبار من قمـة الرأس وحتى أخمص القدمـين، وأطلق شعر لحيته، واستبدت به المشاغل والهموم. ومع ذلك وجد الفرصة للتحـدث معي كرفيق قديم. كما رأيت هناك ميخائيـل بوشين الذي أصيب بجـروح في العـام الماضي.إنه يحظى بالمحبة والإحترام كرفيق طيب وجندي شجاع. وأحاطني العديد من رفاقي القدامى. مـا أكثر ما طرأ عليهم من تغيير. وكيف يمضي الزمن بسرعة !

Heu! fugaces ،Postume،Postume،

Labuntur anni...(12)

عـدت إلى رايفسكـي وأمضيـت الليل في خيمتـه. وفي منتصف الليـل أيقظني صراخ رهيب: وجـال في خاطري أن العدو قام بهجوم مباغـت. فأرسل رايفسكي رجاله لمعرفـة سبب الضجة: وقد تبين أن عـدة خيول تترية، قطعت أربطتهـا، وانطلقت في أرجـاء المعسكر، بينما أخذ المسلمون (تطلق هذه التسمية على التتر الذين يخدمون في قواتنا) يطاردونها ويقبضون عليها.

عندما أسفر نور الفجر بدأت القوات بالزحف إلى الأمام. واقتربنا من جبـال تكسوها الغابات. وولجنـا وادياً ضيقـاً. وكان الفرسان (الدراغـون) يتبادلون الأحاديث فيما بينهم:«خـذ بالك، يا أخ: إنهم سيمطروننا بالذات بوابل من الخراطيش». فعلاً إن المكان كان مناسباً

---

١٢. اوه، بوستوم، بوستوم.. ما اسرع ما تمضي الايام.

لنصب الكمائـن، لكن الأتراك الذين ألهاهـم تحرك الجنرال في الجهة الأخـرى، لم ينتهزوا هذه الفرصة المواتيـة لهم. وعبرنا بسلام الوادي الخطر، وبلغنـا ذرى ساغان - لوعلى بعد عشرة فرستات من معسكر العدو.

كانت الطبيعة حولنا متجهمة. وكان الهواء بارداً، والجبال مغطاة بأشجار الصنوبر الكثيبة. بينما غمرت الثلوج الوديان الضيقة.

...nec Armeniis in oris,

Amice Valqi,stat qlacies iners

Menses per omnes...(13)

وحالمـا أخذنا قسطاً من الراحة وتناولنا الغداء سمعنا هزيم المدافع. وبعث رايفسكي رجاله لمعرفة جلية الأمر. وقد أبلغوه أن الأتراك بدأوا بإطـلاق النار على مواقعنا الأمامية. وتوجهـت راكباً مع سيميتشيف لرؤية مشهد جديد بالنسبـة إلي. وإلتقينا قوزاقياً جريحاً: كان يجلس علـى سـرج حصانه مترنحا وهـو شاحب الوجه والدمـاء تنزف منه. وأسنـده إثنان مـن القوزاق. وسـأل سيميتشيف: «هل هناك كثير من الأتـراك؟». فأجابـه أحدهما: «إنهـم يمطروننـا بوابل مـن الرصاص ياصاحـب السعادة «. وبعد أن عبرنا الوادي شاهدنا في منحدر الجبل المقابل حوالي ٢٠٠ قوزاقي متحصنين في فجوة، وفوقهم حوالي ٥٠٠ تركي. وكان القـوزاق يتراجعون ببطئ، أما الأتراك فكانوا يقتحمون بجسارة كبيرة، ويطلقون النـار من مسافة ٢٠ خطوة. كانوا يطلقون

---

١٣. ان أرض ارمينيا، ياصديقي فالجيوس، لا يغطيها الجليد الساطع طوال العام (باللاتينية)، وجاي فالجيوس روفوس كاتب روماني لا تيني قديم (المترجم).

النـار، ثـم يتراجعـون القهقرى.وكانـت عمائمهم العاليـة وسترات الفرسـان الجميلـة والعدة الزاهيـة لجيادهم تتناقض تماماً مع البزات الزرق والعدة البسيطة لجياد القوزاق. وأرسل المقدم باسوف في طلب المعونة. وفي هذه الأثناء جرح نفسه في ساقه. وأراد القوزاق التدخل. لكن باسوف إمتطى مجـددا صهوة جواده وبقي مع رجاله. وهرعت الى المـكان قوات الدعم. وعندما شاهدها الأتراك اختفوا على الفور، مخلفـين ورائهم جثة عاريـة لقوزاقي مقطوع الرأسـ ومزقته طعنات السيـوف. وعادة يرسل الأتراك الرؤوسـ المقطوعة إلى القسطنطينية، أما الأيدي فتلـوث بالدم وتطبع بصماتها على راياتهم. خمد إطلاق النـار. وحلقت في الجو فوق الجبال النسور التـي ترافق القوات بحثاً عن فريسة لها. وفي هذه اللحظة جاء حشد من الجنرالات والضباط: جاء الكونت باسكيفتش وانطلق في الجبل الذي اختفى ورائه الأتراك. وكان يدعمهم ٤٠٠٠ فارس يختبـأون في الوهدة والوديان الضيقة. وبـدا أمامنا من قمة الجبـل معسكر الأتراك الـذي تفصله عنا الوهاد والمرتفعـات. ورجعنا في وقت متأخر. ولـدى السير نحو معسكرنا شاهدنـا جرحانا الذين توفي خمسة منهم في تلـك الليلة، وفي اليوم التـالي. وفي المساء زرت الشـاب الجريح اوستن – ساكين الذي جرح في اليوم ذاته في معركة في مكان آخر.

لقـد أعجبتنـي كثـيرا الحيـاة في المعسكـر. وأيقظنا هـزيم المدافع عنـد الفجر. إن النـوم في الخيمة صحي بشكل عجيـب. وتناولنا في الغداء المشويـات الأسيوية والبـيرة الإنجليزية والشمبانيـا التي بردت في ثلوج تافريـا. وكان مجتمعنا متنوعاً.واجتمـع في خيمة رايفسكي بيكوات(قادة) الكتائب الإسلامية، وكان الحديث يجري عبر مترجم. كمـا وجد ضمن قواتنا أبناء شعوب أقاليمنـا فيما وزاء القوقاز وأبناء أهـالي الأراضي التي تم الإستيـلاء عليها مؤخـراً. وتطلعت بفضول

من بينهم إلى الإيزيديين الذين ذاع صيتهم في الشرق بكونهم من عباد الشيطان. وتعيش عند سفوح ارارات قرابة ٣٠٠ اسرة منهم. وقد أبدوا الولاء إلى القيصر. وزعيمهم رجل فارع الطول قبيح الوجه يرتدي وشاحا أحمر وقبعة سوداء، وكان يأتي أحيانا لإبداء ولاء الطاعة إلى الجنرال رايفسكي قائد جميع الفرسان. وأردت أن أعرف من الإيزيديين الحقيقة عن دينهم. وأجاب الزعيم عن أسئلتي بالقول أن الإشاعات الزاعمة بأن الإيزيديين يعبدون الشيطان محض هراء، وإنهم يؤمنون بالرب الأوحد. وحسب قانونهم فان توجيه اللعنة الى الشيطان تعتبر، حقا، شيئاً غير لائق وشائن، لأنه الآن غير سعيد، وبمرور الزمن يمكن أن تغفر له جريرته، لأن الله غفور رحيم بلا حدود. وقد بعث هذا التفسير الإطمئنان في قلبي. وكنت مسرورا جدا لمعرفتي أن الأيزيديين لا يعبدون الشيطان ، وبدت لي ضلالتهم جديرة أكثر بالعفو عنهم.

جاء مرافقي إلى المعسكر بعدي بثلاثة ايام. وقد وصل مع قافلة عربات الدعم والمؤونة التي وصلت الى الجيش بسلام في ظروف وجود العدو. ملاحظة: خلال فترة الحملة العسكرية كلها لم يستحوذ العدو على أية واحدة من الطوابير الكثيرة لتموين الجيش. ويبعث على الإعجاب حقاً الأسلوب الذي تتحرك فيه القوافل وراء صفوف القوات.

في صباح يوم ١٧ يونيو سمعت مجدداً أصوات الإشتباكات وبعد مضي ساعتين شاهدنا كتيبة قره باغ عائدة حاملة ثمان رايات تركية: لقد قارع العقيد فريدريكس العدو المتخندق وراء انهيالات الصخور وضيق عليه الخناق وأرغمه على الخروج وطارده. أما عثمان باشا قائد الفرسان فبالكاد أفلح في النجاة بنفسه.

في ١٨ يونيو إنتقل معسكرنا إلى مكان آخر. وفي ١٩ منه دبت الحركة في المعسكر كله حالما أيقظنا المدفع. وانطلق الجنرالات إلى مواقعهم. وانتظمت صفوف الكتائب، ووقف الضباط أمام سراياهم. وبقيت وحدي وأنا لا أعرف الجهة التي أمضي إليها، فتركت جوادي يمضي الهوينا طبقاً لإرادة الرب. فالتقيت الجنرال بورتسوف الذي دعاني إلى الجناح الايسر. فما هو الجناح الأيسر؟ – جال ذلك في خاطري وواصلت طريقي. ورأيت الجنرال مورافيوف المنهمك في نصب المدافع. وسرعان ما ظهر الفرسان الأتراك(ديلي باشي) وصاروا يدورون في الوادي، وتنتظم صفوفهم إزاء رجالنا من القوزاق. وفي الوقت نفسه زحف في الوادي جحفل كثيف من مشاتهم. فأمر الجنرال مورافيوف بإطلاق النار. وانهالت القذائف وسط الجحفل. ورأيت الكونت باسكيفتش محاطاً بهيئة أركانه. وقام الأتراك بحركة إلتفاق حول قواتنا التي تفصلها عنهم وهدة عميقة. وأرسل الكونت الضابط بوشين لتفقد الوهدة. وظن الأتراك أنه أحد الفرسان واطلقوا نحوه زخة من الطلقات. فضحك الجميع. وأمر الكونت بنصب المدافع وتلقيمها. وانتشر العدو في الجبل والوهدة. وفي الجناح الأيسر الذي دعاني إليه بورتسوف كانت الأوضاع ساخنة. فقد انطلق نحونا (قبالة الوسط) الفرسان الأتراك. فوجه الكونت ضدهم الجنرال رايفسكي الذي أصدر أمره الى كتيبته من نيجني نوفغورود بالهجوم. واختفى الأتراك عن الأنظار. وطوق رجالنا من التتر جرحاهم ونزعوا ملابسهم وتركوهم عرايا وسط ميدان المعركة. ووقف الجنرال رايفسكي في طرف الوادي الضيق. وانعزلت سريتان من كتيبته وتوغلتا بعيدا في مطاردة العدو، فأغاثهما العقيد سيمونيتش.

خمد وطيس المعركة. وصار الأتراك يحفرون الأرض وينقلون

الصخور أمـام سمعنا وبصرنا بغية إقامة التحصينات كعادتهم. وتركوا لشأنهـم. فترجلنا مـن جيادنا وأخذنـا نتناول الغداء بما وهبنا الرب. وفي هـذه الأثناء اقتيد إلى الكونت عدة اسرى. وكان أحدهم جريحاً واصابته خطـيرة. وجرى استجوابهم. وفي حـوالي الساعة السادسة صـدر الأمر إلى القوات مجددا بشن الهجوم على العدو. ودبت الحركة في صفـوف الأتراك وراء تحصيناتهم من أكـوام الصخور، واستقبلونا بوابـل مـن قذائف المدفعيـة وسرعان ما أخـذوا بالإنسحـاب. وكان فرساننـا في المقدمـة. وبدأنـا بالنـزول إلى الـوادي، وصـارت التربة تتطايـر وتتناثر تحت قوائـم الخيل. وفي كل دقيقـة كان جوادي يكاد أن يسقط، وعندئذ كانـت كتيبة فرسان (اولان) الموحدة ستمر فوقي. لكـن الرب ستر. وما كدنا نصل إلى الطريـق الواسع المؤدي إلى الجبال انطلق فرساننا بأقصى سرعـة. فهرب الأتراك. وقرن القوزاق بواسطة السياط(ناغايـكا) المدافع المتروكـة في الطريق، وانطلقوا بمحاذاته. أما الأتـراك فاندفعوا راكضين إلى الوديـان المنخفضة على جانبي الطريق، و لم يطلقوا النار، وعلى أي حال لم تصفر أية رصاصة عابرة قرب أذني. وكانـت تتصـدر المطاردة كتائبنـا التترية التي تتميـز جيادها بالسرعة والقـوة. علماً أن جوادي الذي عض على الزمـام بنواجذه لم يتخلف عنهـا. وكنت أجـد صعوبة في كبح جماحه. وتوقـف عند جثة شاب تركي ملقاة على قارعة الطريق. وبدا في سن ١٨ عاما. واحتفظ وجهه الشاحب الأنثوي بوسامته و لم يصبه التشوه. وكانت عمامته مرمية في الـتراب. وقد أصابت رصاصة قذاله الحليق. وانطلقت بجوادي خبباً. وسرعـان ما لحق بـي رايفسكي. وكتب بقلم الرصاص على قصاصة ورق رسالـة إلى الكونـت باسكيفتش يبلغـه فيها بهزيمة العـدو التامة وواصل السير في طريقه. بينما كنت اتبعه عن بعد. لقد أصاب جوادي التعـب وتخلف في السـير وأخذ يتعثر في كل خطـوة. وأمر الكونت

باسكيفتش بعدم التوقف عن المطاردة وتولى قيادتها بنفسه. ومرت بي فصائلنا من الفرسان ورأيت العقيد بولياكوف قائد مدفعية القوزاق التي مارست في ذلك اليوم دوراً هاما في المعركة، ووصلت معه إلى بلدة مهجورة نزل فيها الكونت باسكيفتش، الذي أوقف المطاردة بسبب حلول الليل.

وجدنا الكونت أمام النار فوق سطح بيت كالقبو. وجرى اقتياد الأسرى إليه. وكان يستجوبهم. كما اجتمع هناك جميع القادة تقريباً. وأمسك القوزاق بأعنة جيادهم. وأضائت النار مشهدا جديراً بسلفادور - روزا، بينما سمع خرير ماء جدول في الظلام. وفي تلك اللحظة أبلغوا الكونت بأنه أخفي في القرية احتياطي البارود ويجب التزام الحذر من احتمال وقوع انفجار. فترك الكونت البيت سوية مع حاشيته. وتوجهنا إلى معسكرنا الذي اقيم في مكان يبعد ٣٠ فرستا عن الموضع الذي بتنا فيه. وكان الطريق مزدحماً بفصائل الفرسان. وحالما وصلنا الى المكان أضيئت السماء بغتة بنور ساطع كالشهاب، وسمعنا صوت انفجار مكتوم. وتطايرت في عنان المساء أجزاء البيت الذي خلفناه وراءنا قبل ربع ساعة. وكان فيه احتياطي البارود. واصابت الحجارة المتطايرة عدة قوزاقيين.

هذا كل ما استطعت مشاهدته في ذلك الوقت. وفي المساء علمت بأنه تم في تلك المعركة إلحاق الهزيمة بالقائد العسكري (سيراكسير) لأضروم الذي توجه للإنضمام إلى حقي - باشا على رأس قوات تتألف من ٣٠٠٠٠ مقاتل. وهرب القائد العسكري إلى ارضروم. أما قواته التي انسحبت إلى ما وراء ساغان-لو فقد تبعثرت وتم الإستيلاء على المدافع بينما بقي حقي باشا وحده في قبضتنا. و لم يمنحه الكونت باسكيفتش الفرصة لإعطاء الأوامر.

الباب الرابع

المعركة مع حقي باشا. مصرع بيك تتري. الخنثى. الباشا الأسير. اراكس. جسر الراعي. قلعة غسان. الينبوع الحار. الزحف على ارضروم. المفاوضات. الإستيلاء على ارضروم. الأسرى الأتراك. الدراويش.

في اليوم التالي إستيقظ المعسكر عند الساعة الخامسة وصدر الأمر بالزحف. عندما خرجت من الخيمة التقيت الكونت باسكيفتش الذي نهض من رقاده قبل الجميع. فرآني. وقال بالفرنسية:« ألم تتعب بعد ما جرى يوم أمس؟– قليلاً، أيها السيد الكونت.– إنني أحزن من أجلك، إذ يتوجب القيام بزحف آخر، بغية اللحاق بالباشا، وبعد ذلك يجب مطاردة العدو مسافة ثلاثين فرستا أخرى».

انطلقنا في الزحف ولدى حلول الساعة الثامنة بلغنا مرتفعاً يرى منه معسكر حقي باشا كما في راحة اليد. وأطلق الأتراك نيران المدفعية كلها من دون إيقاع إصابات. في الوقت نفسه لوحظت تحركات كبيرة في معسكرهم. وأرغم التعب وسخونة الصباح الكثير منا على الترجل من الجياد والإضطجاع على العشب الندي. ولففت العنان على يدي واستغرقت في غفوة حلوة في انتظار صدور الأمر بالسير إلى الأمام. وبعد مضي ربع ساعة أيقظوني. وسادت الحركة في كل

مكان. مـن جانب كانـت الطوابير تزحـف نحو المعسكـر التركي، ومن جانـب آخر إستعـدت فصائل الفرسان لملاحقـة العدو. وكنت أود مرافقـة كتيبة فرسان نيجني نوفغـورود لكن جوادي كان يعرج. فتخلفت عن الركب. وانطلقت بمحاذاتي كتيبة الفرسان (اولان). ثم مضى مسرعـاً فولخوفسكي مع ثلاثة مدافع. ولقيني فارس(دراغون) وأبلغنـي أن الغابـة مليئـة بالأعـداء. فقفلت راجعـاً. ولقيت الجنرال مورافيوف مع كتيبة المشـاة. فوجه سرية إلى الغابة من أجل تطهيرها. وعندمـا اقتربت من الوهدة رأيت مشهـدا غير عادي. فقد رقد تحت شجـرة أحد البيكـوات التتر من رجالنـا الذي أُصيـب بجرح قاتل. وكان ينتحب إلى جواره رفيقـه المحبوب. بينما كان الملا راكعاً ويتلو الصلوات. أما البيك الـذي نازع سكرات الموت فقد بدا هادئاً للغاية وتطلـع بلا حراك إلى صديقه الشاب. وتجمع في الوادي الضيق ٥٠٠ أسير. وصار بعض الأتراك الجرحـى يطلبون مني بالإشارات بالمجيء إليهـم، ربما اعتقدوا أنني طبيب وطلبوا تقديم الإسعاف لهم وهو ما لم أكن أستطيع تقديمه. وخرج من الغابة تركي يضغط على جرحه بخرقة مدماة. واقترب منه الجنود بغيـة طعنه بالحراب، ربما رفقا به كإنسان. ولكن هذا أثـار غضبي للغاية، ودافعت عـن التركي المسكين واقتدته عنـوة، وقد أصابه الإنهاك والدم يتدفق منه،إلى شلة من رفاقه. وجلس في وسطهـم العقيـد انريب. وكان يدخن بمودة مـن غلايينهم بالرغم مـن الشائعات حـول انتشار الطاعـون في المعسكـر التركي. جلس الأسرى وهم يتبادلون الحديـث بصوت خافت فيما بينهم. لقد كانوا جميعا في ريعان الشباب. وبعد فـترة استراحة واصلنا السير. وطوال الطريـق شاهدنا الجثـث ملقاة هناك. ووجدت علـى مسافة ١٥ فرستا كتيبـة فرسان نيجنـي نوفغورود، التي توقفت علـى ضفة النهر وسط الصخور. واستمرت الملاحقات عدة ساعات أخرى. وبحلول المساء

وصلنـا إلى واد تحيط به الغابـات الكثيفة، واستطعت في نهاية المطاف النوم كما يحلو لي، بعد أن قطعت خلال اليومين الماضيين مسافة تربو على ثمانين فرستا.

في اليـوم التالي تلقت القـوات التي تطارد العدو أمـراً بالعودة إلى المعسكر. وهنـاك عرفنا بأنه يوجـد بين الأسرى شخصـ خنثى. وأمر رايفسكـي تلبية لطلبي بإقتياده الينا. فرأيت رجلاً فارع الطول ضخم الجثة له وجه فنلندي وافطس الأنف، وفحصناه بحضور الطبيب.

Erat vir‹mammosus ut .femina‹habebat t.non evolutos ‹p.que parvum et puerilem.Quaerebamus‹sit ne exsectus?—Deus ‹respondit‹castravit me[١٤]

وهذاالداء الذي عرفه هيبوقراط غالبا ما يلاحظ، بشهادة الرحالة، لـدى التتر الرحل والأتراك. والخصي هـي التسمية التركية لمثل هؤلاء الخنثى.

كانـت قواتنا ترابـط في المعسكر التركـي الذي سيطرنـا عليه في العشيـة. وكانت خيمـة الكونت باسكيفتش قـد نصبت بالقرب من الخيمـة الخضراء للباشـا حقي الذي أسره رجالنـا القوقاز. فذهبت إليه ووجدته محاطاً بضباطنا. كان جالساً ضاماً ساقيه وهو يدخن الغليون. وبـدا الباشـا في سـن الأربعين تقريبـا. وظهرت على وجهـه الوسيم سمـات الوقـار والهدوء العميـق. وعندما وقع في الأسـر طلب تقديم قدح قهوة له وعدم إزعاجه بالأسئلة.

١٤.. كان رجلا له ثدي امرأة وعضو تناسلي ضامر وطفولي. وسألناه فيما اذا أخصي، فأجاب ان الرب اخصاني.(باللاتينية)

كنا نرابط في الوادي. وأصبحت جبال ساغان–لو المغطاة بالثلوج والغابات خلفنا. وزحفنا قدماً إلى الأمام من دون أن نلقى العدو في أي مكان. وكانت البلدات خالية من السكان. وجانب الأرياف بائس. وشاهدنا نهر اراكس الذي يجري بسرعة عند ضفافه الصخرية. ويوجد جسر على بعد ١٥ فرستا عن قلعة غسان شيد بشكل رائع وبجسارة فوق سبعة قناطر غير متساوية الأبعاد. وتروي الأساطير أن بانيه كان راعياً كسب الثروة، وتوفي منعزلاً موحشاً فوق ذروة التل حيث يشار حتى اليوم إلى قبره الذي تظلله شجرتا صنوبر منعزلتان. ويأتي إليه سكان القرى المجاورة للزيارة باعتباره مكاناً مقدساً. ويسمى الجسر تشابان – كبري(جسر الراعي). ويمر عبره الطريق إلى تبريز.

وزرت على بعد عدة خطوات من الجسر الأطلال المعتمة لمسافرخانة. و لم أجد فيها أحداً سوى حماراً مريضاً، ربما تركه هناك النزلاء الوافدون اليه.

في صباح يوم ٢٤ يونيو توجهنا إلى قلعة غسان، القلعة القديمة، التي سيطر عليها في العشية الأمير بيكوفيتش. وكانت تبعد مسافة ١٥ فرستا عن المكان الذي بتنا فيه. وقد أتعبني السفر الطويل. وكنت آمل في أخذ قسط من الراحة. ولكن حدث ما بعث الخيبة في نفسي.

فقبيل زحف قوات الفرسان جاء إلى معسكرنا الأرمن القاطنون في الجبال مطالبين بحمايتهم من الأتراك الذين سرقوا ماشيتهم قبل ثلاثة أيام. وتصور العقيد انريب الذي لم يفهم جيداً مطالبهم أن فصيلة تركية توجد في الجبال فانطلق مع سرية من كتيبة فرسان (اولان)، وأبلغ رايفسكي بان هناك ٣٠٠٠ تركي في الجبال. وتبعه رايفسكي من

أجل اسناده في حالة الخطر. ووجدت نفسي أيضا في وضع الذاهب في مأمورية لتنفيذ مهمة مع كتيبة فرسان نيجني نوفغورود وانطلقت ببالغ الأسف إلى هناك من أجل تحرير الأرمن. وبعد ان قطعنا مسافة ٢٠ فرستا وصلنا إلى قرية وجدنا فيها بعض فرسان (اولان) يطاردون شاهرين سيوفهم عدة دجاجات. وشرح أحد أبناء القرية لرايفسكي أن المقصود بالأمر ٣٠٠٠ ثور ساقها الأتراك قبل ثلاثة أيام ويمكن بسهولة جداً اللحاق بهم بعد يومين. وأمر رايفسكي فرسان (اولان) بالتوقف عن مطاردة الدجاج وبعث إلى انريب أمراً بالعودة. وقفلنا راجعين، وبعد عبور الجبال، وصلنا إلى أطراف قلعة غسان. وبهذا قمنا بحركة التفاف لمسافة ٤٠ فرستا من أجل إنقاذ حياة عدة دجاجات أرمنية، وهو ما بدا لي أمرا غير مسل البتة.

تعتبر قلعة غسان مفتاح ارضروم. وقد شيدت المدينة في أسفل صخرة تتوجها القلعة. وكان يقطن فيها حوالي مائة أسرة أرمنية. ونصب معسكرنا في أرض منبسطة واسعة تنداح أمام القلعة. وهناك زرت المبنى الحجري الدائري الذي يوجد فيه نبع الكبريت الأصفر الساخن.

يبلغ قطر الحوض الدائري حوالي ثلاث ساجينات (الساجين يعادل ٦ اقدام). وسبحت عبره مرتين وفجأة شعرت بدوار في الرأس وغثيان، وبعد جهد استجمعت قواي للخروج إلى الطرف الحجري للنبع. إن هذه المياه تشتهر في الشرق لكن الأهالي الذين لا يوجد لهم أطباء محترمون يستخدمونها كيفما اتفق، وفي أغلب الظن، من دون تحقيق نجاح كبير.

يجري عند أسوار قلعة غسان نهر مورتس. وتغمر ضفافه مياه

الينابيع الحديدية التي تتدفق من تحت الصخور وتصب في النهر. ومذاق الماء فيها غير طيب مثل مياه نازران القوقازية، وتفوح منها رائحة النحاس.

في ٢٥ يونيو، في يوم عيد مولد جلالة الإمبراطور، أدت الأفواج الصلوات في معسكرنا تحت أسوار القلعة. وفي فترة الغداء عند الكونت باسكيفتش حيث رفعت الأنخاب في صحة صاحب الجلالة أعلن الكونت بدء الزحف على ارضروم. وفي الساعة الخامسة مساءً تحركت القوات.

في ٢٦ يونيو وقفنا في الجبال على مسافة خمسة فرستات عن ارضروم. وتطلق على هذه الجبال تسمية آق-داغ(الجبال البيض)، وهي من الحجر الجيري. ووخز عيوننا الغبار الأبيض اللاسع، وكان منظرها الحزين يبعث على السأم. لكن بعث الطمأنينة في نفوسنا قرب ارضروم واليقين بأنتهاء الحملة العسكرية.

في المساء ذهب باسكيفتش لتفقد المواقع. وأخذ الفرسان الأتراك، الذين كانوا يحومون حول مواقعنا طوال النهار،يطلقون النيران. وهددهم الكونت مراراً بسوطه، دون أن يكف عن محادثة الجنرال مورافيوف. و لم يرد أحد على إطلاق رصاصهم.

بينما ساد الإضطراب الشديد في ارضروم. وروج القائد العسكري التركي الذي جاء الى المدينة بعد هزيمته إشاعات عن القضاء على الروس تماماً.وفي أعقابه نقل الاسرى الذين اطلق سراحهم نداء الكونت باسكيفتش إليهم. واتهم الهاربون السيراكسير التركي بالكذب.وسرعان ما علموا بإقتراب الروس عاجلاً. وأخذ الناس يتحدثون عن الإستسلام. أما السيراكسير التركي وأفراد قواته فكانوا

يفكــرون في الدفاع. وحدث تمرد. وقتل الحشــد الغوغائي الغاضب عدة أفراد من «الفرنجة»[١٥].

وجاء إلى معسكرنا(صباح ٢٦ يونيو) نواب الشعب والسيراسكير، وجــرت مفاوضات طوال اليــوم، وفي الساعة الخامســة مساء توجه النــواب إلى ارضــروم ومعهــم الأمــير بيكوفيتش الذي يعــرف جيداً اللغات والعادات الأسيوية.

وفي صبــاح اليوم التالي زحفت قواتنــا إلى الأمام. وكانت بطارية مدفعية تركية ترابط فوق ذروة توب–داغ من الجهة الشرقية لأرضروم. وزحفــت الأفواج نحوها وردت على إطلاق النار من جانب الأتراك بقــرع الطبول وعزف الموسيقــى. فهرب الأتــراك وتم الإستيلاء على توب–داغ. وقد ذهبت إلى هناك برفقة الشاعر يوسيفوفيتش. فوجدنا في موقــع البطارية التي انسحب منها الأتراك الكونت باسكفيتش مع حاشيتــه. وبدت في الوادي من أعالي الجبل ارضروم بقلعتها ومنائرها وحقولهــا الخضراء المتراصة الواحد فوق الآخــر. وكان الكونت فوق صهــوة جواده. فيما جلس على الأرضــ النواب الأتراك الذين جاءوا بمفاتيح المدينة. ولكن لوحظ الإضطــراب في ارضروم. وفجأة برقت النار فــوق السد الترابــي للمدينة، وتعــالى عامود دخــان، وانطلقت القذائــف نحــو تــوب– داغ. ومــرق بعضها فــوق رأســ الكونت باسكيفتش. فقال لي بالفرنسية:

Voyez les Turcs،on ne peut gfmais se fier a' eux""[١٦].

---

١٥. ربما المقصود الفرنسيون الذين كانوا ضمن القوات (المترجم).

١٦. انظر الى هؤلاء الاتراك.. لا يمكن الوثوق بهم ابدا(المترجم).

وفي تللـك اللحظة جاء الى توب- داغ على صهوة جواده الأمير بيكوفيتشـ، الذي كان في ارضروم منذ يوم أمس لإجراء المفاوضات. فأعلـن أن السيراسكير (القائد التركي) والناس وافقوا على الإستسلام منذ وقت طويل، لكن بعضـ أفراد الأرناؤوط العصاة بقيادة طوبجي - باشا استولـوا على البطاريات في المدينة وتمردوا. وجاء الجنرالات إلى الكونت راجيا السماح لهـم بإرغام بطاريات المدافع التركية على السكوت. وكرر الرجاء نفسـه وجهاء اضرورم الجالسون تحت نيران مدافعهم. ولم يجب الكونت برهة من الزمن، وفي نهاية المطاف أعطى الأمـر قائلا: «كفـى عبثا». وعلى الفور جلبت المدافـع وبدأ القصف وخمدت نـيران مدفعية العدو شيئاً فشيئاً. ودخلـت أفواج قواتنا إلى ارضروم، وفي ٢٧ يونيو رفعت الراية الروسية فوق قلعة ارضروم.

توجه رايفسكي إلى المدينة، فرافقته. ودخلنا المدينة، وانبجس أمامنا مشهد عجيب. كان الأتراك يتطلعون إلينا بعبوس من سطوح منازلهم المستويـة. بينمـا احتشد الأرمـن في الأزقة الضيقـة وسط الضجيج. وكان أطفالهـم يركضون أمام خيولنا وهم يرسمـون علامة الصليب ويكـررون: مسيحيون ! مسيحيون ! واقتربنـا من القلعة التي دخلت اليهـا مدفعيتنـا، ولدهشتي البالغة وجـدت هناك صديقـي ارتيمي، يتجـول في المدينة، بالرغم من الأمر الحـازم الصادر بعدم الخروج من القلعة من دون رخصة خاصة.

شوارع المدينة ضيقة وملتوية. والمباني عالية جداً. والناس كثيرون، - والدكاكين مغلقـة. وأمضينا في المدينة حوالي ساعتين ثم رجعنا إلى المعسكـر. وكان هنـاك السيراسكير مـع أربعة من الباشـاوات الذين وقعـوا في الأسر. وتحدث مع جنرالاتنـا بحيوية أحد الباشاوات، وهو شيخ نحيـف البنية، وجم النشاط بإفراط. وعندمـا رآني بالفراك سأل

مــن أكون. فأعطاني بوشين لقــب شاعر. فوضع الباشا راحة يده على صــدره وانحنى لي، وقال عــبر المترجم:«تباركت الساعة التي التقيت فيها الشاعــر. الشاعر أخ الدرويش. ولا يوجد له وطن، ولا خيرات الدنيا. وفيما نحن، التعساء، نهتم بالمجد والسلطة والكنوز، يقف هو على قدم المساواة مع أصحاب الأمر والنهي في الأرض ويسجد الناس له».

إن هــذه التحية الشرقيــة للباشا أثارت فضولنــا جميعاً. وتوجهت لإلقــاء نظرة علــى السيراسكير. وعندما ولجت خيمتــه رأيت غلامه المحبوب، وهو صبي أسود العينين في الرابعة عشرة من العمر، يرتدي زي الأرناؤوط الثمين. وجلس السيراسكير، وهو شيخ وخط الشيب شعــر رأسه، ومظهره اعتيادي جــداً، في حالة كآبة شديدة. وكان معه حشد من ضباطنا. وعندما غادرت خيمته رأيت شاباً نصف عار يضع علــى رأسه قلنسوة مــن فرو الضأن ويحمل هــراوة بيده وعلى كتفيه عباءة فرو. وهو يصرخ بأعلى صوته. وقيل لي أنه أخي،الدرويش، جاء لتحية المنتصرين. وجرى إبعاده عنوة.

الباب الخامس

ارضروم. الـترف الأسيوي. الطقس. المقبرة. قصائد ساخرة. قصر السيراسكير. حـريم الباشا التركي. الطاعون. مصـرع بورتسوف. مغـادرة ارضروم. في طريق العودة. المجلة الروسية.

تأسست ارضروم (وتسمى خطأ ارضيروم وايرضروم وارضرون) في حوالي عام ٤١٥ في زمن ثيودوسيوس الثاني وسميت ثيودوسيبول. لكن تسميتها لا تبعث أية ذاكرة تاريخية. وعرفت فقط عنها، حسب رواية حاجي - بابا، بأنه جلب هنا إلى المبعوث الفارسي، كدية مقابل إساءة ما، أذنا عجل بدلا من أذني إنسان.

وتعتبر ارضروم المدينة الرئيسية في القسم الأسيوي من تركيا. وكان يقطن فيها حتى ١٠٠٠٠٠ نسمة، لكنني أعتقد أن هذا الرقم مبالغ فيه جداً، والمباني فيها حجرية وسطوحها مكسية بالعشب، مما يمنح المدينة منظراً غريباً جداً لدى النظر إليه من مكان عال.

ويمر عبر ارضروم طريق التجارة البري الرئيسي بين أوروبا والشرق. لكن السلع التي تباع فيها قليلة. فهنا لا يعرضونها للبيع، وهذا ما لاحظه الرحالة تورنفور حيث كتب يقول أن المريض في ارضروم

يمكن أن يموت بسبب عدم حصوله على ملعقة من عقار الراوند، بينما تتوفر منه أكياس كثيرة في المدينة.

إنني لا أعرف عبارة أسخف من عبارة: الترف الشرقي. وفي أغلب الظن أن هذه العبارة التي اصبحت مضرب الأمثال في فترة الحملات الصليبية، حين ترك الفرسان الجدران العارية ومقاعد خشب البلوط في قصورهم، ورأوا لأول مرة الدواوين الحمراء، والسجاجيد الملونة والخناجر المرصعة مقابضها بالأحجار الكريمة. والآن يمكن القول إن الترف الشرقي أصبح،طبعاً، ملكاً لأوروبا. وفي ارضروم لا يمكن أن يشترى بأية نقود ما قد يتوفر في دكان صغير في قضاء ما بمحافظة بسكوف الروسية.

الطقس في ارضروم قاس. فقد شيدت المدينة في واد يرتفع فوق سطح البحر بمقدار ٧٠٠٠ قدم. والجبال المحيطة بها تغطيها الثلوج خلال فترة طويلة من العام. والأرض خالية من الأشجار لكنها خصبة. ويرويها الكثير من الينابيع وتمتد من كل مكان أنابيب الماء. وارضروم مشهورة بمياهها. والفرات يجري من موضع يبعد ٣ فرستات عن المدينة. والنوافير كثيرة في كل مكان. وفي كل واحدة منها يتدلى قدح من سلسلة، والمسلمون الطيبون يشربون منها من دون ازجاء آيات المدح والثناء. وتجلب الأخشاب من ساغان-لو.

وعثر في ترسانة السلاح في ارضروم على كمية كبيرة من الأسلحة والخوذ والدروع والسيوف القديمة التي علاها الصدأ وتعود في أغلب الظن إلى أزمان جودفريد[١٧]. والمساجد منخفضة ومعتمة. وتوجد مقبرة خارج المدينة. وتتألف شواهد القبور عادة من ألواح عامودية

١٧. ملك الدانمارك(المترجم).

تزينهـا عمامة منحوتة من الحجـر. وتتميز أضرحة إثنـين أو ثلاثة من أضرحـة الباشاوات بتزويق أكبر، لكنهـا تخلو من أي جمال: إنها بلا أي ذوق، وأي فكـرة... وكتـب أحد الرحالة أن ارضرورم تتميز من بـين جميع المدن الأسيوية بوجود برج ساعة فيها، لكنها كانت عاطلة عن العمل.

إن إجـراءات التحديث التي قام بهـا السلطان لم تصل إلى ارضروم بعـد. فالقوات مـا زالت بزيهـا الشرقي المـزوق. وتتنافـس ارضروم والقسطنطينيـة كتنافس قـازان وموسكو. وأورد أدنـاه القصيدة التي نظمها الجندي اليانيتشار العثماني أمين - أوغلو:

الكفار يمجدون اليوم اسطنبول،

وغدا يأتون مدججين بالسلاح

ويدوسونها بكعوبهم كالافعى النائمة،

ثم ينصرفون- ويتركونها على هذا الحال.

اسطنبول رقدت هامدة قبيل النكبة.

إسطنبول تخلت عن النبي

وكدر الغرب الماكر الحقيقة فيها عن الشرق العريق.

من أجل المتعة خانت إسطنبول الصلاة والسيف.

إسطنبول نسيت عرق المعركة

وراحت تشرب الخمرة في وقت الصلاة.

لقد خمدت في إسطنبول حرارة الإيمان الخالص،

وصارت النساء فيها ترتاد المقابر.

وترسل العجائز إلى مفترقات الطرق،

لكي يقتدن الرجال إلى حرمة الحريم،

بينما يغفو الخصي المرتشي.

لكن ارضروم الجبلية ليست بهذا الحال،

ارضروم مدينتنا ذات الطرق الكثيرة.

نحن لا ننام في ترف العار

ولا نحتسي بلا توقف كأس العقوق

من الخمرة والعهر والنار والصخب.

نحن نصوم: يقدم لنا الماء المقدس من دون أن نسكر

وينطلق فرساننا الى المعركة

بحشد سريع من الرجال البواسل،

أما الحريم عندنا فهو مصون

والخصيان لا يباعون، ولا يشترون،

وتجلس النساء هناك بوداعة وطمأنينة.

كنت أقطن في قصر السيراسكير في الحجرات التي كانت تابعة للحريم. وكنت أتسكع طوال اليوم في الممرات العديدة، من غرفة الى غرفة، ومن سطح إلى سطح، ومن سلم الى سلم. وبدا كما لو أن القصر قد نهبه اللصوص، فإن السيراسكير قد نقل منه كل ما يمكن لدى استعداده للهرب. وكانت الدواوين ممزقة، ورفعت السجاجيد. وعندما تجولت في المدينة كان الأتراك يشتموني ويبرزون ألسنتهم لي. (إنهم يعتبرون كل افرنجي طبيباً). وقد سئمت من ذلك، وكنت مستعداً للرد بالمثل. وأمضيت يوم أمس برفقة سوخوروكوف الذكي والطيب القلب، وجمعت ما بيننا تقارب الإهتمامات. وقد حدثني عن مشاريعه وتوقعاته الأدبية، وعن دراساته التاريخية، التي بدأ بها في وقت ما بكل حماس وتوفيق. إن رغباته ومطالبه المتواضعة مؤثرة حقا. وسيكون مؤسفاً إذا لم تتحقق.

يبدو قصر السيراسكير كلوحة مترعة بالحيوية: هناك حيث يدخن الباشا العابس بصمت وسط زوجاته وغلمانه الفاسقين، كان الكونت الظافر يتلقى البلاغات حول انتصارات جنرالاته، ويوزع الولايات، ويتحدث عن مغامراته الغرامية الجديدة. وجاء باشا من طائفة موشا الأرمنية إلى الكونت باسكيفتش راجياً منح منصب إلى إبن أخيه. ولدى التجول في القصر وقف هذا التركي الوقور في إحدى الغرف واستغرق في التأمل: ففي هذه الغرفة قطع رأس والده بأمر من السيراسكير. إنها تأملات شرقية حقيقية ! وجاء إلى ارضروم باي بولات الذائع الصيت، الذي بعث الرعب في القوقاز، وكان يرافقه إثنان من زعماء القرى الشركسية المنتفضة خلال الحروب الأخيرة. وتناول الغداء لدى الكونت باسكيفتش. وباي بولات، رجل في الخامسة والثلاثين من العمر، قصير القامة وعريض المنكبين. و لم يتحدث بالروسية أو تظاهر

بأنـه لا يتحدث بها. وقد سرني كثيراً مجيئه إلى ارضروم: إذ كان ضمانة عبوري الآمن للجبال واقليم قبردا.

وطلـب عثمـان باشـا، الـذي أسـر في ارضـروم وأرسـل سوية مع السيراسكـير إلى تفليس، مـن الكونـت باسكيفتشـ أن يضمن سلامة نساء حريمـه اللواتي بقين في ارضروم. وفي الأيـام الأولى نسي أمرهن. وحدث مرة في أثناء تناول الغداء أن جرى الحديث عن الهدوء في المدينة الإسلامية التي احتلها ١٠٠٠٠ عسكري، ولم يجأر أي واحد من أهاليها بالشكوى من تعسف الجنود. وعندئذ تذكر الكونت باسكيفتش حريم عثمـان باشا وأمر السيـد (أ) بالذهابً الى بيت الباشـا والإستفسار من زوجاتـه فيما إذا كن بخير ولم تقـع أية إساءة بحقهن. فرجوت أن ارافق السيـد (أ). وتوجهنـا معاً. واصطحب السيـد (أ) معه كمترجم ضابطاً روسيـاً له قصـة طريفة.إذ قد وقع هـذا الضابط في الأسـر لدى الفرس وكان في سـن ١٨ عامـاً. فأخصوه وقضى أكـثر من ٢٠ عاما في خدمة حـريم أحد أبناء الشاه. وتحدث عن مصيبته وعن معيشته في بلاد فارس بصفاء قلب مؤثر. كما أن أقواله كانت ثمينة من الناحية الفسيولوجية.

وصلنـا إلى بيت عثمان باشا. واقتادونا إلى غرفة مكشوفة مرتبة خير ترتيـب، وحتى بذوق رفيع - ونقشت على النوافذ الملونة زخارف من الآيات القرآنية.علماً أن أحد هذه النقوش قد بدا لي ذا مغزى معقداً جداً بالنسبة إلى نسـاء الحريم المسلمات وهو: الآمـرون بالمعروف والناهون عن المنكر (ربما من سورة التوبة – المترجم).وقدموا لنا القهوة في أقداح مطعمـة حواشيها بالفضـة. وجاء شيخ ذو لحية بيضـاء وقورة، هو والد عثمـان باشا، ليعرب بإسم النسـاء عن الشكر الى الكونت باسكيفتش، - لكـن السيد (أ) قال بشكل قاطع أنـه أرسل الى زوجات عثمان باشا ويريـد أن يراهن لكي يتيقن من أنهـن بخير في غياب زوجهن. وما كاد

أسـير الفرسـ يترجم هـذا القول حتى تمطـق الشيخ بلسانـه تعبيرا عن الغضـب، وأعلن انه لا يستطيع الموافقة على طلبنـا البتة، وإذا ما عرف الباشا لدى عودته أن رجالاً غرباء شاهدوا زوجاته، فسيأمر بقطع رقاب الشيـخ وجميع خدم الحـريم. وأكد الخدم، و لم يكـن بينهم أي خصي، أقـوال الشيخ. لكن السيـد (أ) بقي مصرا على رأيـه. وقال لهم:«أنتم تخافـون باشاكم،وأنا أخاف قائدي ولن أجرأ على عصيان أوامره». ما بقـي في اليد من حيلـة. فاقتادونا عبر الحديقة حيـث وجدت نافورتان يتدفق منهما الماء بسيل ضعيف. واقتربنا من مبنى حجري صغير. ووقف الشيخ بيننا والباب، وفتحه بحذر، دون أن يرفع يده عن السقاطة، فرأينا إمـرأة يغطيها حجاب أبيض من قمـة الرأس وحتى الحذائين الأصفرين. وكـرر مترجمنا عليهـا السؤال:وسمعنـا تمطق عجـوز في السبعين من العمـر، وقاطعهـا السيد (أ) قائلا: هـذه والدة الباشا، وأنـا أرسلت إلى زوجاتـه، فابعثـوا في طلب إحداهـن «.وعجب الجميـع لحدس هؤلاء الكفار: إنصرفت العجوز وعادت بعد دقيقة مع إمرأة محجبة أيضا مثلها، وانطلق مـن وراء الحجاب صوت شابة ناعم ونـدي الجرس. فشكرت الكونـت على رعايته للأرامل المسكينـات وكالت الثناء لمعاملة الروس. وقد تمتع السيد(أ) بالفن والمهارة لمواصلة الحديث معها. وفي هذه الأثناء كنـت اتطلع حوالي فرأيت فجأة خمسـة او ستة رؤوس مدورة تطل من كوة فوق الباب بعيون سوداء تنم عن الفضول. وأردت أن أبلغ اكتشافي الى السيـد (أ)، لكن الرؤوس اهتـزت والعيون غمزت وهددتني أصابع بـأن التزم الصمت. فأطعـت و لم أكشف لقيتي. وكـن جميع مليحات الوجـه، لكن لم توجد بينهن حسنـاء واحدة. ويبدو أن المرأة التي كانت تحادث السيـد (أ) عند الباب هي رئيسة الحـريم، وكنز القلوب – وردة العشق – أو على أقل تقدير هذا ما تصورته في خيالي.

في نهايـة المطـاف أوقف السيـد (أ) توجيه الأسئلـة. وأغلق الباب.

واختفت الوجوه من الكوة. وتفقدنا الحديقة والمبنى وعدنا راضين جداً عن بعثتنا.

وبهـذا رأيـت الحريم، وهو أمـر لا يتسنى إلى أوروبـي إلا فيما ندر. واليكم موضوع رواية غرامية شرقية.

بـدا أن الحرب قد انتهت. وشـددت الرحال للعودة. وفي ١٤ يوليو زرت الحمـام الشعبي و لم أكـن مبتهجاً بالحياة. فلعنت قـذارة المناشف وحماقـة الخـدم وهلمجـرا. وكيف يمكـن مقارنة حمامـات ارضروم بحمامات تفليس!

عندمـا رجعت إلى القصر علمت مـن كونوفنيتسين الذي كان يتولى الحراسـة أن الطاعـون بـدأ ينتشر في ارضـروم. وتصورت فـورا فظائع الحجـر الصحي، وفي اليوم نفسه قررت تـرك الجيش. إن الفكرة حول وجـود الطاعون غير مسرة جداً بسبب عدم اعتياد ذلك. وبغية تخفيف تأثير هذا الإنطباع قمت بجولة في السوق(البازار).وتوقفت عند دكان صانع السـلاح، واخذت بتفحص خنجر ما، وفجأة ضربني أحدهم في كتفـي. فالتفت ورأيت أمامي شحاذاً بشع المظهر. كان شاحبا كالموت، وتساقطـت الدمـوع مـن عينيـه الحمراوتين اللتـين علاهمـا الصديد. وومضت في خاطـري مجددا الفكرة حول الطاعـون. فدفعت الشحاذ بشعـور من التقـزز العسير على التفسير ورجعـت الى القصر غير راض جداً عن نزهتي.

ومـع هذا غلبني الفضول، وفي اليـوم التالي ذهبت برفقة الطبيب إلى مخيـم احتجاز المصابين بالطاعون. و لم أترجـل من فرسي ولزمت الحذر بالوقـوف باتجـاه الريح. وجلب أحـد المرضى من الخيمـة. كان شاحباً للغايـة ويتعثر في مشيته كالسكران. بينما كان المريض الآخر راقدا فاقد

الوعي. وبعد فحص المصاب بالطاعـون والتمنيات له بالشفاء العاجل، لفـت انتباهي إثنـان من الأتـراك اللذين اقتـاداه من إبطيـه وخلعا عنه الملابـس وتحسسا جسده، كما لو أن الطاعون لا يعني شيئاً لهما، وكأنه مثـل الزكام. واعترفت بأنني خجلـت من مخاوفي الأوروبية بوجود مثل هذه اللامبالاة وعدت الى المدينة بسرعة.

في ١٩ يوليـو جئت لتوديع الكونـت باسكيفتش، فوجدته حزيناً جـداً. فقد جاء خبر مؤسف حول مصرع الجنرال بورتسوف في أطراف بايبورت. وأسفت لمصير بورتسـوف الشجاع، لكن هذا الحدث يمكن أن يجلـب الهـلاك لجميـع قواتنا القليلـة العدد التـي توغلت بعمق في أرض غريبة وتحيطها شعوب غير ودية مستعـدة للإنتفاض لدى سماع الإشاعة حول وقوع أول هزيمـة. وبذلك هل استأنفت الحرب! وطلب منـي الكونت أن اكون شاهداًعلى الفعاليات التالية. لكنني كنت مسرعا في العـودة الى روسيـا.. وأهداني الكونت للذكرى حسامـاً تركياً. وأنا احتفظ به للذكرى عـن جولاتي في أعقاب مسيرة هذا البطل اللامع في غزو براري أرمينيا. وفي اليوم نفسه غادرت ارضروم.

عدت إلى تفليـس في الطريق المعروف لدي. وكان الصمت والحزن يسـودان في الأماكن حيث كانـت توجد منذ فترة قريبـة قوات قوامها ١٥٠٠٠ رجل.وعـبرت جبل ساغان-لو وبالـكاد تعرفت على المكان الذي رابط فيه معسكرنا. وفي غومري تعرضت الى الحجر الصحي لمدة ثلاثة ايـام. وشاهدت مرة أخرى بيزوبدال وغـادرت السهول المرتفعة لأرمينيا البـاردة وانتقلت إلى جورجيا ذات الجـو القائظ. ووصلت إلى تفليـس في ١ اغسطـس. وبقيت هناك عدة أيام بصحبـة طيبة ومرحة. وأمضيـت عدة ايام في الحديقة حيث تـرددت ألحان الموسيقى والأغاني الجورجيـة. وواصلت الدرب. وصادف عبوري الجبال هبوب عاصفة

بالقرب من كوبي ليلاً. وفي الصباح حين مررت بمحاذاة كازبيك رأيت منظراً عجيباً: فقد كانت السحب البيضاء المتناثرة تنطلق عبر ذروة الجبل، وبدا لي الدير المنعزل المتألـق تحت أشعة الشمس وكأنه يسبح في الهواء، وتحملـه السحب. كما انتصب امامي بكل عظمتـه نهر بيشينايا بالكا: فالوهدة التي امتلأت بمياه الأمطار كانت غارقة بكميات من المياه تتفوق علـى نهر تيريك نفسه، الـذي يتدفق بالعنف ذاتـه. وكانت الضفاف، والصخـور الضخمة التي تحركـت من مكانها، تسـد المجرى. وعمل كثير من الأوسيتيين في تعبيد الطريق. وعبرت بسلام. وفي نهاية المطاف غادرت الـوادي الضيق الى مفترق المنخفضـات الواسعة في بولشايا قبردا. وفي فلاديقوقـاز وجدت دوروخوف وبوشـين. وكان الإثنان يسافران إلى المياه المعدنية للعلاج من الجروح التي أصابتهما خلال المعارك هناك. ووجـدت عدة مجـلات روسية على الطاولة لدى بوشـين. وكانت أول مقالـة جذبـت انتباهي تتناول أحـد مؤلفاتي. وتضمنـت النقد العنيف لي ولأشعـاري. واخـذت أقرأها بصـوت عال. لكن بوشـين أوقفني مطالبـاً بأن أقـرأ بفن ايمائي أكبر. وينبغي أن يعـرف القارئ بأن التحليل النقدي كان مزيناً بالأمور المألوفة في نقدنا: أي كالحديث بين القندلفت وخبـز المناولة والمصحح في المطبعة، والتفكير السليم في هذه الكوميديا الصغيرة. وبدا لي طلب بوشين مسلياً، وزالت تماما الكآبة التي ولدتها في نفسي مطالعة مقالة المجلة، واستغرقنا في القهقهة من أعماق القلب.

لقد كانت هذه أول تحية استقبلني بها وطني الطيب.

العربي ربيب بطرس الأكبر

نهضت روسيا

بإرادة بطرس الحديدية.

ن. يازيكوف

الباب الاول

أنا في باريس،

إنها الحياة وليس مجرد تردد

نبض الأنفاس.

دميترييف

مجلة «الرحالة»

كان العربـي إبراهيم ربيب القيصر من بـين الشباب الذين أرسلهم بطرس الأكبر إلى بـلاد الغربة لكسب المعارف اللازمة للدولة الجاري تحديثها. وتلقـى العلـم في الكلية العسكريـة في باريس، وتخرج منها برتبـة رائد مدفعيـة، وأبدى الجـرأة في الحـرب الإسبانيـة، وأصيب بجـروح خطيرة، وعـاد الى باريـس. وكان الإمبراطـور بالرغم من مشاغلـه الكثـيرة لا يكف عن الإستفسار عن فتـاه المحبوب، ويتلقى دومـاً عبارات الثناء على نجاحاته وسلوكـه. وكان بطرس راضياً عنه كل الرضـى ودعـاه عدة مرات إلى روسيا، لكـن إبراهيم لم يعجل في السفـر. لقد كان يتعلل بمختلف الذرائـع، فمرة لكونه جريحا، ومرة لرغبتـه في كسب المزيد من المعرفـة، وتارة لعدم توفـر النقود. وكان بطرس يسامحه لأعذاره هـذه، ويطلب منه العنايـة بصحته، ويشكره

علــى همته في الدراســة، ورغم حرص بطرس علــى النفقات لنفسه، فإنــه لم يكن يبخــل في فتح خزائنه له، ويرفق إرســال النقود بنصائحه الأبوية والتوصيات التحذيرية.

وبشهــادة كافة المدونات التاريخية فإنــه لم يكن هناك من يمكن أن يقارن بسلوك الفرنسيين في ذلك الزمان المتسم بالرعونة الطائشة. و لم تــترك أية آثار الأعوام الأخيرة لتربع لويس الرابع عشر على العرش التي شهــدت إلتزام البلاط بالــورع الشديد والوقــار والإحتشام. أما دوق اورليــان الــذي اتصف بكثير من الخصال الحميــدة الرائعة، فقد جمع معها شتى أصناف العيــوب، ولسوء الحظ كان يظهرها علانية بلا أي ظل للنفــاق. علماً أن حفلات العربدة والتهتــك في باليه –رويال[١٨] لم تكــن خافية عن أهــل باريس. وقد حذا الآخرون حــذو هذا المثل. وفي ذلــك الوقــت ظهر لآو. واقــترن الجشع لكسب المــال بالتعطش إلى التمتــع باللذائذ والخلو من الهموم وشــرود البال. وكانت الضياع تختفــي، والأخلاق تنهــار، والفرنسيــون يضحكــون ويأملون، أما الدولة فكانــت تنهار بمصاحبة ترجيعات الألحــان اللعوب لتمثيليات الفودفيل الهزلية الساخرة.

في الوقــت نفسه كانت المجتمعات تقدم صورة طريفة للغاية. فأن الثقافة الواسعة والحاجة الى التسلية قد قربت بين جميع الأمور. الثروة واللباقــة والشهــرة والمواهب، ولعل أغرب شيء هــو أن كل ما يغذي الفضــول أو يعد بالمتعة، كان يقابل بعين الرضى بالقدر نفسه. فالأدب والعلم والفلسفة تركت صومعتها الهادئة وانضمت إلى جمهور العامة في مراعــاة الموضة، ودعمهــا بالأفكار. وهيمنت النســاء، و لم يطلبن

١٨. القصر الملكي مقابل اللوفر في باريس(المترجم).

وقتئذٍ الإعجاب بهن. وحلت اللباقة الشكلية محل الإحترام العميق. وطويت في صفحات التاريخ الأعيب الدوق ريشيليو، الكيبيادس الاثيني الجديد، التي تعطي مفهومه حول الأخلاق في زمانه:

ذاك الزمن السعيد، حين سادت استباحة الاخلاق والعادات،

وعندما اجتاح فرنسا كلها بخطوات خفيفة

الجنون مطلقا الأزيز بالخشخشة،

وعندما لم يردد أي واحد الصلوات،

وعندما كان الجميع مستعدين لأي شيء غير اعلان التوبة.(بالفرنسية)

لقد جذب الإنتباه في باريس كلها ظهور إبراهيم، بطلعته البهيه، ومعارفه الواسعة، وذكائه الفطري. ورغبت جميع السيدات في استضافة[19] *le Negre du czar* وتلقفنه بالأيدي، ودعاه الوصي على العرش مراراً إلى أمسياته المرحة. كما حضر مآدب العشاء المترعة بفتوة ارييت وبشيخوخة شوليه، وبأحاديث مونتسكيو وفونتنبل، و لم يفوت أية حفلة بالو،وأي عيد، وأي أول عرض مسرحي وسار مع التيار العام بكل توقد المشاعر في سنه وارومته. لكن كان ما يخيف إبراهيم ليس استبدال هذه التسلية الرائعة بالتواضع الصارم للبلاط في بطرسبورغ. فقد كانت هناك أواصر قوية أخرى تربطه بباريس. إذ وقع الإفريقي الشاب في الغرام.

لقد ذاع صيت الكونتيسة (د)، التي لم تكن في مقتبل العمر، لجمالها

١٩. زنجي القيصر - بالفرنسية (المترجم).

أيضا. وعندما كانت في السابعة عشرة من العمر، ولدى خروجها من الديـر، زوجوها من شخص لم تجـد الوقت بعد لمبادلته الحب، كما أنه لم يصبو الزوج الى ذلك لاحقاً ابداً. وترددت الإشاعات حول وجود عشـاق لها، لكنها تمتعت بسمعة طيبـة في أوساط المجتمع المتسامح، حيـث لم يوجه اليها اللوم بالتورط في مغامرة مـا مضحكة أو مغرية. وكان بيتهـا من أكثر البيـوت مسايرة للموضة. وضم في جنباته خيرة مجتمـع باريس. وقدم إبراهيم إليها الشاب ميرفيل، الذي يعتبر عموما آخر عشاقها، وهو ما كان يسعى لإظهاره بكل الوسائل.

إستقبلت الكونتيسة إبراهيم بوقار واحترام، ولكن بدون أي اهتمام علـى الأخص: وهذا مـا أشبع غروره. وعـادة كان الجميع ينظروف الى الزنجـي الشاب بكونـه أعجوبة، وكانوا يلتفـون حوله، ويمطرونه بالتحيات والأسئلة، لكن هذا الفضول، بالرغم من كونه يتوشح برداء اللطـف، يولد فيه الشعور بأن كبريائه قـد جرحت. أما الرعاية الحلوة للنسـاء، والتي تعتبر الهـدف الوحيد لمساعينا، فلـم تبعث جذوة من البهجـة في قلبه، بل حتى ملأته لوعة وغيظاً. وشعـر بأنه بالنسبة لهم مجـرد حيوان نادر ما، ومخلوق غريـب خاص، ظهر في العا لم بالصدفة، ولا توجـد لهم أية علاقة به. أنه حتى شعـر بالحسد حيال الأشخاص الذين لا يهتم بهم أحد، واعتبر حقارتهم هناءا.

إن التفكـير في أن الطبيعـة لم تخلقـه مـن أجل مبادلـة الحب، قد خلصتـه من الغرور والسعي إلى حب الذات، مما أكسبه البهجة النادرة في القـدره علـى التعامل مع النسـاء. كان حديثه بسيطـاً وهاماً. وقد اعجبـت الكونتيسـة (د) بـه، حيث أنهـا سئمت النـكات المتواصلة والتلميحات الرقيقة للظرافة الفرنسية. وكان إبراهيم غالباً ما يزورها. فاعتادت شيئـاً فشيئاً على مظهر الشاب الزنجـي وحتى وجدت شيئاً

جذاباً ولطيفــاً في هذا الرأس ذي الشعر المجعد، الذي ينبجس سواده وسط البــاروكات المكسية بالبودرة في حجــرة الضيافة لديها.(كان إبراهيــم جريحاً ولــف رأسه بمنديل بــدلاً من وضــع الباروكة). وقد بلغ ســن السابعــة والعشريــن. كان فارع الطــول ومنتصــب القامة، ونظــرت إليه أكثر من حسنــاء بشعور ينم عن المودة والمجاملة أكثر من الفضول،لكن إبراهيم المتحامل على نفسه أما لم يلاحظ، كما لم ير أي تغنــج. لكن عندما تلتقي نظراته بنظرات الكونتيسة ، يزول عدم الثقة كليــاً. فقد كانت عيناها تطفــح بالطيبة الــودودة، ومعاملتها له تتسم بالبساطــة وعدم التكلف، مما يجعل من غــير الممكن الإرتياب في أن فيها أي ظل للتصنع أو الهزء.

لم يكــن يــدر في خلــده الحــب، - لكنــه وجــد حاجــة في رؤية الكونتيســة في كل يوم. وكان يبحث في كل مكان عن لقاءات معها، وفي كل مــرة بــدا له أن اللقاء معها هبة سقطــت بغتة من السماء. وقد حدســت الكونتيسة مشاعره قبلــه. ومهما قيل فأن الحب بلا أية آمال ومطالب يمس أفئدة النساء بشكل أصدق من جميع حسابات الغواية وتعليل النفس بالآمــال. وكانت الكونتيسة بحضــور إبراهيم تراقب جميع حركاته، وتستمــع إلى جميع أقواله، وفي غيابه كانت تستغرق في التأمــلات وشرود الذهــن المعتاد لديهــا... وكان ميرفيل أول من لاحظ هذا الميــل المتبادل وقدم التهاني إلى إبراهيم. ولا يوجد ما يسعر لهيب الحب كملاحظات الدعم مــن قبل شخص آخر. الحب أعمى، وعندما لا يثق المرء بنفسه، يتشبث بعجلة بأي دعم.وشجعت إبراهيم كلمــات ميرفيل. و لم يرد في خيال إبراهيم بعد الإحتمال في أن يمتلك المــرأة الحبيبة، وإذا بالأمل ينــير روحه فجأة، ووقع في الحب الجارف. وذهبت عبثاً محاولات الكونتيسة، بعد أن أفزعها الهياج العارم لشهوته

الجامحة، وأرادت كبحها بالحديث عن الصداقة وتقديم النصائح له بالتعقل، لكن أصابها الضعف نفسها. وتتابعت الهبات من قبلات وملاطفات غير الحذرة الواحدة تلو الأخرى. وأخيرا سيطرت عليها قوة العشق، الذي أوعزته لنفسها، وأصابها الوهن بفعله، فاستلسمت إلى إبراهيم المعجب بها...

لا يخفى أي شئ عن أنظار المجتمع ورقابته. وسرعان ما عرفت العلاقة الجديدة للكونتيسة. وأبدت بعض السيدات العجب ازاء هذا الخيار، واعتبره الكثيرون منافياً للطبيعة. وكان البعض يستغرق في الضحك، بينما رأى البعض في سلوكها عدم حذر لا يغتفر. وفي غمرة العشق الأولى لم يلاحظ إبراهيم والكونتيسة أي شئ، لكن سرعان ما بلغت مسامعهما النكات ذات المغزى للرجال والملاحظات اللاذعة للنساء. لكن تعامل إبراهيم الوقور والبارد مع الآخرين قد صانه حتى ذلك الحين من الهجمات. وتحملها بنفاد صبر، ولم يدر كيف يتم التصدي لها. أما الكونتيسة التي اعتادت على احترام المجتمع لها، فلم تستطع أن ترى ببرود كيف أصبحت مادة للإشاعات والأضحوكات. فصارت تشكو لإبراهيم وعيناها مخضلتان بالدموع، وانحت عليه باللائمة بمرارة، وتوسلت إليه ألا يقترب منها، بغية ألا تقودها الى الهلاك الضجة المثارة عبثاً.

إن هذا الأمر الجديد قد شوش وضعها أكثر. وكشفت آثار الحب الطائش. أما تهدئة الخاطر وتقديم النصائح والإقتراحات فإنها استنفدت جميعاً ورفضت جميعا. ورأت الكونتسية قدوم الهلاك المحتوم وانتظرته يائسة.

وحالما عرف أمر الكونتيسة بدأت الأقاويل تنتشر بقوة من جديد.

وصـارت السيـدات الحساسات تطلقـن الآهات مـن الفظاعة. أما الرجال فأخذوا يضربون اخماسـا بإسداس حول الطفل الذي ستلده الكونتيسـة: هل سيكون أبيض أم أسـود. وانهالت الأشعار الساخرة حول زوجها الـذي كان الوحيد في باريس الذي لا يعرف ولا يشك في أي شيء.

واقتربـت اللحظة المشؤومـة. كانت الكونتيسـة في حالة فظيعة. وكان إبراهيم يزورها يوميا. ورأى كيف كانت تضوى قواها الروحية والبدنيـة. وتذرف الدموع ووتبدي مخاوفها مجدداً في كل لحظة. وفي نهاية المطـاف شعرت بأولى الآلام. واتخـذت التدابير بسرعة. وأبعد زوجها الكونتيس بطريقة ما. وجاء الطبيب. وكان الإتفاق قد تم قبل يومـين مع إمرأة فقيرة بأن تتخلى عن طفلها الوليد إلى آخرين، وأرسل مبعـوث لجلبـه. وبقى إبراهيم في الغرفة المجـاورة لغرفة النوم حيث رقدت الكونتيسـة التعيسة. وصار يصغي وأنفاسـه محتبسة إلى أنينها وهمس الخادمة وأوامر الطبيب. وعانت من العذاب طويلا. وكان كل أنين يمزق نياط قلبـه، وكل فترة سكون تغمره بالفزع... وفجأة سمع صراخ طفـل، و لم يستطع جماح ابتهاجه، فاقتحـم غرفة الكونتيسة. كان الطفل الرضيع مستلقياً على الفراش بين قدميها. واقترب إبراهيم منه. واشتد وجيع قلبه. وبارك إبنه بيد مرتعشة. وابتسمت الكونتيسة بضعـف ومدت اليه يدها الضعيفـة.. لكن الطبيب خشي أن تتعرض المريضـة إلى هزات شديدة جداً فابعد إبراهيـم عن سريرها. وتم وضع الطفل الوليد في سلة مغلقة وأخرج من البيت عبر سلم سري. وجلب الطفل الآخر ووضعوه في المهد في غرفة النفساء. غادر إبراهيم القصر وقد غمره الهدوء لحد ما. وانتظروا عودة الكونت. وقد عاد في وقت متأخر، وعرف بالنهاية السعيدة لمعاناة زوجته، وكان راضياً جداً.

وهكــذا فان الجمهــور الــذي كان ينتظر ضجة صاخبــة مثيرة قد خابت آماله واضطر لتهدئة الخاطر بإطلاق النكات فحسب.

عــادت الأمور الى مجاريها، أما إبراهيم فقد شعر بأن مصيره يجب ان يتغير وأن علاقته ستصل عاجلاً أو آجلاً إلى الكونت (د). وفي هذا الحال، ومهما حدث، فان هلاك الكونتيسة سيصبح محتوماً.إنه أحبها حباً جماً كما أحبته أيضاً، لكن الكونتيسة متقلبة المزاج وطائشة. و لم يكــن أول عشيق لها. ويمكن أن يحل النفور والحقد في قلبها محل أدق المشاعــر. وقد تنبأ إبراهيم مسبقاً باللحظــة التي تظهر فيها البرودة، وهو لم ير حتى الآن الغيرة، لكنه تحسسها بشعور من الخوف. وتصور أن أوجــاع الفراق يجــب أن تكون أقل إيلاما، وعقــد النية على قطع العلاقــة التعيسة، ومغــادرة باريــس والتوجه إلى روسيــا، حيث كان ينتظره منذ وقت بعيد بطرس والشعور الدفين بواجبه.

الباب الثاني

لا ينعم الجمال باللطف الشديد

ولا تعجب بهذا القدر البهجة الشديدة

والعقل ليس طائشاً بهذا القدر

ولست موفقا بهذا القدر

ويعذبني الجنوح إلى الأمجاد

يدعوني، وأنا أصغي إليه، ضجيج المجد!

ديرجافين

مضـت الأيام والأشهر، و لم يستطع إبراهيـم العاشق اتخاذ القرار بـترك المرأة التـي أغواها. أمـا الكونتيسة فكانت تتعلق بـه أكثر فأكثر ساعة بعد ساعـة. وكان إبنهما يشب في محافظة بعيدة. وبدأت تخف حـدة الإشاعـات في المجتمع، وصار العاشقان يتمتعـان بهدوء أكبر، ويتذكران بصمت العاصفة الماضية وسعياً إلى عدم التفكير بالمستقبل.

وحـدث مـرة أن كان ابراهيم في قصر دوق اورليـان. وعندما مر

الـدوق بمحاذاته سلمه رسالة وأمره بقرائتها في أوقات الفراغ. كانت الرسالة من بطرس الأكبر. وكتب القيصر، الذي حدس السبب الحقيقي لغيابـه، إلى الـدوق بأنه لا يعتزم ملامـة إبراهيـم في أي شيء، ويترك لـه الحريـة في العودة إلى روسيـا أو عدم العودة اليهـا، ولكنه في كافة الأحـوال لن يتخلى عـن ربيبه السابق. وقد مست هـذه الرسالة نياط قلـب إبراهيم. ومنذ تلك اللحظة تقرر مصـيره. وفي اليوم التالي أبلغ الوصـي على العرش بنيته في السفر إلى روسيا فوراً. وقال الدوق له: «فكـر فيما تفعلـه. إن روسيا ليست وطنك، كما أننـي لا اعتقد بأنك سترى مجدداً وطنك القائظ. لكن وجودك في فرنسا خلال فترة طويلة جعلك أيضاً غريبـاً عن مناخ ونمط الحياة في روسيا شبه المتوحشة. إبق في فرنســا التي أرقت دمك من أجلها، وكـن على يقين بأن خدماتك ومواهبـك ستلقى هنا التقدير الجدير بها». فشكر إبراهيم الدوق كل الشكـر، ولكنه بقي صلباً في نيته. وقال له الدوق: «آسف، ولكن ربما أنـت على حق». ووعده بأنه سيقبـل استقالته وكتب عن هذا كله إلى القيصر الروسي.

وسرعـان ما شد إبراهيـم الرحال للسفر. وكالعـادة أمضى أمسيته عشيـة السفـر لدى الكونتيسـة(د). و لم تكن تعرف شيئـاً. إذ لم يجد إبراهيـم الجرأة لمصارحتها. وكانت الكونتيســة هادئة ومرحة. ودعته عـدة مرات إليها ومزحـت بشأن استغراقه في التفكـير. وبعد العشاء انصـرف الجميـع. وبقيت في غرفـة الإستقبـال الكونتيسة وزوجها وإبراهيم. وكان هذا التعيس مستعداً للتضحية بكل شيء في هذه الدنيا من أجل البقاء على انفراد معها فقط. لكن الكونت (د) بقي كما يبدو واقفـاً بهدوء عند الموقد، مما أبعـد الأمل في خروجه من الغرفة. ولزم الثلاثـة الصمت. وفي نهاية المطاف قالـت الكونتيسة: «*Bonne nuit*

"[20] وانقبض قلب ابراهيم، وبغتة أحس بكل لوعة الفراق. ووقف بلا حراك. وكررت الكونتيسة قائلة: « *Bonne nuit، messieurs* "[21]. ولكنه لم يتحرك مع هذا.. واخيراً غمرت العتمة بصره، واصابه الدوار، وبالكاد استطاع مغادرة الغرفة. وعندما وصل إلى البيت وهو غائب الوعي تقريبا كتب الرسالة التالية:

« إنني أسافر، ياعزيزتي ليونورا، وأتركك إلى الأبد. أنا أكتب إليك لأنني لا أجد القوة لمصارحتك بشكل آخر.

إن سعادتي ما كان بالمستطاع أن تستمر. إنني تمتعت بها خلافاً لحكم القدر والطبيعة. ووجب عليك أن تكفي عن حبي، ووجب أن يزول السحر. وكانت هذه الفكرة تلاحقني دوماً، حتى في تلك اللحظات عندما تراءى لي أنني نسيت كل شئ، حين كنت أتلذذ عند قدميك بنكرانك المشبوب للذات، وبرقتك بلا حدود..إن النور الطائش يلاحق بلا هوادة فعلاً ما يجوز السماح به نظرياً: إن سخريته الباردة كانت عاجلاً أو آجلا ستنتصر وستلجم جماح روحك الفائرة، ولشعرت في نهاية الأمر بالخجل من عشقك... فماذا سيكون شأني عندئذ؟ كلا!من الأفضل أن أموت، من الأفضل أن أتركك قبل أن تحل هذه اللحظة الفظيعة...

إن طمأنينتك وهدوء بالك أعز لدي من كل شيء: وما كان بوسعك التمتع بها، ما دامت أنظار المجتمع تتجه نحوك. تذكري كل ما عانيت منه، وكل الإهانات لعزة نفسك، وكل أوجاع الخوف، تذكري المولد الفظيع لإبننا. وفكري: هل يجب علي أن أجعلك أكثر

---

٢٠. ليلة سعيدة (بالفرنسية)

٢١. ليلة سعيدة ايها السادة (بالفرنسية)

عرضة للقلق والمخاطر؟و لم الإقدام على الجمع بين مصير مخلوق بهذه الرقة وبهذا الجمال مع مصير زنجي تعيس، ومخلوق بائس، لا يكاد يستحق تسمية إنسان؟

سامحيني ياليونورا، سامحيني، ياصديقتي العزيزة والوحيدة. إنني إذا أتركك أتخلى عن أول وآخر مسرة في حياتي. وأنا بدون وطن أو اقارب. إنني أسافر إلى روسيا الحزينة، حيث ستكون مسرتي وحدتي التامة. الدروس الصارمة التي سأقدمها منذ الآن فصاعدا ستسليني، إن لم تخمد على أقل تقدير الذكريات المؤلمة حول أيام الأفراح والسعادة... سامحيني ياليونورا،- سأترك كتابة هذه الرسالة كما لو أنني أترك أحضانك، سامحيني، وكوني سعيدة - وتذكري أحياناً الزنجي التعيس، والمخلص لك إبراهيم».

وغادرفي الليلة نفسها إلى روسيا.

بدا أن الرحلة لم تكن مزعجة له، كما كان يتوقع. وتغلب خياله على الواقع. وكلما ابتعد عن باريس أكثر، كان يتصور في دخيلته بحيوية وبشكل أقرب الأشياء التي سيفارقها إلى الأبد.

وصل إلى الحدود الروسية دون أن يشعر بذلك. وكان الخريف قد خيم فوق المكان، لكن الحوذية انطلقوا بسرعة الريح بالرغم من رداءة الطريق.وفي اليوم السابع عشر من سفره بلغ صباحاً كراسنويه سيلو التي كان يتفرع منها الطريق الكبير أيامذاك.

وبقيت مسافة ٢٨ فرستا حتى بطرسبورغ. وفيما كان يجري قرن الخيول دخل إبراهيم إلى بيت الحوذية. كان في الركن يجلس رجل طويل القامة، بقفطان أخضر، وفي فمه غليون خزفي، متكئاً

علـى الطاولة، وانهمك في مطالعة صحـف هامبورغ.وعندما تناهى إلى سمعـه صوت دخول أحد ما رفع رأسه. فصاح:« باه ! إبراهيم؟» ونهضـ مـن وراء الطاولة– « أنـت معافى،يا إبنـي في العماد! وأراد إبراهيم الذي عرف بطرس أن يندفع إليه مسرورا، لكنه توقف احتراماً لـه. واقترب القيصـر منه واحتضنـه وقبله في رأسه. وقـال بطرس:« لقـد أبلغوني بخـبر قدومك، فأتيـت للقـاءك. أنا بانتظـارك هنا منذ مسـاء أمس». وعجز إبراهيم عن إيجـاد الكلمات للتعبير عن امتنانه. ومضـى القيصر قائلاً:«أعط الأمر بأن تتبعنا عربتك، بينما أجلس معي وسنذهـب إلي».قدمت عربة القيصر فجلس مع إبراهيم فيها، وانطلقا خببا. وبعد ساعة ونصف وصلا الى بطرسبورغ. وصار إبراهيم يتطلع بفضول إلى العاصمة المولودة حديثـا، والتي قامت وسط المستنقعات بنزوة من صاحب الأمر والنهي. وكانت السدود العارية والقنوات بلا ضفاف والجسور الخشبية في كل مكان تشير إلى انتصار الإرادة البشرية منـذ فترة وجيزة على مقاومـة الطبيعة. وبدا أن المباني قد شيدت على عجل. و لم يوجد في المدينة أي شيء رائع سوى نهر نيفا الذي لم تزينه بعد أرصفة الجرانيـت، لكنه كان مزدحما بالسفن الحربية والتجارية. وتوقفـت عربة القيصر عند القصـر المسمى «تساريتسين ساد». وعند المدخـل استقبلت بطرس إمرأة حسناء في الخامسة والثلاين من العمر، تتزي بآخر موضة باريسية. فقبلها بطرس في الشفتين. واقتاد إبراهيم نحوهـا وقال:« هل عرفـت ياكاتينكا إبني بالعمـاد: أرجو أن تمنحيه محبتك ورعايتـك كالسابق». ورنت يكاترينا إليـه بعينيها السوداوين والنافذتـين ومـدت إليـه يدها بمـودة. بينمـا وقفت ورائهـا صبيتان حسناوتان، فارعتا الطـول، وممشوقتا القد، ونضرتان كالورد واقتربتا من بطرس باحترام. وقال لإحداهما:« ليزا هل تذكرين الصبي العربي الصغير الذي كان يسرق التفاح من أجلك في اورانينباوم؟ هاهوذا: أنا

أقدمه إليك ». فضحكت الأميرة المعظمة وغشت سحنتها الحمرة. وتوجهوا إلى صالة الطعام. كانت المائدة العامرة قد أعدت بانتظار القيصر. وجلس بطرس مع أفراد العائلة لتناول الغداء، كما دعا إبراهيم إليه. وفي أثناء الغداء صار يتحدث إليه حول أمور شتى منها حول الحرب الإسبانية وحول القضايا الداخلية في فرنسا وحول ولي العهد الذي كان يحبه، ولو انهادان فيه أموراً كثيراً. وقد تميز إبراهيم بالذكاء الباهر ودقة الملاحظة. وكان بطرس راضياً جداً عن أجوبته. وتذكر بعض صفات إبراهيم في صغره وتحدث عنها بكل طيبة وبمرح، ولا يمكن لأي احد أن يشك في لطف وكرم الضيافة لصاحب البيت بطل معركة بولتافا ومصلح روسيا الجبار والرهيب.

وبعد الغداء ذهب القيصر لأخذ قسط من النوم حسب العادة الروسية. وبقي إبراهيم مع القيصرة والأميرتين المعظمتين. وقد سعى إلى ترضية فضولهن ، فوصف طراز الحياة الباريسية، والأعياد والموضات الغربية هناك. وفي الوقت نفسه تجمع في القصر بعض الشخصيات المقربة للقيصر. وتعرف إبراهيم على الأمير الفخم الهيئة مينشيكوف،الذي حين رأى العربي متحدثا مع يكاترينا، رمقه بنظرة استعلاء، كما تعرف على الأمير ياكوف دولغوروكي مستشار بطرس الهمام، وعلى العالم بريوس الذي ذاع صيته لدى عامة الناس بكونه فاوست الروسي، وعلى الشاب راغوزينسكي رفيق صباه سابقاً، وغيرهم من الشخصيات الذين جاءوا إلى القيصر لتقديم التقارير وتلقي الأوامر.

خرج القيصر من مخدعه بعد مرور ساعتين. فقال لإبراهيم:« سنرى فيما إذا لم تنس بعد وظيفتك السابقة. خذ لوحة الاردواز واتبعني». وأغلق بطرس على نفسه باب حجرة الخراطة وانهمك في

تسيير أمور الدولة. وعمل بالتوالي مع بريوس والأمير دولغوروكي، وجنرال الشرطة ديفيير، وأملى على إبراهيم عدة أوامر وقرارات. و لم يكن بوسع إبراهيم أن يدهش لعقله السريع والراسخ، وقوة ومرونة ذهنه وتنوع مجالات نشاطه. وفي ختام الأعمال أخرج بطرس مفكرة الجيب للتحقق فيما إذا نفذت جميع المهام المقررة لذلك اليوم. ومن ثم قال لإبراهيم بعد الخروج من حجرة الخراطة: «أنت كما يبدو تعب، فبت ليلتك هنا كما في الأيام الخوالي. وسأوقظك غدا».

عندما أصبح إبراهيم على انفراد بالكاد استطاع أن يثوب إلى نفسه. فهو في بطرسبورغ، ورأى مجددا الرجل العظيم الذي أمضى طفولته بالقرب منه، من دون أن يعرف بعد قيمته. واعترف في دخيلته بما يشبه الغفران بأن الكونتيسة (د) لم تكن لأول مرة طوال اليوم ومنذ فراقها الموضوع الوحيد الذي يشغل فكره. ورأى أن نمط الحياة الجديد الذي ينتظره والعمل والمشاغل المستمرة يمكن أن تبعث الحياة في روحه، المتعبة بالإنفعالات والعواطف المشبوبة والبطالة والكآبة المكتومة. إن فكرة أن يصبح رفيق طريق لإنسان عظيم والعمل سوية معه لخدمة مصائر شعب عظيم، قد ايقظت فيه لأول مرة الشعور النبيل بالعزة والكرامة. واستلقى على السرير السفري الذي أعد له وقد طفحت نفسه بهذه الروح، وبعد ذلك نقله الحلم المعتاد إلى باريس البعيدة، وإلى أحضان الكونتيسة الحبيبة.

الباب الثالث

كالسحابة في السماء،

تغير أفكارنا الصورة الخفيفة،

فنحب اليوم ما نكرهه غدا.

ف. كيوخلبيكر

في اليوم التالي أيقظ بطرس إبراهيم كما وعد، وهنأه بمنصب الكابتن – الملازم لسرية مدفعية فوج برياوبرجينسكي الذي كان فيه سابقاً برتبة كابتن. وأحاط رجال البلاط بإبراهيم وسعى كل واحد منهم حسب طريقته إلى التودد إلى المحبوب الجديد. أما الأمير مينشيكوف المتعجرف فصافحه بمودة. واستفسر شيريميتوف عن معارفه الباريسيين، ودعاه غولوفين لتناول الغداء معه. وقد حذا حذو الأخير الآخرون، مما جعل إبراهيم يتلقي الدعوات لما لا يقل عن شهر كامل.

أمضى إبراهيم أيامه بلا تغيير، لكنها كانت مترعة بالنشاط – ومن الطبيعي ألا يعرف السأم. وصار يوما بعد يوم يتعلق بالقيصر أكثر، وأدرك بشكل أفضل روحه السامية. إن متابعة أفكار إنسان عظيم هو

علـم مشوق للغايـة. وكان إبراهيم يرى بطرس في مجلس الشيوخ، حين يجادل بوتورلين ودولغوركي، ويناقش القضايا الهامة للتشريع، وفي مجلس إدارة الأميراليـة مثبتا عظمة روسيـا البحرية ، كما رأه مع فيوفان وغافرييل بوجينسكي وكوبييفتش، وفي ساعات الراحة يطالع تراجم الكتاب الإعلاميين الأجانـب، أو يزور معمل التاجر ومحترف العامـل أو مكتـب العالم. وبدت روسيا أمـام إبراهيم كورشة عملاقة حيـث تتحرك ماكينات مـا، وحيث يمارس كل عامـل عمله بموجب نظـام محدد. واعتبر أن مـن واجبه العمل أمام ماكينتـه والسعي إلى أن يأسـف بأقل قدر ممكن لغياب لهو الحياة الباريسية. وكان أصعب شئ لديه هو أن يبعد عن نفسه الذكريات الأخرى العزيزة لديه: فكن غالباً مـا يفكر بالكونتيسة (د) ويتصور غضبهـا العادل ودموعها وحزنها. لكن أحياناً كان صدره يضيق كل الضيق بفكرة أن يتبدد النور الكبير، وأن توجـد علاقة جديـدة، وشخص سعيد آخـر – وعندئذٍ ينتفض، وتأخـذ الغيرة بالفوران في دمه الإفريقي، والدموع الساخنة مستعدة لكي تترقرق على وجهه الأسود.

وحدث مرة في الصبـاح أن كان جالسا في مكتبه محاطاً بالأوراق الرسميـة، فسمع بغتة تحية هـادرة باللغة الفرنسيـة. والتفت إبراهيم بخفة فرى أمامه، في دفقة النورالكبيرالشاب كورساكوف الذي تركه في باريس فاحتضنه مطلقـاً عبارات البهجة. وقـال كورساكوف:« لقـد وصلت لتوي الآن وهرعت إليك مباشـرة. إن جميع معارفنا في بايس يهدونك التحيـات، ويأسفون لفراقك. وأمرت الكونتيسة (د) بدعوتك فورا وإليك رسالة منها». وتابع كورساكوف قوله:« كما أنا مسرور لكونك لم تمت بعد من الضجر في بطرسبورغ المتوحشة هذه! مـاذا يفعلون هنا، وماهـي مشاغلهم؟ من هو خيـاط ملابسك؟ هل

افتتحـوا أوبرا هنا؟». واجاب إبراهيم شـارد الذهن أن القيصر يعمل الآن في أغلـب الظن في ترسانـة بناء السفن. فضحـك كورساكوف وقـال:« أرى أنك الآن في شغل شاغل عني. سنتحدث في وقت آخر حتـى الشبـع. سأذهب لأقدم نفسـي إلى القيصر». واستـدار مع هذا القول على ساق واحدة وخرج من الغرفة راكضاً.

أمـا إبراهيم الذي بقي وحيداً فقد فتـح الرسالة بسرعة. واشتكت الكونتيسـة إليه ، ولامته على اللامبالاة وسـوء الظن. وكتبت:« أنت تقـول أن طمأنينتـي أغلى لديـك من كل شي في الدنيـا. إبراهيم ! لو كان هـذا حقا، لما استطعـت أن تعرضني إلى الوضـع الذي كنت فيه لـدى تلقي النبأ بالصدفة حول سفرك؟ إنـك كنت تخشى أن أبقيك، كن على ثقـة بأنني، بالرغم من حبي، كنـت أستطيع التضحية به من أجل سعادتك، وما تراه واجباً». وفي ختام الرسالة أعربت الكونتيسة عن تأكيداتهـا المترعة بالشوق في حبه، واستحلفته بأن يكتب لها ولو نادرا، إذا لم يعد لهما أمل في اللقاء في وقت ما.

أعـاد إبراهيم قراءة هـذه الرسالة عشرين مرة، وهـو يقبل بابتهاج السطـور النفيسـة التي لا تقدر بثمن. واهتاج نفـاد صبره لسماع أي شيء عـن الكونتيسة، وعقد العزم على التوجـه إلى ترسانة الأميرالية، أمـلاً في أن يلتقي كورساكـوف مرة أخرى، لكن البـاب فتح وظهر كورساكـوف نفسـه أمامه مجـددا. وكان قد قدم نفسـه إلى القيصر – وكعادتـه بدا راضياًعـن نفسه كل الرضـى. وقال مخاطبـاً إبراهيم:« *Entre nous*[٢٢] – القيصـر رجل غريب الأطوار، تصور أنني وجدته مرتديـا كنـزة خشنـة ما مـن الخيش، فـوق صاريـة سفينـة جديدة،

٢٢. الكلام فيما بيننا– بالفرنسية(المترجم)

اضطـررت لتسلقها حاملاً رسائلي الدبلوماسية. ووقفت على سلم مـن الحبال، و لم أجد المجـال لأداء التحية الموقرة (الريفيرانس). وقد اضطربت كلياً بشكل لم أعرفه منذ ولادتي. أما القيصر فنظر إلي بعد قـراءة الأوراق متفحصـاً أياي من أخمص الرأس وحتى القدمين، وفي أغلـب الظن أنه دهش للذوق والأناقة الرفيعة لهندامي. على أقل تقدير أنــه ابتسم ودعاني اليوم لحضور الحفل العام. لكنني اشعر بأنني غريـب تماماً في بطرسبـورغ، فخلال غيابي ستة أعـوام نسيت تماماً العـادات السائـدة هنا فأرجوك أن تكون دليلـي، ورافقني وقدمني إلى الآخريـن». ووافق إبراهيم وعاجـل بتحويل مجرى الحديث إلى موضـوع يشغل باله أكثر. « حدثني كيف حال الكونتيسة (د)؟» - الكونتيسـة؟ إنها، طبعا، حزنت في البدايـة كثيرا لسفرك. ولكنها، طبعـاً، هدأت شيئاً فشيئـاً ووجدت لها عشيقاً جديـداً. أتعرف من هو؟ إنه الماركيز الطويل (ر). مالك تحملق ببياض عينيك العربي؟ أم أن الأمر كله يبدو غريباً لك. ألا تعرف أن الحزن الطويل الأمد ليس مـن طبع البشر، بالأخص لـدى النساء. فكر في الأمـر جيداً، بينما سأذهب لأخذ قسط من الراحة بعد السفر. لا تنس المرور علي «.

أيـة أحاسيـس غمـرت روح إبراهيم؟ الغيرة؟ إعـتراه طائف من الجنـون؟ اليأس؟كلا، لقد كظمه الحـزن الشديد وأقض مضجعه. وصـار يكرر لنفسه: كنت أتوقع ذلـك، كان لابد ان يحدث ذلك. ثـم فتح رسالة الكونتيسة وأعاد قرائتها مجدداً، ورفع رأسه واستغرق بالبـكاء بمـرارة. واستمر في النحيب فترة طويلـة. وخففت الدموع لواعـج قلبـه. ولـدى النظـر إلى الساعة وجـد ان الوقـت قد حان للخـروج. وكان إبراهيـم يود جـداً أن يتخلص من المحفـل العام، لكن منصبه الرسمـي كان يملي عليه حضوره، وقد أمر القيصر بحزم

وجـوب حضور جميـع المقربين منـه. فأرتدى ملابســه وتوجه في طلب كورساكوف.

كان كورساكـوف جالسـاً في رداء النـوم ويطالع كتابـاً فرنسياً. فقــال لإبراهيم بعد أن رآه: «هل الوقت مبكر إلى هذا الحد؟». فاجابه بقوله: «حنانيك، لقد بلغت الساعـة الخامسة والنصف. نحن نتأخر. فاسـرع بارتـداء ملابسك وهلم بنـا». فأسرع كورساكـوف بالحركة والإهتيـاج، وصار يـدق الأجراس بـكل عنف. وهـرع إليه الخدم، وبـدأ يرتدي ملابسه بسرعة. وقدم له الخادم الفرنسي حذائين بكعبين أحمرين، وسراويل زرقاء مـن القطيفة، وقفطاناً ورديآً مزيناً بترترات، وعند المدخل رشت البودرة على الباروكة بسرعة، وقدمت اليه. فدس كورساكـوف فيها رأسه الحليق، وطلــب السيف(الشيش) والقفافيز، واستدار حول المرآة عشر مـرات وقال لإبراهيم أنه مستعد للذهاب. وقـدم الخدم لهما فروتـي دب الخدم من «الغايدوك»، ثـم انطلقا إلى القصر الشتوي.

وانهــال كورساكوف بالأسئلة على إبراهيم حول من هي الحسناء الأولى في بطرسبـورغ؟ ومـن هـو أبـرع الراقصين؟ وماهــي موضة الرقص الآن؟ وكان إبراهيم يرضي فضوله على مضض جداً. ثم وصلا إلى القصـر. كان يرابط في روضة القصر الكثير من الزحافات الطويلة والعربـات الكبيرة العتيقـة والعربات المذهبة. واحتشـد عند المدخل الحوذيـة بأزيائهـم المميـزة وشواربهـم، وأحذية التزلـج، والأشرطة البراقة، والرياش والدبابيس، كما كان هناك الفرسان والغلمان، والخدم (الغايدوك)ذو المظهر الأخرق حاملين فروات وموفات أسيادهـم: إنها الحاشيـة الضرورية لهم حسب اعتقاد النبـلاء البايار في ذلك الزمان. ولدى ظهـور إبراهيم صاروا يتهامسون جميعـا: «العربي، العربي،

عربي القيصر!». أما هو فقد اقتاد كورساكوف بسرعة وسط هذا الحشم ذي الأزياء المبرقشة. وفتح خادم القصر أمامهما الباب على مصراعيه ودخلا الصالة. فجمد كورساكوف في مكانه... فقد كان يذرع الصالة حشد متراص جيئة وذهاباً مع ألحان الموسيقى المتواصلة (المنبعثة من الآت النفخ الهوائية) في القاعة الكبيرة المنارة بالشموع الشحمية التي كانت تشتعل بنور خاب وسط سحب دخان التبغ، وهم من السادة ذوي الأوشحة الزرقاء على أكتافهم والمبعوثين والتجار الأجانب والضباط الفرسان بأزيائهم الخضراء وصناع السفن بصديريات وسراويل عريضة. أما السيدات فقد جلسن عند الجدران، وتألقت الشابات بكل فخامة الموضة. وتلألأ الذهب والفضة على ملابسهن. وبرزت خصورهن الهيفاء، كالعود،من مشدات التنانير العريضة الفخمة. وتألقت الماسات في الآذان، وفي خصلات الشعر الطويلة وحول العنق. وكن يتلفتن بمرح يساراً ويميناً بانتظار الفرسان وبدء الرقص. أما السيدات الأكبر سناً فتراهن يصبون بدهاء إلى الجمع بين طراز الملابس الجديد والطراز القديم الذي مضى عهده: فالقلنسوة النسائية غطيت بفرو السمور المميز للقيصرة ناتاليا كيريلوفنا، أما الفساتين العريضة (روبروندات) وغطاء الرأس الإسباني (المانتيلات) فهي تشبه رداء السارافان الروسي والصديرية المبطنة بالفرو الروسية. وبدا كما لو أن قلوبهن طافحة بالعجب أكثر من الإرتياح واللذة لارتدائهن هذه الأزياء المبتكرة وينظرن بكآبة إلى زوجات وبنات ربابنة السفن الهولنديين ذوي التنانير الرقيقة والصديريات الحمراء والمنهمكات في حياكة الجوارب وهن يتضاحكن ويتبادلن الأحاديث كما لو كن في بيوتهن. وعندما لاحظ الخادم ظهور الضيفين الجديدين دنا منهما حاملاً البيرة والأقداح على صينية. وسأل كورساكوف

إبراهيم بصـوت خافت: *Que diable est—ce que tout cela*?[٢٣].
وكان بوسـع إبراهيم أن يمنع نفسه من الضحـك. فقد كانت القيصرة والأميرات المعظمات يتهادين في صفوف الضيوف ويتألقن بجمالهن وبأزيائهن، ويتحدثن إليهن بمودة. وكان القيصر في صالة أخرى. وشق كورساكـوف الـذي كان يود أن يريه نفسه طريقـه بمشقة عبر الحشد المتحرك بلا توقـف. وجلس هناك القسم الأكبر مـن الأجانب الذين كانـوا يدخنون بوقار غلايينهم الفخاريـة ويفرغون الأقداح الفخارية في جوفهم. ورصت علـى الموائد قناني البيرة والنبيذ وأكياس جلدية فيها التبغ، وأقداح البونش ورقعات الشطرنج. وكان بطرس يمارس وراء إحـدى الطاولات لعبة الداما مع ربان إنجليزي عريض المنكبين. وكانا يغرقـان أحدهما الآخـر بدفقات من سحب الدخـان ، وكان القيصر مشغولاً بالتأمل في نقلة غريمه غير المتوقعة، فلم يلاحظ كورساكوف، مهما دار حولهما. وفي هـذه اللحظة دخل القاعة بجلبة رجل بدين، وعلـى صدره باقة زهـور كبيرة، وأعلن بصوت جهـوري أن الرقص بـدأ – وغادر القاعة على الفـور، فتبعه الكثير مـن الضيوف، ومنهم كورساكوف.

وقد ذهل لمرأى المشهد غير المتوقع. فقد وقفت السيدات والسادة شركائهن في الرقص في صفين مقابل بعضهم البعض على امتداد قاعة الرقص، بمصاحبة الموسيقـى البائسة جداً، واحنى السـادة رؤوسهم بينمـا ردت السيدات بالإنحناء أكـثر في البداية نحو الأمام ، ومن ثم كررن ذلك نحو اليمين واليسار، ومن ثم نحو الأمام مرة اخرى، ومرة أخـرى نحو اليمـين واليسار. ونظر كورساكـوف إلى تزجية الوقت المسليـة هذه، وبحلـق بعينيه وعضـ شفتيه. وتواصلـت الإنحناءات

٢٣. يا للشيطان...ما هذا كله (بالفرنسية)– المترجم.

والركعـات حوالي نصف ساعة، وفي نهاية المطاف توقفوا عن ذلك، وأعلن الرجل البدين ذو باقة الزهور، أن مراسم الرقص قد انتهت، وأمر الموسيقيين بعـزف رقصة المينويت. فسر كورساكـوف واستعد لإبداء مهارته. وقـد أعجبته إحدى السيدات من بـين الحضور. وكانت في حوالي السادسة عشرة من العمر، وفي زي يتسم بالغنى، ولكن بذوق، وجلسـت إلى جانب رجـل مسن ذي مظهر وقـور وصارم. واندفع كورساكوف نحوها وطلب أن يكون له شرف الرقص معها. فتطلعت إليـه الحسناء الفتية بحيرة، وبدا كما لو أنها لاتعرف ماذا تقول له. أما الرجـل الجالس إلى جانبهـا فقد ازداد عبوسـا. وانتظر كورساكوف قرارهـا، لكن الرجل ذا باقـة الزهور قاده إلى وسـوط القاعة وقال له بوقار: « يا سيدى إنك اخطأت: فأولاً عندما اقتربت من الفتاة، لم تقم أمامها بحركات التحية بالإنحناء ثلاث مرات، وثانياً أخذت لنفسك مهمـة الإختيار بينما في المونويت يكون هـذا من حق السيدة. ولهذا يجب معاقبتك بتنـاول كأس النسر الكبير». وطفحت نفسه بالدهشة شيئـاً فشيئاً. وفي لحظة خاطفة أحاط بـه الضيوف مطالبين بصخب أن ينفذ القانون فورا. وعندما سمع بطرس القهقهة والصراخ جاء إلى القاعة الأخرى، حيث كان من هواة حضور مثل مشاهد العقوبة هذه. وانفرج الحشد أمامه، وجـاء إلى الدائرة التي وقف المحكوم عليه فيها وأمامه مارشال المحفل حاملاً كأساً ضخمة مملوءة بنبيذ مالفازيا. وكان يدعـو « المجرم» عبثاً بالإنصياع طوعاً إلى القانون. وقال بطرس لدى رؤيـة كورساكـوف: « آها، لقد ضبطت، يـا أخ ! هيا إسمح بالشرب ولا تعبسـ». ولم يكـن باليد حيلـة. وقـام المتأنق المسكـين باحتساء الكأس دفعة واحدة واعطاهـا إلى المارشال. فقال له بطرس: « إسمع ياكورساكـوف، إن سراويلك مـن القطيفة، بينما أنـا لا ألبس مثلها، بينمـا أنا أكثر غنى منك كثيراً. هذا تبذيـر، فأحذر من أن أخاصمك.

وعندما استمع كورساكوف إلى هذا الحكم أراد الخروج من الدائرة، لكنه تأرجح في مشيته وكاد أن يسقط، وهذا ما أثار الإرتياح البالغ لدى القيصر وجميع الحشد المرح. واخذ السادة يجرجرون أقدامهم وينحنون، أما السيدات فينحنين ويطقطقن بكعوب الأحذية بهمة أكبر دون مراعاة الإيقاع البتة. و لم يستطع كورساكوف المشاركة في المرح مع الجميع. أما السيدة التي اختارها فتوجهت بأمر من أبيها غافرييل افاناسيفتش من إبراهيم بخفر، وقدمت له يدها مطرقة بعينيها الزرقاوين. ورقص ابراهيم المنويت معها وأعادها إلى مكانها السابق، ثم بحث عن كورساكوف وأخرجه من القاعة وأجلسه في العربة ومضى به الى البيت. وفي البداية كان كورساكوف يتمتم في الطريق بعبارات مبهمة:« اللعنة على الحفل العام!.. اللعنة على كأس النسر الكبير !، لكنه سرعان ما استسلم إلى النوم العميق، و لم يشعر كيف وصل إلى البيت، وكيف خلعوا ملابسه وارقدوه. واستيقظ في اليوم التالي بوجع في الرأس، دون أن يتذكر بوضوح جرجرة الأقدام والإنحناءات ودخان التبغ والسيد ذا باقة الزهور وكأس النسر الكبير.

الباب الرابع

كان أسلافنا يأكلون بلا عجلة،

وبلا عجلة كان يتم تداول

الكؤوس والأقداح الفضية

المملوءة بالبيرة والنبيذ.

من قصيدة(روسلان ولودميلا)

الآن يجب أن أعرف القارئ الكريم الميال الى المطالعة بغافريل افاناسيفتش رجيفسكي.إنه سليل أسرة قديمة من النبلاء، ولديه ضيعة كبيرة، ويكرم الضيف، ويحب الصيد بالصقور، ولديه عدد كبير من الخدم والحشم. صفوة القول كان نبيلاً روسياً أصيلاً، وحسب قوله كان لا يطيق عادات الألمان، ويسعى في أمور بيته الى صيانة العادات الروسية القديمة المحبوبة لديه.

وكانت ابنته في السابعة عشرة من العمر. وفقدت أمها عندما كانت طفلة. وتلقت التربية على الطراز القديم، أي احاطت بها المامات والمربيات وفتيات التبن، ومارست التطريز بخيوط مذهبة و لم تحسن القراءة والكتابة. و لم يستطع أبوها، بالرغم من نفوره من كل شيء

أجنبـي، معارضة رغبتها في تعلم الرقص الألماني من ضابط سويدي أسير يعيش في بيتهم. وكان أستاذ الرقص الجديد هذا في سن الخمسين، واصيبت ساقـه اليمنى برصاصة في معركة نارفا،ولهذا لم تكن تلائم جـداً أداء رقصـة المنويـت أو الكورانـت، بينما كانـت ساقه اليسرى تؤدي أصعب حركات « با» بفن عجيب وبخفة مدهشة. أما تلميذته فكانت جديـرة بمساعيها. وذاع صيت ناتاليـا غافريلوفنا في المحفل بأنها أحسن راقصة،وكان هذا لحد ما سبب جريرة كورساكوف الذي جـاء في اليوم التالي للإعتذار أمـام غافريل افاناسيفتش. بيد أن شطارة وغنـدرة الشـاب المتأنق لم تحظيا بإعجاب السيـد النبيل المتكبر الذي وصفه ساخراً بأنه قرد فرنسي.

حل يوم العيد. وكان غافرييل افاناسيفتش ينتظر قدوم عدة أقارب وأصدقـاء. ونصبت في الصالة العتيقة مائـدة طويلة. وجاء الضيوف مـع الزوجات والبنـات، اللواتـي تحـررن في نهاية المطـاف من أسر البيـت بأوامر القيصر والإقتداء بـه شخصياً. وقدمت ناتاليا غافريلوفنا إلى كل ضيـف صينية مـن الفضة عليها أقـداح ذهبية صغيرة، وشرب كل واحـد قدحـه، آسفاً، لكـون القبلة المعتادة في أيـام زمان في هذه المناسبة لم تعد من العادات الشائعة. وتوجهوا نحو المائدة. فجلس في المقعـد الأول إلى جانب رب البيت حموه الأمير بوريس اليكسييفتش ليكوف، السيد النبيل البالغ سن السبعين، أما بقية الضيوف فجلسوا، مـع مراعاة مكانة الأسرة الأكبر منزلة وبهـذا تعاد إلى الذاكرة الأزمان السعيدة حين كان يسود نظـام الأولوية في المناصب،فيجلس الرجال من جانب والنساء من الجانب الآخر. وفي نهاية الأمر اتخذت الأماكن المعهـودة النبيلـة إبنة سيد البيتفـي ثوب ريفي قديم الطـراز وقلنسوة «كيتشكا»، ثـم إمرأة قزمة، وهي مخلوق صغير الحجم في الثلاثين من

العمـر، تتكلف الإحتشام والعبوسة، وكذلك الأسير السويدي في بزة زرقـاء رثة. وأحاط عدد كبير من الخـدم بالمائدة التي حفلت بكل ما لـذ وطاب وهم في غدو ورواح، وبرز مـن بينهم كبير الخدم بنظراته الصارمة وبطنه المنتفخة وسكونـه المشوب بالوقار. وكرست الدقائق الأولى في مأدبـة الغـداء إلى الإهتمـام بأصنـاف الطعـام القديمة، و لم يعكر الصمت العام سوى طقطقـة الأطباق والملاعق الكثيرة الحركة. وأخيرا رأى رب البيـت أن الوقت قد حان لتسلية الضيوف بحديث شيـق، فالتفت وسـأل: « أين يكيموفنا؟ إستدعوهـا إلى هنا ». وانطلق عـدة خدم في مختلف الإتجاهات، لكـن في هذه اللحظة دخلت إمرأة عجوز متبرجة بالأصباغ البيض والحمر، وتزينت بالأزهار والشرائط، ووشـاح روبروندا مزخرف، وبدت عارية العنق والصدر، وهي تغني وترقص. وأثار ظهورها الإرتياح الشامل.

وقال الأمير ليكوف:- مرحباً، يكيموفنا، كيف حالك؟

بخير وعافية، يا عراب: أحيا بالغناء والرقص، وانتظر العرسان.

وسأل رب البيت:- أين كنت يا حمقاء؟

كنـت أتزين، ياعـراب، من أجل الضيوف الأعـزاء، ومناجل عيد الـرب، بأمر القيصر، وبأمر السيد النبيل،لكـي أكون أضحوكة للعالم أجمع، على الطريقة الألمانية.

وانطلقـت عند هذا القول عاصفة مـن الضحك، ووقفت الحمقاء في مكانها وراء مائدة رب البيت.

وقالت تاتيانـا افاناسيفنا الشقيقة الكبرى لـرب البيت الذي يكن

لهـا أشد الإحترام:– إن الحمقاء تكـذب، وتكذب، وستكذب، وقد تقول الحق بالصدفة. حقاً إن أزياء هذه الأيام تبعث على الضحك في الدنيـا كلها. وما دمتم أيها السادة قد حلقتـم لحاكم ولبستم القفطان الضيق، فلا مجـال للحديث طبعاً عن خـرق النساء.وعندما أتطلع إلى الحسنـاوات في هذه الأيام يثير لدي الضحـك والأسى: فالشعر مجعد كاللباد، ومدهـون بالزيت، والبطن مشـدودة بشكل بحيث لا يكاد المرء يستطيع الحركة، والملابس التحتانية مشدودة بأطواق: فيجلسن في العربـة جانبياً، وينحنين لدى دخول البـاب. فالنهوض والجلوس والتنفس بحرية هو عذاب فحسب ياحماماتي!

وقال كيريلا بتروفيتش(ت)، الحاكم السابق لريازان، حيث كسب بجهد بالـغ ٣٠٠٠ من الأنفس وزوجة شابـة: أوه، يا عزيزتي تاتيانا افاناسيفنا. بالنسبة لي لا يهمني كيف تريد زوجتي أن تتزين وتتجمل، ودعهـا ترتدي طاقية كوتافيـا أم البولديخان، بشرط الا تطلب في كل شهـر فساتين جديـدة، وترمي السابقـة رغم أنها مـا زالت جديدة. وسابقاً كانت الحفيدة تحصل مـن جدتها على فستان سارافان كبائنة، أمـا الروبروندات فتجدها اليـوم على سيدة وغـداً على فلاحة. فما العمل؟لقد حل خراب النبلاء الروس! إنها مصيبة، ليس إلا.– وعندما أورد هذا القول تطلع إلى زوجته ماريا ايلينيتشنا التي بدا أنه لم يعجبها كيل الثنـاء إلى العادات القديمة، وهجاء العـادات الجديدة. وشاطرتها الحسنـاوات الأخريات عـدم رضاهـا، لكنهن لزمـن الصمت، لأن التواضع كان يعتبر آنذاك من الخصال اللازمة للمرأة الشابة.

وقال غافريلا افاناسيفتش، وهو يتناول رغوة حساء الملفوف:– من المذنب، ألسنا نحـن أنفسنا؟ الفتيات يفقدن عقولهن، ونحن ندفعهم إلى ذلك.

وعارضـه كيريـلا بتروفيتش قائلاً: مـا العمـل، إذا كان هذا فوق إرادتنا. فالمـرء يسـره أن يحبسـ زوجته في البيت، بينمـا يطلبون منها أن تذهـب تحت قرع الطبـول إلى الحفل العام. الـزوج تحت السوط، والزوجـة تحت الأزيـاء. آه من هذه الحفلات ! لقـد عاقبنا الرب على ذنوبنا.

كانت ماريا ايلينتشنا تجلس على أحر من الجمر مثل وخز الإبر. وقد أصابت الحكة لسانها أصلاً، وفي نهاية المطاف لم تطق صبراً فوجهت الخطاب إلى زوجهـا، وسألته وعلى ثغرها ابتسامة صفراء، عما يجده من سوء في الحفلات العامة. وأجاب الزوج مهتاجاً: – لأن حضورها سـيء، فمنذ أن بدأت تدهورت العلاقات بـين الأزواج والزوجات. ونسيـت الزوجات قول الرسول: الزوجة يجـب أن تخاف زوجها. إنهـن يبدين الإهتمـام ليس بشؤون البيت بـل بالأزياء الجديدة، ولا يفكرن في إرضاء أزواجهن، بل في جلب أنظار الضباط – الطائشين. وهل من الحشمة، ياسيدتـي، أن تتواجد السيدة أو الفتاة الروسية مع المدخنـين الألمـان ومع عاملاتهم؟ هل سمعتم في يـوم من الايام كيف انهـن يراقصن ويحادثن الرجال الشباب حتـى حلول ظلام الليل؟ قد يجـوز ذلك مـع الأهل والأقارب، لكن لا يجوز مـع الغرباء، من غير المعارف.

وقال غافريلا افاناسيفتش وقد قطب وجهه عابساً: – كنت أود قول كلمة، لكـن الذئب يربض قريباً. واعترف بـأن الحفلات لا تعجبني: فقـد يحـدث أن تلتقي مخمورا، أو ان ترغـم نفسك على شرب الخمر وتكون أضحوكـة أمام الناس. وقد يحدث أن يقوم أحد ما بالتحرش بإبنتـك، أما شباب اليوم فقد أفـرط في التدلل والتدلع بشكل لا مثيل له. فمثـلاً إن إبن المرحوم يفغراف سيرغيفتشـ كورساكوف أثار في

الحفـل الأخير ضجة كبـيرة مع ناتاشا، مما جعلنـي أخجل من نفسي. وفي اليوم التالي رأيت أحدهم قادماً إلي في باحة البيت، وفكرت فيمن أرسله لي الرب، هـل هو الأمير الكسندر دانيلوفيتش. لكن ما خطبه: لم يستطـع ايفان يفغرافوفتش التوقف عند البوابـة والسير ماشياً حتى المدخـل - كلا! بـل اندفع ! وانحنـى محييا! واطلق للسانـه العنان!.. وصارت الحمقاء يكيموفنا تقلده بشكل مضحك. بالمناسبة تصوروا، الحمقاء، كقرد أجنبي من أعالي البحار.

وقـال الأمير العجوز ليكوف وهـو يكفكف دموعه من الضحك وحـين ران الهدوء شيئاً فشيئاً: هكذا بالضبط والتمام. والحق يقال أنه ليس أول وآخر شخص عاد بهلولاً من بلاد الغربة إلى روسيا المقدسة. ومـاذا يتعلم أبناؤنـا هناك؟ الثرثرة، واللغو بـكلام غريب ما أنزل الله به من سلطان، وعدم احـترام الأكبر سناً وملاحقة زوجات الآخرين. ويبدو عربي القيصر شبيهاً بالبشر لحد ما، من بين جميع الشباب الذين تعلموا في الخارج(وليغفر لي الرب).

فلاحظ غافريـلا افاناسيفتشـ: طبعاً هو رجل رصـين ومستقيم، وليسـ مثل الفتيان الطائشين.. ياترى مـن ذا دخل الباحة من البوابة؟ هـل أنه القـرد الأجنبـي مرة أخـرى. مالكـم تتثائبـون، يابهائم؟ — وتابع مخاطبـا الخدم:— أسرعوا، وامنعوه من الدخـول، بغية ألا يتجرأ مستقبلا..

وقاطعتـه الحمقاء يكيموفنا: أيها العجـوز الملتحي، هل تهذر؟ هل أصابك العمى: إنها زحافة القيصر، لقد جاء القيصر.

نهض غافريـلا افاناشيفتش مسرعاً من وراء المائدة، واندفع الجميع نحو النوافذ، فرأوا فعلا القيصر لذي اعتلى المدخل مستندا على كتف

ياوره. وعمت الجلبة في المكان. وهرع صاحب البيت للقاء بطرس. أما الخدم فتراكضوا وقد أصابهم التبلد، وطفحت قلوب الضيوف بالجبن،وصار بعضهم حتى يفكر بالهرب إلى بيوتهم بسرعة. وفجأة سمع صوت بطرس الجهوري عند غرفة المدخل. فران الصمت على الجميع. ودخل بطرس بصحبة رب البيت المرتبك والمبتهج. وقال بطرس وبدا المرح على محياه:« مرحبا أيها السادة «. وطأطأ الجميع رؤوسهم احتراما له. وراحت نظرات القيصر السريعة تبحث عن إبنة صاحب البيت، ودعاها إليه. فدنت منه ناتاليا غافريلوفنا بجرأة بالغة، لكنها اصطبغت بحمرة الخجل ليس حتى اذنيها، بل وحتى كتفيها. وقال لها القيصر «إنك تزدادين حسناً» وقبلها في رأسها كعادته ، ثم توجه إلى الضيوف قائلاً:« ماذا؟ هل عكرت عليكم جلستكم. لقد كنتم تتناولون الغداء، وأرجوكم أن تجلسوا مرة أخرى، وأنت ياغافريلا افاناسيفتش هات لي فودكا اليانسون».واندفع صاحب البيت إلى كبير الخدم العملاق واخذ من يده الصينية وملأ القدح الذهبي وقدمه إلى القيصر بانحناءة من رأسه. وبعد أن احتسى القيصر الفودكا وتناول البقصم المبروم دعا الضيوف مجددا للجلوس ومواصلة الغداء. فشغل الجميع أماكنهم السابقة باستثناء القزمة والسيدة شقيقة رب البيت حيث لم تتجاسرا على البقاء وراء المائدة بحضور القيصر. وجلس بطرس إلى جانب رب البيت وطلب لنفسه حساء الملفوف. وقدم ياور القيصر إليه ملعقة خشبية مؤطرة بالعاج وسكينا وشوكة بمقبض من العاج الأخضر، لأن بطرس لم يكن يتناول الطعام أبداً بغير أدواته للمائدة. واستمر الغداء وقد ران على المكان الصمت والتكلف بعد أن كان قبل دقيقة من ذلك يتسم بالمرح الحيوي ولغط الأحاديث. ولم يتناول رب البيت شيئاً من الطعام بعد أن غمره الوقار والبهجة، وحذا الضيوف حذوه واصغوا بوقار إلى حديث القيصر بالألمانية مع

الأسـير السويدي حول حملة عام ١٧٠١. أما الحمقاء يكيموفنا فأنها أجابت عدة مـرات عن أسئلة القيصر ببرود مشوب بالرهبة (أشير إلى هذا بالمناسبة) مما لا يدل على أن تغابيها كان طبيعياً. وفي نهاية المطاف انتهـى الغداء. ونهض القيصر ومعه نهض جميع الضيوف. فقال لرب البيت: «غافريـلا افاناسيفتش! يجب أن أتحـدث معك على انفراد»، واقتـاده مـن ذراعـه إلى غرفـة الضيافة وأغلـق ورائه البـاب. وبقي الضيـوف في غرفة الطعام، وبدأ الهمس حـول هذه الزيارة المفاجئة، وبغيـة ألا يكونوا ثقلاء سرعان ما انصرفوا الواحد تلو الآخر، من دون تقـديم الشكر إلى رب البيت على كرم الضيافة. وودعهم حموه وابنته وشقيقتـه بهدوء حتى العتبة. وبقوا لوحدهم في غرفة الطعام، بإنتظار خروج القيصر.

الباب الخامس

سأجد لك زوجة

وإلا فانا لست بطحان.

(ابليسيموف، في اوبرا «الطحان»)

بعــد مــرور نصف ساعــة فتح البــاب وخــرج بطرس. ورد على انحناءة الأمير ليكــوف وتاتيانا افاناسيفنا وناتاشــا الثلاثية بانحناءة من رأســه وتوجه نحو المخرج مباشرة. وقــدم رب البيت إليه معطف الفرو القرمــزي، وودعه حتى الزحافة وعنــد المدخل شكره مرة أخرى على شرف زيارته له. وانصرف بطرس.

عندمــا عاد غافريلا افاناسيفتش إلى غرفــة الطعام بدا مهموماً جداً. وأمر الخدم بغضب بإزالة الصحون من المائدة بسرعة، وأرسل ناتاشا إلى مخدعهــا، وأبلغ شقيقته وحموه بأنه يريد محادثتهما، واقتادهما إلى غرفة نومه حيث كان يستجم عــادة بعد الغداء. فاستلقى الأمير العجوز على السريــر المصنوع من خشب البلوط، أما تاتيانــا افاناسيفنا فقد جلست علــى مقاعد قديمة مكسيــة بالقماش المزخــرف ووضعت تحت قدميها طاولة صغيرة. وأغلق غافريلا افاناسيفتش جميع الأبواب، وجلس على السرير عند قدمي الأمير ليكوف وبدأ الحديث التالي بصوت خافت:

– لم تكن زيارة القيصر إلي بلا سبب،إحزرا عم تحدث معي؟

فقالت تاتيانا افاناسيفنا:– من أين لنا ان نعرف يا أخي العزيز.

وقال الحمو:– هل أمرك القيصر بإدارة أحد الأقاليم؟ لقد حان الوقت لذلك. أم أنه عرض عليك القيام بمهمة مبعوث؟ و لم لا؟ فلا يعث إلى الدول الأخرى الموظفون فقط بل سراة القوم أيضاً.

فأجاب النسيب عابسا:– كلا. أنا رجل من الطراز القديم، والآن لا يحتاجون الينا في خدمة الدولة، ولو أن النبيل الروسي الأرثوذكسي ربما أكثر قيمة من حديثي النعمة وصانعي الفطائر والغرباء.

وقالت تاتيانا افاناسيفنا:– فما القضية ياأخي، فقد تحدث معك فترة طويلة؟ هل حلت بك مصيبة ما؟ هبنا الخلاص والرحمة يارب.

– إنها مصيبة وليست مصيبة، واعترف بأنني كان يجب أن افكر فيها.

– ماذا جرى يا أخي؟ ما القضية؟

– القضية تخص ناتاشا: لقد جاء القيصر خاطباً لها.

– فقالت تاتيانا افاناسيفنا وهي ترسم علامة الصليب: الحمد لله. الفتاة بلغت سن الزواج، والخطيب مثل الخاطب. ليمنحها الرب المحبة وسداد الرأي، وكذلك الكثير من العزة والسمعة الطيبة.لكن لمن يخطبها القيصر؟

هممم،– تمتم غافريلا افاناسيفتش – هنا المسألة، لمن؟

وكرر الأمير ليكوف، الذي بدأ يستسلم الى الغفوة: لمن؟

وقال غافريلا افاناسيفتش:– إحزرا لمن؟

فـردت العجوز قائلة:– أخـي العزيز، من أين لنا أن نحزر؟ ما أكثر العرسـان في البلاط: وسيكون كل واحد سعيـداً بأخذ ابنتك ناتاشا. هل هو دولغوروكي؟

– لا، ليس دولغولاوكي.

– الرب معه، فهو جبان.. هل هو شيين، ترويكوروف؟

– كلا، لا هذا ولا ذاك.

– حقا إنهم لا يعجبوني، فهم متحذلقون وطائشون، وتأثروا كثيرا بالعادات الألمانية. ربما هو ميلوسلافسكي؟

– لا، غيره.

– حسنـا الرب معه: ثري وغبي. من إذن؟ يليتسكي؟ لفوف؟ لا؟ هل هو راغوزينسكي؟ إنها ارادتك: أنا لا أفهم. فلمن يخطب القيصر ناتاشا؟

– للعربي إبراهيم.

أطلقـت العجوز آهة وطوت ذراعيهـا. ورفع الأمير ليكوف رأسه من المخدة وكرر قائلاً بعجب:« للعربي إبراهيم «.

وقالـت العجوز بصوت طافح بالنحيب:– يا أخي العزيز، لا تلقي بطفلتـك الحبيبة إلى الهـلاك، لا تسلم ناتاشينـكا الى مخالب الشيطان الأسود.

وعارضـ غافريلا افاناسيفتش قائلاً:–لكن مـا العمل، هل أرفض طلب القيصـر الذي وعد بأن يبسط علينـا حمايته، علي وعلى جميع أهلنا؟

وهتف الأمير العجوز الذي فارقه النوم تماماً: كيف، تزوج ناتاشا، حفيدتي، إلى عربي تم شراؤه.

فقال غافريلا افاناسيفتش:- إنه ليس من عامة الناس فهو إبن سلطان عربي. وقد أسره الغرباء وباعوه في تسارغراد، فاشتراه مبعوثنا وأهداه الى القيصر. وقد جاء شقيقه الاكبر إلى روسيا ومعه فدية كبيرة و..

وقاطعته العجوز قائلة: باتيوشكا، غافريلا افاناسيفتش، نحن سمعنا حكاية الأمير بوفا و يروسلان لازاريفتش. الأفضل أن تقول لنا ماذا كان جوابك على طلب الزواج الذي تقدم به القيصر.

قلت له إن السلطة بيده، ومن واجبنا كرعايا أن نطيعه في كل شيء.

في هذه اللحظة سمعت ضجة وراء الباب. فذهب غافريلا افاناسيفتش لفتحها لكنه حين وجد مقاومة له دفعها بقوة وفتح الباب فرأى ناتاشا راقدة فاقدة الوعي على الأرض المخضبة بالدم.

لقد توقف وجيف قلبها حين اختلى القيصر مع أبيها وراء الباب. وهمس هاجس ما في دخيلة نفسها بأن المسألة تتعلق بها، وحين طلب منها غافريلا افاناسفتش الإنصراف معلناً أنه يود التحدث إلى عمتها وجدها، لم تستطع مقاومة دافع الفضول النسائي، فتسللت بهدوء عبر الحجرات الداخلية وبلغت باب غرفة نوم أبيها، و لم تفوت كلمة واحدة من المحادثة الفظيعة. وحين سمعت كلمات والدها الأخيرة أغمي على الفتاة المسكينة، وسقطت واصطدم رأسها بطرف الصندوق الحديدي الذي حفظت فيه بائنتها.

هـرع الجميـع إلى المـكان وحملـوا ناتاشـا ونقلوهـا إلى مخدعها وأرقدوهـا على الفراش. وبعد فترة وجيـزة عاد اليها وعيها، وفتحت عينيها، لكنها لم تتعرف علـى الأب ولا على العمة. وأخذت ترتجف من حمى شديـدة، وذكرت في هذيانها إسم عربـي القيصر والزفاف - وفجأة صرخت بصوت حزين وحاد:« فاليريان، عزيزي فاليريان، حياتي! أنقذني: ها هم، ها هم !...» تطلعت تاتيانا افاناسيفنا بقلق إلى أخيهـا الذي اصفرت سحنته، وعض علـى نواجذه وخرج من غرفة النوم صامتـاً. وعاد إلى الأمير العجوز الذي لم يستطع صعود السلم، ووقف في الاسفل.

فسأل:- كيف حال ناتاشا؟

وأجاب الأب الذي أصابه الغم: سيء، وأسوأ مما كنت أعتقد: إنها تهذي داعية فاليريان.

وسأل الشيخ بقلـق: ومن فاليريان هذا؟ هل إنه اليتيم، إبن جندي الرماة، الذي رعيته وشب في بيتك؟

فأجـاب غافريلا افاناسيفتش:- هو بالـذات؟ ما قدرت أن يكون مـن يفجـر علي الدواهـي، إن والـده أنقـذ حياتي في زمـن التمرد، ووسوس لي الشيطـان أن أمنح المأوى لهـذا الدغفل اللعين في بيتي. ومنـذ عامين عندمـا ألحق بناء على طلبه في الكتيبـة بكت ناتاشا بينما وقف بلا حراك كالحجر. وبدا لي ذلـك أمراً مريباً، وحدثت شقيقتي بالأمـر. لكن ناتاشـا لم تذكر شيئاً عنه حتـى الآن، كما لم يرد منه أي خبر. وظننت بأنهـا نسيته. لكن يبدو أن الأمر ليس كذلك. لقد تقرر الأمر، ستتزوج العربي.

ولم يعارضه الأمير ليكوف، فلم تكن ثمة فائدة من ذلك. وانصرف إلى بيته. بينما بقيت تاتيانا افاناسيفنا ولازمت فراش ناتاشا. أما غافريلا افاناسيفتش فقد أرسل في طلب الطبيب، وأغلق على نفسه باب غرفته، وعم البيت الهدوء والكآبة.

أثار موضوع الخطبة المفاجأة دهشة إبراهيم ، وعلى أقل تقدير، مثل دهشة غافريلا افاناسيفتش. وإليكم ماحدث: فقال بطرس لإبراهيم حين كان يمارس أعماله الرسمية معه:

– أرى، يا صاحبي، أنك مكروب النفس، قل بصراحة ماذا ينقصك؟

فأكد إبراهيم للقيصر بأنه راض عن حياته ولا يتمنى أفضل منها.

فقال القيصر: حسناً، إذا كنت مكروباً بلا سبب، فأنا أعرف كيف أسليك.

في نهاية العمل وجه بطرس السؤال إلى إبراهيم:

– هل تعجبك الفتاة التي راقصتها في الحفل السابق؟

– إنها يا سيدي مليحة جداً كما أعتقد بأنها فتاة متواضعة وطيبة.

– إذن سأعرفك عليها عن قرب. هل تريد الزواج منها؟

– أنا يا سيدي...

– إسمع يا إبراهيم، أنت إنسان وحيد، بدون أهل وعشيرة، وغريب بالنسبة إلى الجميع فيما عداي. واذا مت اليوم فماذا سيحدث

لـك غداً، ياعربيي المسكين. يجب أن تستقر ما دام هناك وقت، وأن تجد سنداً في العلاقات الجديدة، وأن تتحالف مع النبلاء الروس.

– سيـدي، أنا سعيد بوجود حماية وعطف جلالتكم. وأنا لا أتمنى سوى ألا أعيش اكثر من قيصري وولي نعمتي. وإذا ما قررت الزواج فهل ستوافق الفتاة الشابة وأقاربها على ذلك؟ فمظهري...

– مظهـرك ! أي سخـف ! مـاذا يعـوزك كرجـل قـوي البنيان. والفتاة يجب أن تطيع والديهـا، وسنرى ماذا سيقول العجوز غافريلا رجيفسكي، حين سأكون أنا خاطبك في الزواج. وعندما قال القيصر ذلك أمر بتهيئة الزحافة وترك إبراهيم غارقاً في تأملاته العميقة.

فكـر الإفريقي في دخيلة نفسه: أنا اتـزوج ! و لم لا؟ هل حكمت علي الأقدار بأن أعيش حياتي في عزلة منفرداً وألا أتعرف على أفضل الملـذات والواجبات المقدسة للإنسـان فقط لأنني ولدت تحت درجة الحـرارة الخامسة عشرة؟ولا يجوز لي أن آمـل في أن أجد من يحبني: هذا تعبير طفولي ! وهل يمكن الوثوق بالحب؟ وهل يمكن ان يوجد في قلب المرأة الطائش؟ إنني حين تخليت إلى الأبد عن الضلالات الحلوة، إخترت مغريات أخرى أكثر أهمية وقيمة. إن القيصر على حق: يجب أن أضمن مستقبلي. إن الزواج من الفتاة رجيفسكايا سيربطني بالنبلاء الروس ذوي الكبرياء ، ولن أبقى غريباً دخيلاً في وطني الجديد. إنني لن اطلب من زوجتي الحب بل سأكتفي بإخلاصها، وسأكسب ودها باللطف وبالثقة وبالتسامح».

أراد إبراهيم كعادته أن يمارس العمل، لكن خياله كان شارداً جداً. فـترك الأوراق وخرج للتجول على ضفة نهر نيفا. وبغتة سمع صوت بطرس، فإلتفت ورأى القيصر الذي صـرف الزحافة وتوجه إليه وقد

أشرق وجهه بالمرح. وقــال بطرس وقد تأبط ذراعه:« خلاص، إنتهى الأمــر ياصاحبي. لقد خطبت لــك الفتاة. وغداً إذهــب إلى حموك. ولكــن كن حذرا، أرضــ كبريائه كنبيل، واترك الزحافـة عند البوابة، واعبر الباحة مشياً على الأقدام، وحدثه عن خدماته وعن كرم ارومته، وسيكون معجباً بك للغاية. وتابع القيصر قائلاً وهو يلوح بعصاه – أما الآن فخــذني إلى النصــاب دانيلتش الذي يجــب أن أحاسبه عن أفعاله الشيطانية الجديدة ».

أعــرب غبراهيم عن شكره البالــغ إلى بطرس علــى رعايته الأبوية ورافقه الى قصر الأمير مينشيكوف الفخم،ثم قفل راجعاً إلى بيته.

الباب السادس

كان الســراج يومض بوهــن أمام الخزانة الزجاجيــة التي تتألق فيها اطــارات الايقونات الذهبية والفضية الموروثة عن السلف. بينما أضاء نــوره المهتــز الباهت السرير المغطــى بالستائر والطاولــة التي وضعت عليها قارورات صغيرة فيها رقع. وجلست بالقرب من الموقد الخادمة منهمكــة في إدارة آلــة الغــزل، ولم يعكــر الهدوء في المخــدع سوى هسيسها الخفيف.

ونبر صوت ضعيف:- من هنا؟ - فنهضت الخادمة فوراً، ودنت مــن السرير ورفعــت الستار بهوده.- وسألــت ناتاليا:- هل سيحل الفجر قريبا؟

وأجابت الخادم: الآن الظهر.

-آه، ياآلهي، فلماذا تسود العتمة اذن؟

- النوافذ مغلقة، ياسيدتي.

- هيا عجلي في تقديم ملابسي لارتدائها.

- لايجوز، ياسيدتي، فالطبيب لم يأمر بذلك.

- وهل أنا مريضة؟ وكم من الوقت؟

- منذ حوالي أسبوعين؟

- حقا؟ لقد ترائى لي أنني لزمت الفراش بالأمس فقط...

صمتــت ناتاشا. وحاولت إستجماع افكارهــا المشتتة. لقد وقع لها حــادث ما، ولكن ما هــو؟ لم تستطع أن تتذكــر. بقيت الخادمة واقفــة أمامها بانتظار صدور أوامــر. وفي هذه اللحظة تردد ضجيج أصم.

وسألت المريضة: ماهذا؟

فأجابت الخادمة: لقد تنــاول السادة طعامهم. إنهم ينهضون من المائدة. والآن ستأتي تاتيانا افاناسفنا.

وبــدا أن ناتاشا قــد ابتهجت. ولوحت بيدهــا بضعف. وأزالت الخادمة الستار، وجلست مرة اخرى إلى آلة الغزل.

وبعد مضي عدة دقائق إنبجس رأس في طاقية بيضاء عريضة ذات شرائط معتمة، واستفسر بصوت خافت:

– كيف حال ناتاشا؟

قالت المريضة بصوت خافت:مرحباً، ياعمتي.

فهرعــت تاتيانا افاناسيفنــا إليها بسرعة. وقالــت الخادمة:– لقد ثابت السيدة إلى رشدها،– وأزاحت المقعد بحذر.

غمرت العجوز بالقبل الوجه الشاحب والواهن لإبنة أخيها،وهي تكفكــف الدموع، ثم جلست إلى جانبها. وجاء في أعقابها الطبيب الألمــاني، بقفطان أســود وفي باروكــة العا لم، وتحسس نبضــ ناتاشا وأعلــن باللغة اللاتينية، ومن ثم بالروسية، إن الخطر قد زال. وطلب ورقاً وحبراً، وكتب وصفة طبية جديدة ثم انصرف. أما العجوز فقد

نهضت وقبلت ناتاليا مرة أخرى، ونزلت إلى تحت بسرعة لتزف النبأ الطيب إلى غافريلا افاناسيفتش.

كان عربـي القيصر يجلس في غرفة الضيافة مرتدياً البزة العسكرية ويتـدلى السيفجانبـا، وبيـده القبعـة، وانهمـك في محادثـة غافريـلا افاناسيفتش بوقار. أما كورساكوف الذي استلقى على الديوان الوثير، فإنـه كان يصغي إليهما بذهن شـارد ويداعب كلب الصيد المدلل عن جـدارة. وعندما ضجر من ذلك دنا من المـرآة، وهي ملاذه عادة في أوقـات التبطل والكسل، فـرأى فيها تاتيانا افاناسيفنـا التي تومئ الى أخيها باشارات غير ملحوظة.

فقال كورساكوف مخاطبـاً رب البيت ومقاطعاً حديث إبراهيم:- إنهم يدعوك ياغافريلا افاناسيفتش. وتوجه هذا فوراً إلى شقيقته وأغلق ورائه الباب.

وقـال كورساكوف لإبراهيم: - أنا اعجـب لصبرك. فانت كنت تصغـي طوال ساعة كاملة إلى السخافـات حول قدم سلالتي ليكوف ورجيفكسـي زد على ذلك كنت تضيف إليهـا مواعظك الأخلاقية. لو كنـت مكانـك *j'aurais plante' la*[٢٤] الكـذاب العجوز وكل سلالته، ومنهـم ناتاليا غافريلوفنا نفسها، التـي تتغنج، وتتظاهر بأنها مريضـة، *une petite sante*[٢٥].. قـل لي بصدق، هل أنك تحب حقاً هذه المغناج المدللـة الصغيرة. إسمع ، يا إبراهيم، إستمع إلى نصيحتي ولـو آخر مرة: فأنا حقـاً أكثر نباهة وفطنة مما تظـن. د ع هذه الفكرة السخيفة. لا تتزوج. وأعتقد أن خطيبتك لا تكن لك أي مودة تذكر.

---

٢٤. لبصقتعلى (بالفرنسية) - المترجم

٢٥. ضعيفة (الفرنسية)- المترجم

وكل شـيء يمكـن أن يحصل في هذه الدنيـا. فمثلاً: أنـا طبعاً وسيم الطلعة، لكن حدث لي أن خدعت الأزواج الذين هم ليسوا أسوأ مني، بحـق الرب. وأنت نفسك تذكر صديقناً الباريسي الكونت (د)، ولا يجـوز وضـع الأمل في إخلاص المـرأة، وسعيد من ينظـر إلى هذا بلا مبـالاة! لكن انـت!.. بطبعك المتفجر والمتأمـل والمتشكك، وبأنفك الأفطس، وبشعرك المجعد ترمي نفسك في كل مخاطر الزواج؟

وقاطعـه إبراهيم بـبرود: شكراً على نصيحتـك الودية. لكن المثل يقول لا تشغل نفسك بتربية أطفال الغير...

وأجاب كورساكوف ضاحـكاً: – إحذر يا ابراهيم ألا تضطر إلى إثبات هذا المثل الدارج عملياً، وبكل معنى الكلمة.

لكن الحديث احتدم في الغرفة الأخرى.

وقالت العجوز: إنك تقودها إلى التهلكة فهي لن تحتمل منظره.

وعارضهـا شقيقها بعناد: لا تصدري الأحـكام بنفسك. إنه يتردد إلى هنا كخطيب طـوال أسبوعين و لم ير خطيبته حتى الآن. وقد يظن في نهاية الأمـر أن مرضها بدعة فارغة، وأننا نبحث فقط عن جرجرة الوقت، بغية التخلص منه بشكل ما. وماذا سيقول القيصر؟ فقد أرسل ثـلاث مرات مستفسراً عن صحة ناتاليا. إفعلي كما تريدين – لكنني لا أعتزم مخاصمته.

وقالت تاتيانـا افاناسيفنا: يا آلهي، ماذا سيحدث للمسكينة؟دعني على أقل تقديـر أعدها لمثل هذه الزيارة. – فوافق غافريلا افاناسيفتش وعاد إلى غرفة الضيافة.

وخاطب إبراهيم قائـلاً:- الحمد لله، لقد زال الخطر. حالة ناتاليا الصحيـة أفضل بكثـير. كنت سآخذك إلى الأعلـى لمشاهدة خطيبتك لـولا أنني لا أجد مناسبـاً أن أترك الضيف العزيز ايفـان يفغرافوفيتش لوحده هنا.

وهنأ كورساكوف غافريلا افاناسيفتش، ورجاه ألا يقلق، وأكد أنه ينبغي عليه الإنصراف، وتوجه نحو غرفة المدخل دون أن يسمح لرب البيت بمرافقته.

في الوقـت نفسه عاجلت تاتيانا افاناسيفنا إلى تهيئة المريضة لظهور الضيف الرهيب. فدخلت المخدع وجلست بالقرب من السرير، وهي تلهـث، وأمسكت بيد ناتاشـا، لكن الباب فتح قبل أن تفلح في النطق بكلمة و احـدة. فسألت ناتاشا: من القـادم.- لكن العجوز صعقت ذعـراً وانعقد لسانها. فقـد أزاح غافريلا افاناسيفتشـ الستار، ونظر ببرود إلى المريضة وسـأل كيف حالها؟ وأرادت المريضة أن تبتسم له، لكنهـا لم تستطع ذلك. فقد صعقتها النظـرة العابسة لأبيها، وتملكها القلـق. وفي الوقت نفسه ترائى أن احد مـا يقف عند رأسها. فرفعت رأسها بجهد وبغتـة تعرفت على عربي القيصر. ولحظتئذٍ تذكرت كل شيء، وانبجس أمامها كل هول المستقبل. لكن طبيعة جسدها الواهن لم يطرأ عليها أي تأثير ملحوظ. وانزلت ناتاشا رأسها على المخدة مرة أخـرى وأغمضت عينيها..وطفق قلبها يدق بوجـع. وأشارت تاتيانا افاناسيفنـا إلى أخيها بايماءة إلى أن المريضة تريـد النوم، فخرج الجميع من المخدع بإستثناء الخادمة، التي جلست مرة أخرى الى آلة الغزل.

فتحت الحسناء التعيسة عينيها فلم تر أحداً عند سريرها، فاستدعت الخادمـة، وأرسلتهـا في طلب القزمة. لكن دنت مـن فراشها في تلك

اللحظة المخلوقة الصغية المدورة كالكرة. وكانت لاستوتشكا (وهو إسم القزمة) قد تبعت على السلا لم خفية بساقيها القصيرتين غافريلا افاناسيفتش وإبراهيم واختبأت وراء الباب، دون أن تتخلى عن الفضول المميز للجنس اللطيف. وعندما رأتها ناتاشا صرفت الخادمة بينما جلست القزمة على المصطبة بالقرب من الفراش.

لم يحدث من قبل أبداً أن انطوى هذا الجسد الصغير على هذا القدر من النشاط الروحي. فقد استوعبت في دخيلة نفسها كل شيء، وعرفت كل شيء، واهتمت بكل شيء. واستطاعت بعقلها المتسم بالحيلة والإستمالة لكسب محبة جميع سادة البيت وكره البيت كله، الذي كانت تتحكم به بالتسلط الفردي. وكان غافريلا افاناسيفتش يصغي إلى وشاياتها وشكاويها وطلباتها الصغيرة، أما تاتيانا افاناسيفنافكانت تراعي أرائها وتسترشد بنصائحها، بينما كانت ناتاشا تتعلق بها بلا حدود وتأتمنها على أفكارها وجميع حركات القلب ذي الستة عشر ربيعاً.

وقالت لها: هل تعلمين يالاستوشكا ، أن باتيوشكا[٢٦] يريد أن يزوجني العربي.

تنهدت القزمة تنهدة عميقة، وتغضن وجهها المتغضن بقدر أكبر.

ومضت ناتاشا تقول: ألا يوجد أمل، وألا يشفق أبي علي؟

وهزت القزمة قلنسوتها.

وهل لن يدافع عني جدي وعمتي؟

---

٢٦. ابي بلهجة التحبب (المترجم).

كلا ياسيدتـي. لقـد أفلح العربي خلال فـترة مرضك كلها بخلب ألبــاب الجميع. والسيد معجب به غاية الإعجاب. والأمير مولع به ولا يتحـدث إلا عنه، أما تاتيانــا افاناسيفنا فتقول: ياللأسف لكونه عربياً، فنحن لن نجد خطيباً أفضل منه.

تأوهت ناتاشا المسكينة قائلة: الهي، الهي!

فقالــت القزمة وهــي تقبل يدها الصغيرة: لا تحـزني ياحسنائنا. إذا مــا تزوجت من العربــي بالرغم من كل شيء، فإنــك ستكونين حرة. الأمـور الآن ليسـت كما كانت في أيام زمان، فـالازواجِ لا يحبسون زوجاتهم، ويقــال أن العربي ثري، وسيكون بيتك عامراً، وستعيشين حياة مرفهة...

وقالت ناتاشا: مسكين فاليريان – قالت ذلك بصوت خافت بحيث ما كان بوسع القزمة سوى التكهن بهذه العبارة، وليس سماعها.

وأردفت بصوت خفيض مشـوب بالغموض: هنا تكمن القضية، ياسيدتـي.. يجب أن لا تفكري كثـيراً باليتيم إبن رامــي المشاة، وألا تذكــري إسمــه في الهذيان لدى إصابتــك بالحمى، بغيــة ألا يغضب باتيوشكا.

وقالــت ناتاشــا بذعر: مــاذا؟ هل هذيــت بإسم فالريــان، وسمعه باتيوشكا، وباتيوشكا غاضب!

وأجابــت القزمة: تلــك هي المصيبة. والآن إذا مــا طلبت منه عدم تزويجــك بالعربي فسيعتقــد أن السبب هو فالريان. ليس باليد حيلة: أطيعي إرادة والدك، وليكن ما يكن.

لم تعترضـ ناتاشا على ذلك بأي كلمة. وأثرت فيها بقوة فكرة أن سر قلبها قد انكشف أمام والدها. وبقي لديها أمل وحيد هو أن تموت قبل أن يتحقق الزواج البغيض. وقد بعثت هذه الفكرة الطمأنينة في نفسها. وانصاعت الروح الضعيفة والحزينة إلى قدرها.

الباب السابع

كان يوجـد في بيت غافريلا افاناسيفتش من جهة اليمين مبنى صغير فيـه نافذة واحـدة. وكان يوجد فيه سريـر بسيط مغطـى ببطانية قطنية، وأمـام السرير طاولة من خشب الشوحفوقه شمعة زيتية مشتعلة ونوتات مفتوحـة. وعلقت على الجدار سـترة زرقاء عتيقة وقبعـة ثلاثية الأركان عتيقـة مثلها، وفوقها ثبتـت بثلاثة مسامير صـورة رخيصة لكارل الثاني عشر فـوق صهـوة جواده. وكانـت أصـوات الفلوت تصـدح في هذا المسكن المتواضع. وكان مدرس الرقص الأسير، الساكن المنعزل الوحيد فيه، الذي يعتمر طاقية ويلبس رداء النوم، يدفع عنه ضجر الأمسية الشتوية بعـزف الألحان العسكريـة السويدية، التي تذكره بالأيـام المرحة لشبابه. وبعد أن أمضى السويدي ساعتين في العزف، فكك الفلوت، ووضعه في الصندوق وأخذ يخلع ملابسه.

في هـذه اللحظة رفعت سقاطة بابه ودخل الغرفة شاب طويل القامة يرتدي الزي العسكري.

ونهض السويدي مندهشاً قبالة الضيف غير المتوقع.

وقال الزائر الشـاب بصوت مفعم بالتأثر: أنت لم تعرفني ياغوستاف اداميتشـ. ألا تذكر الصبي الذي علمته الألعاب النارية السويدية وكدت أن تشعل الحريق في هذه الغرفة بإطلاق النار من مدفع الأطفال.

أمعـن غوستاف اداميشـ النظر فيه، ثم هتـف في نهاية المطاف وهو يحتضنه:- اي..ي..يـه، رايع، حقا أنت هنا. إجلسي، يارفيقتي الطيبة، ولنتحدث.



ليال مصرية

الباب الاول

– هذ الرجل؟

– اوه، انه ذو موهبة كبيرة، فهو يفعل بصوته كل ما يريده.

– يجدر به، أيتها السيدة، أن يصنع منه السراويل لنفسه.
(بالفرنسية)

تشارسكي أحد أبناء بطرسبورغ الأصليين. و لم يبلغ سن الثلاثين بعد، و لم يكن متزوجاً، و لم تشكل الوظيفة عبئاً عليه. وقد أورثه ضيعة طيبة المرحوم عمه، نائب المحافظ السابق في زمن الخير. وكان يمكن أن تغدو حياته بهيجة، لكنه لسوء حظه مارس نظم ونشر الشعر. ووصف في المجلات «بالشاعر»، وفي غرف الخدم «بالمؤلف».

وبالرغم من الأفضليات العظيمة التي يتمتع بها ناظمو الأشعار(واعترف:أننا بإستثناء التمتع بالحق في وضع المضاف بدلاً من المضاف إليه وغير ذلك مما يسمى بعدم التقيد بالقواعد الشعرية، لا نجد أية ميزات خاصة للقصائد الروسية)– على أي حال بالرغم من كل أفضليات هؤلاء الأفراد فإنهم يتعرضون لشتى الأرزاء والمحن. ولعل الشر الأكثر مرارة ولا يطاق بالنسبة إلى ناظم الشعر هو تسميته

وكنيته التي يوسم بها ولا تفارقه أبدا. وإذا ما عاد من القرية يسأله أول من يقابله: هل جلبت لنا شيئاً جديداً؟ وإذا ما تأمل في أموره الخائبة، وفي مرض شخص عزيز لديه، تلقاه فورا الإبتسامة المبتذلة ويرافقها الإستفسار المبتذل: حقاً، هل تنظم شيئاً ما ! وإذا ما أحب؟ – إن الحسناء تشتري فوراً ألبوما في المتجر الإنجليزي وتنتظر منه أنشودة رثاء. ويأتي إليه شخص، لا يعرفه تقريباً، للتحدث إليه عن أمر هام، فيدس له فورا إبنه ويرغمه على تلاوة أشعار ما له، أما الصبي فيقدم إلى الشاعر إشعاره الشوهاء. هذه هي حلاوة المهنة ! فكيف يجب أن تكون منغصاتها؟ واعترف تشارسكي بأن التحيات والإستفسارات والألبومات والصبيان قد اضجروه، لدرجة أنه مضطر في كل لحظة لمنع نفسه من قول كلام غليظ ما لهم.

إستخدم تشارسكي كل السبل الممكنة لكي يلقي عن كاهله النعت الثقيل الوطأة. فقد ابتعد عن صحبة إخوانه الأدباء وفضل عليهم الأفراد من سراة القوم وحتى أكثرهم خواء. وكان حديثه مبتذلاً وأحياناً لا علاقة له بالأدب. وفي ملبسه إلتزم دوماً بآخر موضة تميز تهيب وايمان الموسكوفي الشاب بالخرافات، والذي جاء إلى بطرسبورغ لأول مرة في حياته. وفي مكتبه، المرتب بهيئة مخدع سيدة، لا يوجد ما يشير إلى حضور كاتب. فلا توجد كتب مرمية على الطاولات وتحتها، والأريكة غير ملطخة بالحبر، ولا أثر للفوضى التي تكشف حضور إلهة الشعر، وتغيب المكنسة والمقشة. وكانت الدنيا تسود في عيني تشارسكي إذا ما ضبطه أحد الأصدقاء من سراة القوم وبيده القلم. ومن العسير أن نتصور ما يبلغه من اهتمام بصغائر الأمور إنسان لوذعي، وهو بالمناسبة، صاحب موهبة وروح. فيصور نفسه بأنه مولع بالجياد، أو لاعب قمار متهور، أو ذواقة أطعمة رقيق الحس.

هذا بالرغم من أنه ما كان يستطيع تفريق سلالة الجياد الغورية عن العربية، أو تذكر البتة الأوراق الرابحة، وكان يفضل في الخفاء تناول البطاطس المشوية وليس شتى أصناف أطباق المطبخ الفرنسي. وكان طراز حياته يتسم بالذهول التام، فكان يحضر جميع حفلات البالو، ويشارك في جميع المآدب الدبلوماسية، وحضوره أكيد في الأمسيات المكرسة إلى ايس كريم ريزانوف

لكنه كان شاعراً، وشغفه بالنظم لا يقهر: وحين كانت تراود تشارسكي هذه الخبيثة(هكذا كان يصف الإلهام)، تراه يغلق على نفسه باب المكتب ويكتب منذ الصباح وحتى في وقت متأخر من الليل.واعترف لأصدقائه المخلصين بأنه كان حينئذ فقط يعرف السعادة الحقيقية. أما في بقية الوقت فكان يتجول، وملئ نفسه الضجر والتكلف وسماع السؤال العتيد: هل نظمت شيئاً جديداً؟

وشعر تشارسكي مرة صباحاً بخلجات النفس الطيبة حين تتجلى الأحلام أمام المرء، وتأتيه الكلمات الحية المباغتة لتجسيد رؤياه، وحين تمضي الأبيات الشعرية بيسر تحت القلم، وتهرع القوافي الرنانة للقاء الفكر المنسجم. وغاص تشارسكي بكل جوانح روحه في زوايا النسيان اللذيذة..و لم يعد هناك وجود للمجتمع لديه، وآراء المجتمع، ونزواته نفسه. فقد كان ينظم القصائد.

وبغتة سمع صرير باب مكتبه وانبجس رأس شخص مجهول. فجفل تشارسكي وعبس.

وسأل منزعجاً: من هناك؟ – ولعن في سره خدمه الذين لا يرابطون عند المدخل أبداً.

ودخل الرجل المجهول.

كان فارع الطول نحيفاً، وبدا في حوالي الثلاثين من العمر. وكانت ملامح وجهه الأسمر معبرة: جبهته العالية الشاحبة، التي تتدلى فوقها خصلات شعر أسود، وعيناه السودوان المتألقتان،والأنف المعقوف واللحية الكثة حول الخدين الخاسفين المائلين إلى الصفرة القاتمة، تدل كلهاعلى أنه أجنبي. وكان يرتدي فراكا أسود، برزت على مواقع الخياطة فيه بياضات، وسراويله صيفية (بالرغم من أن الطقس في الخارج في أواخر الخريف)، وتألق ألماس زائف فوق ربطة العنق السوداء البالية وجبهة الصدر المائلة إلى الإصفرار. وقبعته بالية، وبدا أنها رأت الجو الصافي والممطر. واذا ما ألتقى المرء مثل هذا الشخص في الغابة لظن أنه قاطع طريق، أما في المجتمع فيبدو مثل متآمر سياسي. كما يؤخذ عند مدخل البيت بصفته محتالاً يتاجر بالمحاليل والزرنيخ.

سأله تشارسكي باللغة الفرنسية:- ماذا تريد؟

فأجاب الأجنبي بإنحناءة شديدة:

-Signor ، Lei voglia perdonarmi se ....[٢٧]

لم يعرض عليه تشارسكي الجلوس في المقعد ووقف نفسه. وتواصل الحديث باللغة الإيطالية:

قال الرجل المجهول:- أنا من نابولي، وأرغمتني الظروف على ترك وطني. وجئت الى روسيا وأملي في موهبتي.

---

٢٧. سنيور، اغفر لي، ارجوك، اذا...(بالايطالية) - المترجم

أعتقـد تشارسكـي أن إبـن نابولي هذا يعتزم تقـديم عدة حفلات بالعـزف على الفيولونسيل ويـوزع التذاكر على البيـوت. وأراد أن يعطيه خمسة وعشرين روبلا، وبهذا يتخلص منه بسرعة، لكن الرجل المجهول أضاف قائلاً:

آمل، ياسنيور، أن تقدم معونة ودية لأخيك بأخذه إلى البيوت التي ترتادها.

مـا كان بالإمـكان توجيـه إهانـة أكثر إيلامـاً من هـذه الى كرامة تشارسكي. فنظر بعجرفة واستعلاء إلى ذاك الذي وصفه بالأخ.

وسأله، وهـو يكظم غضبه بجهد: إسمح لي بـأن اسألك من أنت ومن تظنني؟

لاحظ إبن نابولي انزعاجه فأجاب متعلثما:

– سنيور..*ho creduto.. ho sentito..la vostra eccelenza mi perdonera...*[٢٨]

وكرر تشارسكي بجفاء:– ماذا تريد؟

فأجاب الإيطالي: سمعت الكثير عن موهبتك العجيبة، ولي ثقة بأن السادة هنا يشرفهم إبداء كل رعاية الى شاعر فذ مثلك، ولهذا تجرأت على المجئ إليك..

وقاطعـه تشارسكي: لقد اخطأت ياسنيـور. لا توجد لدينا تسمية

---

٢٨. سنيور انا فكرت..واعتقدت.. ياصاحب السعادة، ارجو المعذرة..(بالايطالية) – المترجم

الشاعر. ولا يحظى شعراؤنا برعاية السادة، وشعراؤنا أنفسهم سادة، وإذا كان المحسنون إليك (ليأخذهم الشيطان!) لا يعرفون ذلك، فهذا الأمر أكثر سوءا لهم. ولا يوجد لدينا قس يأخذهم الموسيقي من الشارع من أجل تأليف *libretto*. والشعراء عندنا لا يمشون من بيت إلى بيت، ويتوسلون لتقديم المعونة لهم. ربما قالوا لك على سبيل المزاح بأنني منظم قصائد عظيم. حقا أنني نظمت في وقت ما قصائد ساخرة رديئة. لكن، والحمد لله، لا توجد لدي أية علاقة بالسادة منظمي الأشعار ولا أريد ان تكون لدي أية علاقة بهم.

شعر الايطالي المسكين بالإحراج. وتطلع حوله. لقد بهرته اللوحات، والتماثيل المرمرية، والبرونزيات، واللعب الغالية الثمن المرتبة فوق الرفوف. وأدرك بأنه لا يجمعه جامع بين الغندور المتعجرف الواقف أمامه معتمراً القلنسوة ذات الذؤابة المقصبة، وبالروب الصيني الموشى بالذهب، والمحزم بالشال التركي، وبينه هو الفنان المتجول الفقير ذي ربطة العنق المتهرأة والفراك البالي. فردد عدة عبارات غير مترابطة معتذراً وانحنى وأراد الخروج. لكن مظهره البائس قد اثار لدى تشارسكي مشاعر العطف عليه، فقد كان بالرغم من صغائر طبعه ذا قلب طيب ونبيل. وخجل من اهتياج كبريائه بالذات.

فقال للإيطالي:— الى أين أنت ذاهب؟ قف.. يجب أن أرفض لقب الشاعر الذي لا استحقه، وأن أعترف لك بأنني لست شاعراً. والآن لنتحدث عن شؤونك. أنا مستعد لتقديم الخدمة لكن فقط بقدر ما أستطيع. هل أنت موسيقي؟

وأجاب الايطالي: لا، ياصاحب السعادة ! أنا شاعر مرتجل مسكين؟

وهتف تشارسكي بعد أن شعر بكل قسوة تعامله معه:شاعر مرتجل ! لمــاذا لم تخبرني من قبل أنك شاعر مرتجــل؟ – وصافحه تشارسكي بشعور من المغفرة الصادقة.

لقد تشجــع الايطالي لدى رؤيــة مظهره الــودي. وصار يتحدث ببساطــة وانشراح عــن افتراضاته. ولم يكن مظهره خادعــاً، فقد كان بحاجــة إلى النقــود، وآمــل أن يحســن ظروفه المعيشيــة بشكل ما في روسيا. وأصغى إليه تشارسكي بإهتمام.

ثــم قال للفنان المسكين: – آمل في أن تحقق النجاح: فالمجتمع هنا لم يستمــع أبداً إلى شاعر مرتجــل. وسيثير الأمر فضولهم، حقا إن اللغة الإيطالية غير رائجة عندنا، لكن لا بأس في ذلك، والشيء الرئيسي أن تكون مسايراً للموضة.

فقال الشاعر المرتجــل متأملاً: إذا كان لا أحد يفهم اللغة الإيطالية، فمن سيأتي لسماعي؟

سيأتــون – لا تخشى ذلك: فسيأتي البعض علــى سبيل الفضول، أما البعض الآخر فيريد أن يزجي الوقت في المساء بشكل ما، وثمة فئة ثالثــة ستأتي من أجل أن تظهــر أنها تفهم اللغة الإيطالية. وأكرر يجب فقط أن تساير الموضة، وستكون مع الموضة، وهاك يدي.

افــترق تشاريكي بلطف مع الشاعر المرتجل، وأخذ عنوانه، وتوجه في المساء ذاته لكي يسعى من أجله.

الباب الثاني

أنا القيصر، أنا العبد، أنا الدودة، أنا الرب.

ديرجافين

في اليوم التالي كان تشارسكي يبحث في ممر معتم وقذر عن الغرفة رقم ٣٥. ثم توقف عند الباب وطرقه. ففتحه إيطالي يوم أمس. وقال له تشارسكي:

تحقق النصر! قضيتك في الجيب. إن الأميرة تعطيك صالونها، وقد استطعت يوم أمس في حفل الإستقبال من تجنيد نصف بطرسبورغ، إطبع التذاكر والإعلانات. انا اضمن لك إن لم يكن النجاح الباهر، فعلى الأقل كسب الربح.

وهذا هو الأمر الرئيسي، – هتف الإيطالي معربا عن ابتهاجه بحركات تتسم بالحيوية، تميز طبعه بصفته من أبناء الجنوب، – كنت أعرف بأنك ستساعدني. *Corpo di Bacco*[٢٩] أنت شاعر مثلي. ومهما قيل فالشعراء فتيان أماجد! كيف أعبر لك عن شكري وامتناني؟ مهلاً.. هل تريد سماع ارتجال؟

---

٢٩. ليأخذني الشيطان (بالايطالية)

ارتجال!... ولكن هل تستطيـع ذلك بلا جمهور، وبلا موسيقى، وبلا عاصفة من التصفيق؟

هراء، هـراء! أين أجد جمهور أفضل منـك؟ أنت شاعر وتفهمني أفضـل منهم واستحسانك الهادئ أثمن لـدي من عاصفة شديدة من التصفيق...أجلس في مكان ما واطرح علي فكرة ما.

جلسـ تشارسكـي علـى حقيبـة(كان يوجد من بـين الكرسيين الموجوديـن في الحجـرة الضيقـة كرسي محطـم، بينمـا وضعت فوق الآخـر كومة من الأوراق والملابس الداخليـة). وأخذ الشاعر المرتجل آلـة الجيتار من الطاولة – ووقف قبالـة تشارسكي وهو يضبط الأوتار بأصابع نحيفة بانتظار ورود الفكرة.

فقـال تشارسكي له:– إليك هـذه الفكرة، الشاعـر ينتقي بنفسه المواضيع لأغانيه، والجمهور لا يتمتع بالحق في التحكم بإلهامه.

تألقت عينـا الإيطالي بوميض فعزف عدة إلحـان ورفع رأسه عاليا بكبرياء، وانطلقت من فيه بتناغـم منسجم المقاطع الشعرية المشبوبة، تعبـيرا عن شعور تلـك اللحظة... وإليكم واحـدة منها قام بترجمتها بتصرف أحد الاصدقاء من الكلمات المتبقية في ذاكرة تشارسكي.

الشـاعر يمضي – بعينين مفتوحتين،

لكنه لا يرى أي أحد

فإذا أحد المارة يسحبه من طرف ثوبه...

قل لي مالك تتسكع بلا هدف؟

وما تكاد تبلغ الذروة،

حتى تتطلع إلى الأسفل

وتصبو إلى الحضيض.

إنك تتطلع إلى العالم المنسجم بحيرة وارتباك.

ويجهدك الحر العقيم

ثمة في أعماق ذاتك سخونة تعذبك

وأمر تافه يشغل بالك ويجذبك في كل لحظة.

إن العبقري يجب أن يتطلع نحو السماء،

ويجب على الشاعر الحقيقي

أن يختار موضوعاً سامياً

من أجل القصائد الملهمة».

لم تلف الريح وتدور في الهوة،

وترفع الأوراق والغبار

بينما تقف السفينة ساكنة في البحر

وتنتظر بشوق هبوب الريح.

ويطير النسر، الثقيل والرهيب،

من الجبال وبمحاذاة الأبراج.

هل إلى الزبد الواهن؟ اسأله.

ولماذا عشقت العربي

الصبية ديزدمونة.

كما يعشق الهلال عتمة الليل الدامس؟

لا يوجد عرف وقانون لدي الريح والنسر

وقلب الصبية.

كذلك هو الشاعر: إنه مثل ريح الشمال (اكوينوليس)

يفعل ما يفعل وفق هواه.

إنه مثل النسر، يحلق

من دون أن يسأل أحداً.

إنه مثل ديزدمونة

يختار المحبوب إلى قلبه.

توقف الايطالي عن الكلام.. ولزم تشارسكي الصمت بعد أن تملكته الدهشة والتأثر.

فسأل المرتجل: – ما رأيك؟

فقبض تشارسكي يده وصافحه بقوة.

وسأل الشاعر المرتجل: كيف، ما رأيك؟

وأجاب الشاعر: – مدهش. كيف ! لقد مست الفكرة الغريبة سمعك وأصبحت فكرتك نفسك، كما لو أنك احتضنتها ورعيتها وطورتها بلا توقف. وهكذا، لا تجد صعوبة ولا برودة ولا ذلك القلق الذي يسبق الإلهام؟.. مدهش، مدهش !

فأجاب الشاعر المرتجل قائلاً:

إن أية موهبة لا تخضع للتأويل. فكيف يرى النحات في كتلة المرمر الكاراري صورة جوبيتر المخفية ويخرجها إلى النور، ويكشفها باستخدام الأزميل والمطرقة؟ ولماذا تخرج الفكرة من رأس الشاعر

متسلحة بالرباعيات، الموزعة بصفوف متماثلة موزونة؟ وهكذا لا يستطيع أحد غير المرتجل نفسه إدراك سرعة الإنطباعات هذه، وتلك الرابطة المتينة بين إلهامه نفسه والإرادة الخارجية الغريبة عنه- عبثاً إن اردت تأويل ذلك. ولكن.. يجب أن افكر في أول أمسية لي. ماذا تعتقد؟ ماهو الثمن الذي يجب تحديده للتذكرة، بغية ألا تشكل عبئا على الجمهور وبغية ألا أبقى بلا مورد؟ يقال ان *la signora Catalani*[٣٠] اخذت ٢٥ روبلا؟ هذا سعر جيد...

شعر تشارسكي بالإستياء للهبوط من ذرى الشعر بغتة إلى دكان صاحب متجر، لكنه كان يدرك جيدا ضرورات الحياة اليومية،وهبط مع الإيطالي إلى الحسابات التجارية. وقد شعر الإيطالي لحظتئذ بجشع وحشي، وبولع بالربح، وبهذا عارض تشارسكي الذي عاجل في تركه لشأنه بغية ألا يفقد كلياً مشاعر الإعجاب التي ولدها فيه الشاعر المرتجل الرائع. و لم يلاحظ الإيطالي المنشغل بهمومه هذا التغير، ورافقه في الممر وحتى السلالم مع إبداء إنحناءات شديدة والإعراب عن الإمتنان إلى الأبد.

---

٣٠. السنيورة كاتالاني..(بالايطالية).

الباب الثالث

سعر التذكرة ١٠ روبلات، بداية الحفل في الساعة السابعة.

اعلان

وضـــع صالون الأميرة تحت تصرف الشاعر المرتجل. وأعدت المنصة، وصفت المقاعد في عشرين صفاً. وفي اليوم المقرر، وعند الساعة السابعة مساء، تمت إنارة الصالة، وجلست عند المدخل وراء طاولة من أجل بيع واستـلام التذاكر إمرأة عجوز ذات أنف طويل وقبعة رمادية ثبتت فيها رياش مكسورة وزينت جميع أصابعها بخواتم. كما وقف رجال الدرك عنـد المدخل. وبدأ الجمهـور بالتوافـد. وكان تشارسكي من بين أول القادمـين. وقد شارك بقدر كبير في نجاح العرضـ. وأراد رؤية الشاعر المرتجل ليعرف منه، فيما إذا كان راضياً عن كل شيء. ووجد الايطالي في غرفـة جانبية، وهو ينظر بنفاد صـبر إلى ساعته. كان الإيطالي يرتدي زياً مسرحياً: حيث تلفع بالسواد من الرأس وحتى أخمص القدمين، وتدلت الياقـة المصنوعة من الدنتلا في قميصه إلى تحت، وتنافرت رقبته الناصعة البياضـ بشكل غريب مـع لحيته السوداء الكثـة، بينما تدلت خصلات شعـره فـوق جبهته وحاجبيه. ولكـن هذا كله لم يعجـب تشارسكي، الذي لم تكـن تسره رؤية شاعر بزي مهرج متجول. وبعد محادثة قصيرة معه عاد إلى الصالون الذي كان يزداد ازدحاما أكثر فأكثر.

وسرعان ما شغلت جميع صفوف المقاعد سيدات باهرات الأناقة، فيما وقف الرجال الذين احتشدوا عند مقدمة خشبة المسرح، وعلى امتداد الجدران وخلف المقاعد الأخيرة. وشغل الموسيقيون مع حواملهم للنوتات كلا جانبي الخشبة. ووضعت زهرية خزفية على طاولة في وسطها. كان حشد الجمهور كبيراً. وانتظر الجميع البداية بفارغ الصبر، وأخيراً وعند الساعة السابعة والنصف تململ الموسيقيون وأعدوا أقواس الآلات وعزفوا مقدمة أوبرا « تانكريد». وساد الهدوء والصمت، وصدحت آخر ألحان المقدمة... ودنا الشاعر المرتجل، الذي قوبل بعاصفة من التصفيق من كافة الأنحاء، من مقدمة خشبة المسرح وانحنى لهم إنحناءات شديدة.

وانتظر تشارسكي بقلق الإنطباع الذي ستتركه الدقيقة الأولى، ولاحظ أن الزي الذي بدا له غير لائق لم يولد التأثير نفسه في الجمهور. ولم يجد تشارسكي نفسه أي شيء مضحكاً فيه حين رآه فوق خشبة المسرح بوجه شاحب أنارته بشكل ساطع المصابيح والشموع الكثيرة. وهدأ التصفيق وخمدت الهمهمة. ورجا الإيطالي بلغة فرنسية ركيكة السادة الضيوف أن يقترحوا عدة مواضيع بتدوينها على وريقات خاصة. وبدأ الجميع وقد فاجأتهم الدعوة بالتطلع نحو أحدهم الآخر ولم يستطع أي أحد الإجابة. وانتظر الإيطالي قليلاً ثم كرر طلبه بصوت ينم عن الوجل والوداعة. أما تشارسكي الذي كان يقف عند مقدمة خشبة المسرح فقد تملكه الإضطراب، وشعر بأن الأمر يتطلب تدخله وأنه مضطر لكتابة موضوعه. وفعلاً أخذت عدة رؤوس نسائية تناديه في البداية بصوت خافت ومن ثم بصوت أعلى فأعلى. وعندما سمع المرتجل إسم تشارسكي طفق يجيل بناظريه بحثاً عنه تحت قدميه وسلمه القلم وقصاصة ورق بابتسامة ودية. وبدا لتشارسكي أن أداء دور في

هــذه الكوميديا شيء لا يبعث على الإرتياح، لكن ليس في اليد حيلة. فأخــذ القلم والورقة ودون عدة كلمات. وتناول الايطالي الزهرية من الطاولــة ونزل من خشبة المســرح وحملها إلى تشارسكي الذي ألقى فيهــا موضوعه. واقتــدى آخرون به. فوجــد صحفيان، بصفتهما من أهل الأدب، أن من الواجب أن يكتب كل واحد موضوعاً، وألقى في الزهرية ورقتيهما المطويتــين سكرتير سفارة نابولي وشاب عاد مؤخراً مــن رحلة، وهــذر بشيء ما عــن فلورنسا، وأخــيرا، قامت فتاة غير جميلــة، بأمر من أمها، وقد اغرورقــت عيناها بالدموع،، بكتابة عدة سطور بالايطالية وسلمتهــا الى المرتجل وقد اصطبغت بشرتها بالحمرة حتى الأذنــين، فيما تطلعــت السيدات نحوها بصمــت، وبشيء من التهكــم الملحوظ. وعاد المرتجــل إلى خشبة المســرح ووضع الزهرية على الطاولة وأخــذ يستخرج قصاصات الورق الواحدة تلو الأخرى ويقرأها بصوت عال:

عائلة تشينتشي.

(*La famiglia dei Cenci*)

L'utlimo giorno di Pompeia

Cleopatra e I suoi amanti.

La primavera veduta da una prigione.

Il trionfo di tyasso.[31]

سأل الايطالي الوديع:– ماذا يأمر الجمهور المحترم؟ هل يترك لي أن

٣١. آخر يوم في بومبي، كليوباترا وعشاقها، ربيع يرى وسط العتمة، انتصار تاسو (بالايطالية)– المترجم

اختار أحد المواضيع المقترحة أم يترك هذا الأمر الى القرعة؟..

ونبر أحد الأصوات من الحشد: – بالقرعة !..

وكرر الجمهور: – بالقرعة، بالقرعة !

ونزل الشاعر المرتجل مرة اخرى من خشبة المسرح حاملا الزهرية وسأل: «من سيسحب موضوع القرعة؟». وتطلع الشاعر المرتجل بتوسل نحو الصفوف الأولى من المقاعد. و لم تحرك ساكنا أية واحدة من السيدات الأنيقات الجالسات هناك. وبدا أن الشاعر المرتجل الذي لم يألف لا مبالاة أهل الشمال أخذ يعاني في دخيلة نفسه.. وفجأة لاحظ من الجانب يداً مرفوعة بقفاز أبيض صغير، فأندفع بحيوية واقترب من حسناء فتية رائعة كانت تجلس عند طرف الصف الثاني. ونهضت بلا أي ارتباك ومدت يدها الأرستقراطية في الزهرية واستخرجت منها ورقة ملفوفة.

فقال لها الشاعر المرتجل: – إسمحي بفتحها وقرائتها.

وفتحت الحسناء الورقة وقرأت بصوت مسموع:

Cleopatra e I suoi amanti(32) –

وقد تليت هذه العبارة بصوت خافت لكن ساد القاعة صمت مطبق جعل الجميع يسمعونها. وانحنى الشاعر المرتجل انحناءة عميقة للحسناء تنم عن الإمتنان البالغ لها وعاد إلى خشبته.

ثم قال مخاطباً الجمهور: – أيها السادة، حددت لي القرعة كليوباترا

٣٢. كليوباترا وعشاقها – المترجم.

وعشاقهـا كموضـوع للإرتجال. لكنني أرجو بالـغ الرجاء الشخص الـذي اختار هذا الموضوع أن يوضـح لي فكرته: من المقصود بهؤلاء العشاق لأن[٣٣] *...perche' la grand regina n'aveva molto*

ولـدى سماع هذا القول صار كثير من الرجال يضحكون بصوت عال. بينما اضطرب الشاعر المرتجل.

فمضى قائـلا:- بودي أن أعـرف السمة التاريخيـة التي قصدها الشخص لدى اختيار هذا الموضوع... وسأكون ممتناً للغاية لو تفضل بإيضاح الأمر...

لم يعجـل أي أحد في الإجابة. ورنت عـدة سيدات إلى الفتاة التي كتبت الموضوع بإيعاز من أمها. ولاحظت الفتاة المسكينة هذا الإهتمام غير الـودي فاضطربت لدرجة أن الدموع علقـت في رموشها.. و لم يطـق تشارسكـي صبراً علـى ذلك فخاطـب الشاعر المرتجـل باللغة الايطالية قائلاً:

أنـا الذي اقترحت الموضوع. وكان قصدي ما أورده افريل فكتور الذي كتب زاعماً أن كليوباترا اشترطت الموت ثمنا لمطارحتها الهوى، ووجد أن العشاق لم يخفهم هذا الشرط و لم ينكروه.. ولكنني أعتقد مع هذا أن الموضوع صعب نوعا ما.. فهل تختار موضوعاً آخر؟..

لكن الشاعر المرتجل قد شعر بإقتراب إرادة الرب.. فأعطى الإشارة إلى الموسيقيـين لكـي يعزفوا.. وشحب وجهه بشـكل فظيع، ودمدم بشـيء ما كما لو أصيـب بالحمى، وتألقت عيناه بنـار عجيبة، وأزال بيـده خصلات شعره الأسـود، ومسح بالمنديل جبينـه العالي المتصفد

٣٣. لأنه كان لدى الملكة العظيمة الكثير من العشاق (بالايطالية)- المترجم.

بقطـرات العـرق.. وفجأة تقـدم إلى الأمام، وتصالـب بذراعيه على صدره ..وخمدت الموسيقى.. وبدأ الإرتجال:

تلألأ القصر الملكي. وهدرت جوقة

المغنيات بمصاحبة المزمار والقيثارة.

وأشاعت الملكة الحيوية في المأدبة،

بصوتها ونظراتها المهيبة.

وسعت القلوب إلى عرشها،

لكنها انغمرت في التأمل،

بغتة في الكأس الذهبية

وأرخت رأسها البالغ الحسن...

وبدا كما لو أن المأدبة الفخمة قد استغرقت في غفوة

ولزم الضيوف الصمت.وسكتت جوقة المغنين.

وبغتة رفعت رأسها مجدداً

وأبلغت الحاضرين بوضوح قرارها:

هل سيكون حبي متعة لكم !

المتعة يمكن أن تشتروها...

اصغوا إلي:

أنا موافقة على أن يسود العدل بيننا.

فمن يوافق قبل غيره على دخول مزاد العشق؟

إنني أبيع حبي.

وقولوا: من منكم سيشتري ليلة معي مقابل حياته؟-

.

أقسم... بأم اللذائذ،

سأخدمك بشكل لا مثيل له،

في سرير الشهوات الجامحة

سأكون كجارية عادية.

استمعي إلي، يا أفروديت العظيمة،

وانتم ياملوك العوالم السفلى،

أوه، يا ارباب مملكة الأموات الرهيبة،

أقسم - بأنه قبل طلوع الفجر

سأقر بوعدي وأنفذ أية رغبة للعشاق

واجهدهم باللذة،

وبجميع أسرار القبل

وأروي عطشهم إلى النعيم.

ولكن حالما تظهر طلائع الفجر

وتتألق اورورا الخالدة،

فأقسم بأن رأس المحظوظين ستطير تحت ضربات الطبر.

قالت هذا - وقد غمر الرعب الجميع،

وارتجفت القلوب المفعمة بالشهوة...

أما هي فقد أصغت إلى الجمجمة الحائرة

ونظرت إليهم بوجه يتسم بالوقاحة الباردة

إلى المعجبين حولها باحتقار..

وفجأة قام رجل وسط الحشد،

ثم اعقبة إثنان آخران.

لقد ساروا بخطوات ثابتة

وبعيون صافية،

فنهضت للقائهم.

لقد أُنجز الأمر: وبيعت ثلاث ليال،

وسرير الموت يناديهم.

باركهم الكهنة،

والآن صارت القرعة تخرج من وعاء الزؤام،

أمام الضيوف الجامدين بلا حراك.

وأولهم – فلافيوس جندي شجاع

وخط الشيب شعر رأسه في الكتائب الرومانية،

إنه لم يعد يطيق احتقار زوجته وغطرستها،

وواجه تحدي اللذة،

كما كان في الحرب

يواجه تحدي المعارك الضارية.

واعقبه كريتون، الشاب الحكيم،

الذي ولد في أحراج ابيقور. كريتون العاشق ومنشد

مآثر خاريتي وكبريد وآمور...

والأخير لم يذكر إسمه

إنه محبب للقلوب والأبصار.

وهو كالزهرة الربيعية النضرة الموشكة على التفتح،

ونمت على خديه بواكير زغب بض،

وتألقت في عينيه البهجة.

وفارت في قلبه الفتي ... قوة شهوات عدم الخبرة...

وثبتت الملكة أنظارها عليه برقة وحنان.

كيرجالي

كان كيرجالي بلغاري الأصل. وتعني كلمة كيرجالي باللغة اليونانية الفارس والشجاع. أما إسمه الحقيقي فلا أعرفه.

بث كيرجالي الرعب في مولدافيا بأسرها بأفعاله كقاطع طريق. وبغية إعطاء فكرة ما عنه سأروي إحدى مآثره. فحدث مرة ليلاً أن هاجم سوية مع الأرناؤوط ميخايلاكي قرية بلغارية. فقاما بإضرام النيران من كلا طرفيها وأخذا يتنقلان من بيت إلى آخر. وكان كيرجالي يذبح الأهالي، بينما يقوم ميخايلاكي بجمع الغنائم. وكانا يصرخان: «كيرجالي! كيرجالي!». وهرب جميع أهالي القرية.

وعندما أعلن الكسندر ايبسيلانتي[٣٤] الإنتفاضة وصار يجند القوات، اقتاد كيرجالي إليه عدداً من رفاقه القدامى. علماً أنهم لم يعرفوا تماما الهدف الحقيقي للتنظيم السري، لكن الحرب كانت فرصة لكسب الغنائم من الأتراك، وربما من المولدافيين، — وبدا لهم ذلك جلياً للعيان.

كان الكسندر ايبسيلانتي شخصياً رجلاً شجاعاً، لكنه لم يتمتع

---

٣٤. ثائر يوناني قاد انتفاضة شعوب الدانوب ضد حكم الاتراك في عام ١٨٢٠ وترأس " الجمعية المتآلفة" لكنه فشل في ثورته– (المترجم).

بالسجايا اللازمة لأداء الدور الذي أخذه لنفسه بكل حماس وبلا حذر. فهو لم يستطع إيجاد لغة مشتركة مع الأفراد الذين اضطر لقيادتهم. فلم يحترموه و لم يثقوا به. وبعد المعركة المنحوسة التي قتل فيها زهرة الشباب اليوناني نصحه يورداكي اوليمبيوتي بالتخلي عن القيادة وحل نفسه محله. وانطلق ايبسيلانتي نحو حدود النمسا ومن هناك وجه لعناته على الأشخاص الذين وصفهم بالخونة والجبناء والأنذال. علماً أن غالبية هؤلاء الجبناء والأنذال لقوا حتفهم عند أسوار دير سيكو أو على ضفاف نهر بروت، في أثناء دفاعهم المستميت ضد عدو أقوى منهم بعشرة أمثال.

أما كيرجالي فكان مع فصيلة غيورغي كانتاكوزين الذي يمكن إعطاء الوصف ذاته الذي أعطي لايبسيلانتي. ففي عشية المعركة في أطراف سكولياني طلب كانتاكوزين من القيادة الروسية السماح له بالمجيء إلى معسكرنا للحجر الصحي. وهكذا أصبحت الفصيلة بلا قائد. لكن لم يجد كيرجالي وكذلك سافيانوس وكانتاغوني أية حاجة لقائد.

وأظن أن أي أحد لم يصف المعركة عند سكولياني على حقيقتها. فتصوروا ٧٠٠ رجل من الأورناؤوط والألبان واليونانيين والبلغار وشتى الدهماء الذين ليس لديهم أية معرفة بالفن العسكري وهم يتراجعون لدى مواجهة خمسة الآف رجل من الفرسان الأتراك. ووجدت هذه الفصيلة المأوى عند ضفة بروت ونصبت أمامها مدفعين صغيرين وجدوهما في ياسي في باحة بيت أحد أصحاب الأطيان الذي كان يطلق منهما النار في أيام المرافع والأعياد. وقد كان الأتراك سيغتبطون باطلاق قنابل كريات الرصاص، لكنهم لم يجرأوا على ذلك من دون موافقة القيادة الروسية، لأن كريات الرصاص كانت

ستتساقـط حتماً على ضفتنا. علمـاً أن قائد معسكر الحجر الصحي (المرحـوم حاليا)، لم يسمـع خلال طوال حياته وخـلال ٤٠ عاماً من الخدمة العسكريـة أزيز الرصاص، والآن أتاح لـه الرب هذه الفرصة لسماعه. ومرت عدة رصاصات بمحـاذاة أذنيه. فغضب العجوز كل الغضـب وانهال بالشتائـم على النقيب اوخوتسكي مـن فوج المشاة المرابـط في المعسكر. ولم يدر النقيب ما يجـب عليه فعله وهرول إلى النهر الذي كان يرابط ورائه رجال الديليباشا (ديلر اغا)على صهوات خيولهـم، وهددهم بإصبعه. وعندما رآه رجـال الديليباشا استداروا وانطلقوا مبتعدين، وتبعتهم الفصيلة التركية بأسرها. وكان إسم النقيب الذي هددهم بإصبعه خورتشيفسكي. ولا أعرف مصيره.

لكـن الأتراك هاجمـوا في اليوم التـالي المتمرديـن. ولم يتجاسروا علـى إطلاق كريات الرصاص ولا القذائـف. وقرروا خلافا لعادتهم استخـدام السـلاح الابيض. وكانت المعركـة قاسيـة. واستخدمت الخناجر الطويلـة. وشاهد الأتراك الرماح التي لم تكن لديهم في ذلك الحـين، وكانت هذه الرماح بأيدي جماعة نيكراسوف الروسية الذين حاربوا في صفوفهم. وكان بوسع أفراد التنظيم السري بموافقة قيصرنا عبـور نهر بـروت واللجـوء إلى معسكرنـا للحجر الصحـي. فبدأوا العبـور سباحـة. وكان آخر من بقي في الضفـة التركية هما كانتاغوني وسافيانوس. أمـا كيرجـالي الذي جـرح في العشية فـكان يرقد في المعسكـر. وقتل سافيانوس. وجـرح كانتاغوني الضخم الجثة في بطنه بطعنـة رمح. ورفع بيد السيف بينما سحب باليد الأخرى رمح العدو وغرسه بشـكل أعمق في جسده وبهذا تمكن من طعن قاتله الذي خر صريعاً سوية معه.

إنتهى كل شيء. وانتصر الأتراك. وتم تطهير مولدافيا. وانتشر حوالي

ستمائة رجل من الأورناؤوط في أرجاء بيسارابيا، و لم يجدوا ما يقتاتون بـه لكنهم اعربوا مع هذا عن الإمتنـان إلى روسيا التي منحتهم الملاذ. إن طـراز حياتهم يتسم بالتبطل ولكن ليـس بالفساد. ويمكن رؤيتهم دائماً في مقاهي بيسارابيا شبه التركية في أفواههم غلايين طويلة، وهـم يحتسـون ثفل القهوة من فناجـين صغيرة. وأخـذت بالبلى ستراتهم المزخرفـة وأحذيتهم الحمراء المدببة الرأس، لكن طرابيشهم القنبرانية مـا برحت متدليـة جانباً، كما مـا زالت تتدلى من الأحزمـة العريضة الخناجـر والغـدارات، و لم يجرأ أي أحد منهـم بالشكوى. ولا يمكن تصـور أن يكون هؤلاء الفقراء المسالمين من أشهر رجال العصابات في مولدافيا، ورفاق كيرجالي الرهيب، وأن يكون نفسه بينهم.

عندمـا علم ذلك الباشـا حاكم ياسـي طلب من القيـادة الروسية تسليمه قاطع الطريق بموجب أحكام معاهدات الصلح بين البلدين.

فأخـذ رجال الشرطة يبحثون عنه. وعرفوا أن كيرجالي يوجد فعلاً في كيشينيـوف. فألقـوا القبض عليه في بيت راهب هـارب، مساءاً، حين كان يتناول طعام العشاء، وجالساً في الظلام مع سبعة من رفاقه.

وضع كيرجـالي تحت الحراسـة. و لم يخف الحقيقـة واعترف بأنه كيرجـالي. لكنه أضاف قائـلا:« لكنني منذ أن عـبرت نهر بروت لم أمـس شعرة من ممتلـكات أي أحد، و لم أسـئ إلى أي غجري. طبعاً، إننـي بالنسبة إلى الأتراك والمولدافيـين والفالاخيين اعتبر قاطع طريق، أمـا بالنسبة للروس فأنـا ضيف. وعندما أطلـق سافيانوس آخر ما في جعبتـه مـن كرات الرصاص جاء إلينـا في معسكر الحجـر الصحي وأخذ من الجرحى الأزرار والمسامير والسلاسل ومقابض الخناجر من أجـل آخر حشوات المدفع ، وأنا أعطيتهـم عشرين بشليقاً وأصبحت

بـلا نقود. والرب شاهد على أننـي كيرجالي كنت أعيش بالصدقات! فلماذا يسلمني الروس إلى أعدائي؟ «. بعد ذلك لزم كيرجالي الصمت وصار ينتظر بهدوء تقرير مصيره.

لم ينتظـر طويلا. فقد أمـرت القيادة، التي لا تعتبر ملزمة بالنظر إلى قطاع الطـرق من وجهة النظـر الرومانسية، بأن يرسـل كيرجالي إلى ياسي.

ووصـف لي كيفيه تسفيره بالتفصيل رجـل يتسم بالعقل والقلب، كان في حينه موظفاً صغيراً غير معروف، ويشغل الآن منصبا هاماً.

كانت تقـف عند بوابة السجن عربة بريد – كاروتسا..(ربما إنكم لاتعرفـون ما هي الكاروتسا.إنها عربـة واطئة مضفورة، كانت تقرن إليهـا عـادة حتى وقت قريب سـتة أو ثمانية خيـول ضامرة. ويمتطي أحدها مولـداً في ذو شوارب ويعتمر قبعة من فرو الضأن، ويأخذ بين لحظـة وأخرى بالصـراخ ويلوح بسوطه، فتمـرق خيوله خبباً مروق الريـح. وإذا أخـذ أحدها بالتباطـؤ، فإنه يفكه مـن العربة ويتركه في الطريـق مـن دون أن يهتم بمصـيره. وكان واثقاً من أنـه سيجده هناك في طريق العودة، وهو يرعى البريـة الخضراء بهدوء. وغالباً ما يحدث أن المسافـر الذي يتوجه من إحـدى المحطات راكباً عربة ذات ثمانية خيول يجد نفسـه وقد وصل إلى المحطة الأخرى بحصانين. وهذا ما حدث قبـل خمسة عشر عاماً مضت. والآن بعـد أن تروسنتبيسارابيا (أي أصبحـت روسية) بدأ استخـدام عدة الحصـان الروسية والعربة الروسية.

كانـت عربـة كاروتسا كهـذه تقف عنـد بوابة السجـن في عام ١٨٢١في أواخر شهـر سبتمـبر. وأحاطت بالعربـة يهوديات، وقد

اطلقــن الأكمام ورحن يطبطبن بأحذيتهن،ونساء الأرناؤوط بأزيائهن الباليــة والزاهية الألــوان، ومولدافيات بقدود هيفــاء يحملن بايديهن أطفالا ذوي عيون سود. وصمت الرجــال بينما كانت النساء تنتظرن بلهفة حدوث شيء ما.

فتحت البوابــة ، وخرج إلى الشارع عدة ضبــاط شرطة، وتبعهما جنديان اقتادا كيرجالي المكبل بالقيود.

بــدا في سن الثلاثين. وكانت سمــات وجهه الذي لفحته الشمس دقيقة وصارمة. وكان مربوع القامة عريض المنكبين، وعموماً تدفقت من جسده قوة غير عادية. وكانت عمامته الزاهية الألوان تغطي رأسه، بينمــا تمنطق بحزام عريض على خصره الضامر، أما بقية ملبسه فيتألف مــن قفطان (دوليمان) من الجــوخ الأزرق السميك، وقميص بطيات واسعة، وحذائين جميلين. وكان مظهره ينم عن الكبرياء والهدوء.

وقــام أحد الموظفين، وهو شيخ أحمر البشرة ذو بدلة حائلة اللون، تدلت منها ثلاثة أزرار، وقد خدش بنظاراته الرصاصية الكوز الأحمر الذي يمثــل الأنف لديه،بفتح ورقة مطوية وبدأ بخنــة من أنفه القراءة باللغة المولدافية. وكان يتطلع بين الفينة والأخرى بعجرفة إلى كيرجالي المكبــل بالقيود، الذي تخصه الورقــة كما يبدو. وأصغى كيرجالي إليه باهتمــام. ثم أنهــى الموظف القــراءة، وطوى الورقة،وصــرخ بالناس مهــدداً داعياً إياهم إلى التفرق، وأمر بجلــب عربة الكارتسا. وحينئذٍ خاطبــه كيرجــالي وقال عــدة كلمات باللغــة المولدافيــة، كان صوته متهدجــاً، وتغيرت سحنة وجهه. واستغرق في البكاء وخر راكعاً عند قدمي موظــف الشرطة وهو يقرقــع بسلاسل قيــوده. وأراد الجنديان إنهاضــ كرجالي لكنه نهض بنفسه، ورفــع قيوده، وتوجه نحو العربة

وصاح:«هيا بنـا !». وجلس رجل الدرك إلى جانبه، وقرقع المولدافي بسوطه، وانطلقت العربة.

وسأل موظف شاب رجل الشرطة:- ماذا قال لك كيرجالي؟

فأجـاب الشرطـي ضاحكاً:- لقـد طلب مني (راجيـا- كذا) أن أعتني بأمر زوجتـه وطفله اللذين يعيشان في قرية بلغارية بالقرب من كيليا، - إنه يخشي أن يصيبهما مكروه بسببه. إن هؤلاء البشر حمقى.

إستبـد بي كـرب خانق لـدى سمـاع حديث الموظـف الشاب. وشعرت بالأسى علـى كيرجالي المسكين. و لم أعرف شيئاً عن مصيره لاحقـاً خلال فـترة طويلة. وبعـد مضي عدة أعـوام إلتقيت الموظف الشاب نفسه. ودار بيننا الحديث عن ذكريات الماضي. وسألته:-

ماهي أخبار صاحبنا كيرجالي؟ هل تعرف ما جرى له؟

فأجاب: - كيف لا أعرف، - ثم روى لي ما يلي:

أقتيد كيرجالي بعد نقله إلى ياسي إلى الباشا الذي أصدر حكمه بأن يعدم بإجلاسه على الخازوق. وتم تأجيل تنفيذ الحكم حتى موعد عيد ما. وحتى ذلك الحين زج به في السجن.

كان يحرسـ السجين ثمانية أتـراك(هم من بسطاء الناس وهم في قـرارة أنفسهـم قطاع طرق مثل كيرجـالي). وقد ابـدوا له الإحترام وأصغوا إلى قصصه العجيبة بالإهتمام المميز للشرق بأسره.

وارتبـط السجـين بالحرسـ بعلاقـة متينـة. وقـال كيرجـالي لهم مرة:«إخـواني! إن ساعتـي اقتربـت. ولـن يهرب أحد مـن مصيره.

وسأغادركم عما قريب. وأريد أن أترك لكم شيئاً ما للذكرى».

فأصاخوا اليه السمع.

وتابع كيرجالي قوله:– يا إخوان، قبل ثلاثة أعوام خلت حينما كنت أمارس قطع الطرق مع ميخايلاكي دفنا في البرية بالقرب من ياسي قدرا فيه نقود ذهبية (غالبينات). ويبدو أنني لن أحصل وكذلك هو على هذا الكنز. ليكن إذن لكم: خذوه وتقاسموه فيما بينكم بالتراضي.

وكاد الأتراك أن يصابوا بالجنون. وبدأ الحديث حول كيف سيجدون المكان الموعود؟وفكروا وامعنوا الفكر وقرروا أن يدلهم كيرجالي نفسه على المكان.

وعندما أقبل الليل. نزع الأتراك القيود من قدمي السجين، وربطوا يديه بحبل واتجهوا معه من المدينة إلى البرية.

اقتادهم كيرجالي، بإلتزام اتجاه واحد من تل الى آخر. وساروا طويلاً. وأخيراً توقف كيرجالي عند صخرة عريضة، وقاس إثنتي عشر خطوة عند الظهيرة، وداس الأرض وقال:«هنا».

توزع الأتراك المهام. فاستل أربعة منهم خناجرهم الطويلة (اتاغان)وبدأوا بحفر الأرض. وبقي ثلاثة آخرون للحراسة. بينما جلس كيرجالي فوق الصخرة وصار يراقب عملهم.

ثم سأل:– ماذا؟ هل ستنهون الحفر عاجلا؟ هل بلغتم النهاية؟

وكان الأتراك يجيبون:– « لم نجده بعد»، وعملوا بجهد حتى أن العرق تصبب من أجسادهم مدرارا.

وبدأ كيرجالي يعرب عن نفاد صبره.

فقال:- ما هؤلاء الرجال. إنهم لا يجيدون حفر الأرض كما يجب. لو كنت مكانهم لأنهيت الحفر خلال دقيقتين. يا أولاد! فكوا وثائقي وأعطوني الخنجر.

إنغمر الأتراك في التفكير وصاروا يتشاورون فيما بينهم.وقرروا فيما بينهم:

ما العمل؟ حسنا سنفك وثاقه ونعطيه الخنجر. وأي ضير في ذلك؟ هو واحد ونحن سبعة.- وفك الأتراك وثاقه وأعطوه خنجرا.

في نهاية المطاف أصبح كيرجالي حراً ومسلحاً. فماذا كان إحساسه !.. صار يحفر بهمة وساعده الحراس.. وفجأة طعن أحدهم بخنجره، وتركه في جسده بينما امتشق من حزامه مسدسين.

أما الستة الباقون فحين رأوا كيرجالي مسلحاً بمسدسين، ولوا هاربين.

وحالياً يمارس كيرجالي أفعال قطاع الطرق بالقرب من ياسي. ومنذ فترة قريبة بعث برسالة إلى حاكم المدينة طلب فيها خمسة الآف ليفي، وهدد في حالة عدم الدفع بأنه سيضرم النار في ياسي ويصل إلى الحاكم نفسه. فسلم إليه مبلغ خمسة الآف ليفي.

ذلكم هو كيرجالي؟

روسلافليوف

عندمــا طالعت «روسلافليوف» رأيت لعجبي أن موضوع الرواية يعتمد على حدث واقعي معروف جداً بالنسبة لي. ففي زمان ما كنت صديقــة للمرأة المسكينة التي اختارهــا السيد زاغوسكين لتكون بطلة روايتــه. وقد جذب انتبــاه الجمهور مجدداً حدث منســي، وأثار فيهم مشاعــر الغضب، التي أخمدها الزمــن، وعكر هدوء القبر. ولابد لي من التحدث قليــلاً عن شخصي. لأن مصيري كان مرتبطاً خلال فترة طويلة بمصير صديقتي المسكينة.

لقــد اخذوني إلى حفل البالو لأول مرة في عام ١٨١١. ولن أصف انطباعاتــي الأولى عنه. ويمكن أن يتصور المرء بيســر ما تشعر به صبية في السادســة عشرة من العمر، حــين تستبدل حجرات الطابق العلوي والمعلمين بحفلات البالو المستمرة بلا توقف. وقد انغمرت في خضم اللهو والمرح بكل حيوية سنين عمري و لم أكن افكر بعد.. وياللأسف: فذاك الزمن كان جديراً بالمراقبة.

كانت بين الصبايا اللواتي قدمن في حفلة البالو الأميرة (أطلق عليها زاغوسكــين إسم بولينا، وسأبقي على هذا الإسم). وسرعان ما ربطتنا عرى الصداقة في أحدى المناسبات.

فقــد كان أخي، الفتي البالغ الثانيــة والعشرين من العمر، ينتمي إلى

فئة الغندورين الشديدي التأنق في ذاك الزمان،وعمل موظفاً في مجلس إدارة الخارجية وعاش بموسكو، منغمساً في الرقص والمجون. فوقع في حب بولينا ورجاني أن أعمل على التقارب بيننا. وكان أخي معبود العائلة كلها، ويصنع مني كل مايريد.

ولدى التقرب من بولينا من أجل إرضاء رغبته، سرعان ما تعلقت بها بكل صدق. علماً أنها اتسمت بقدر كبير من الغرابة وبقدر أكبر بالجاذبية. و لم أكن أتفهمها بعد، لكنني أحببتها. وبدون شعور مني صرت أنظر إلى الأمور بعينيها وأفكر بمثل أفكارها.

كان والد بولينا رجلاً محترماً وصاحب مكانة، أي كان يتنقل في عربة يجرها حصانان ويحمل مفتاحاً ونجمة، بيد أنه كان نزقا متقلب الأهواء وبسيطاً. أما أمها فكانت بعكس ذلك، فهي إمرأة وقورة وتتميز بالرصانة والتفكير السليم.

وكان لبولينا حضور في كل مكان، ومحاطة بالمعجبين. وتلقى الملاطفة والمودة منهم - لكنها عانت من السأم، وأكسبها السأم مظهر التكبر والبرود. وهذا ما كان يناسب للغاية وجهها الإغريقي وسواد حاجبيها. وكنت أشعر بالبهجة حين كانت ملاحظاتي الساخرة تبعث الإبتسامة على هذا المحيا المتناسق الملامح والمترع بالسأم.

كانت بولينا ذات شغف شديدة بالمطالعة ولكن من دون اي أختيار. وتحتفظ لديها بمفتاح مكتبة أبيها. علماً أن غالبية كتب المكتبة تتألف من مؤلفات كتاب القرن الثامن عشر. وأطلعت على الأدب الفرنسي من مونتسكيو إلى روايات كريبليون. وحفظت روسو عن ظهر قلب. و لم يكن في المكتبة أي كتاب روسي باستثناء مؤلفات سوماروكوف التي لم تتصفحها بولينا أبداً. وقالت لي أنها تجد صعوبة في تفهم

الكلمـات الروسية المطبوعة، وفي أغلب الظـن أنها لم تقرأ شيئاً باللغة الروسية، ومنها القصائد التي كان يبعث بها الشعراء الموسكوفيون.

وهنـا أسمح لنفسي بوقفة قصيرة. هاقـد مضت، والحمد لله، فترة ثلاثـين عاماً توجه فيها لنـا نحن المساكين الإنتقـادات لكوننا لا نقرأ باللغـة الروسية ولا نتفاهـم (حسب الزعـم) باللغة الأم. (ملاحظة: مـن الأثم أن تكـرر الإتهامـات السخيفة إلى صاحـب رواية «يوري ميلوسلافسكـي»، فنحـن جميعاً قرأناهـا، وأعتقـد أن إحدانا تولت ترجمة روايته إلى اللغة الفرنسية). والمسألة تكمن في أنه كان سيبهجنا أن نقرأ بالروسية: لكن لغتنا، كما أعتقد، ليست أقدم من لومونوسوف كما أنها محـدودة للغاية. إنها تقدم لنا طبعاً عـدة شعراء ممتازين، لكن لا تجـوز مطالبـة جميع القراء بـأن يتذوقوا الشعر حصـرا. ولدينا من النثر فقط «تاريخ كارامزين»، وظهرت أول روايتين أو ثلاث روايات قبـل عـام او ثلاثة أعوام مضت، علماً بأن الكتـب المتميزة أكثر فاكثر في فرنسـا وانجلترا والمانيـا يصدر أحدها تلو الآخـر. كما أننا لا نرى حتى التراجم، وحتـى إذا ما رأيناها فإننا نفضل مع هذا قراءة الأصل. ومجلاتنـا تجذب المتعة إلى أدبائنا. ونحن نرغم على أن ننهل كل شيء، من الأخبار والمفاهيم، من الكتب الأجنبية. ولهذا فنحن نفكر باللغة الأجنبيـة (على أقـل تقدير جميع الذيـن يفكـرون او يتابعون أفكار النـوع البشري). وقـد اعترف لي بذلـك أشهر أدبائنـا. إن شكاوى أدباؤونـا المستمـرة بصـدد تجاهلنا للكتـب الروسية، تشبـه شكاوى البائعات الروسيـات، اللواتي يعتملهن الغضب لأننا نشتري القبعات مـن سيخلر[٣٥]، ولا نكتفي بإقتناء منتجات الخياطات في كوستروما. ودعنا نرجع إلى موضوعنا.

---

٣٥. مدام سيخلر بائعة قبعات آخر موضة باريسية– المترجم.

إن الذكريات حول حياة الطبقة الراقية قليلة وضئيلة عادة حتى في العهود التاريخية. لكن مجيء مسافرة إلى موسكو ترك لدي انطباعاً عميقاً. وهذة المسافرة هي المدام دي ستال. وقد جائت صيفاً حين كانت غالبية أهالي موسكو قد انتقلت إلى الأرياف. ودبت الحيرة في أصحاب كرم الضيافة الروسي، و لم يعرفوا كيف يتم قري الضيفة الأجنبية الشهيرة. طبعاً أنهم أقاموا لها المآدب. وجاء الرجال والنساء لإلقاء نظرة عليها لكن أكثرهم لم يكونوا راضين عنها. فقد رأوا إمرأة بدينة في الخمسين العمر، ترتدي ملابس لا تناسب عمرها. و لم تعجبهم لهجة حديثها، وبدا لهم أن أحاديثها مطولة جداً، أما الأكمام فقصيرة جداً. وأقام والد بولينا الذي كان يعرف مدام دي ستال منذ وجوده في باريس مأدبة على شرفها، دعا إليها جميع أذكيائنا الموسكوفيين. وهناك رأيت مؤلفة رواية « كورينا». كانت تجلس في الصدارة وقد استندت بمرفقيها على المائدة، وانهمكت في لف وفتح انبوبة من الورق بأناملها الجميلة. وبدا أنها منحرفة المزاج، وأرادت عدة مرات التحدث لكنها لم تستطع ذلك. أما اذكياؤنا فكانوا يأكلون ويشربون على هواهم، وبدا أنهم كانوا راضين أكثر عن حساء سمك الأمير، من محادثة مدام دي ستال. أما السيدات فكن يتكلفن الوقار. بيد أن هؤلاء وأولئك كانوا فقط يقطعون حبل الصمت في أحيان قليلة، لقناعتهم بتفاهة أفكارهم ولخوفهم من الكلام في حضور المرأة الأوروبية الشهيرة. وطوال فترة الغداء كانت بولينا وكأنها جالسة على أطراف الإبر. وتقاسم الحاضرون الإهتمام بين سمك الزجر ومدام دي ستال. وكانوا ينتظرون في كل لحظة أن تبدر عنها *bon–mot*)مزحة ما(، وفي نهاية المطاف انطلقت منها عبارة مبهمة، وهي حتى جريئة جداً. فتلقفها الجميع، واستغرقوا في القهقهة، وبدأ الهمس المشوب بالتعجب. أما الأمير فكان في غاية الإبتهاج. وتطلعت إلى بولينا. كان

وجههـا قد اصطبغ بالحمـرة، وترقرقت الدموع مـن عينيها. ونهض الضيـوف مـن المائدة في توافق تـام مع مدام دي ستـال: إذا تفوهت بعبارة تورية سيتناقلونها في جميع أنحاء المدينة.

سألـت بولينا:- ماذا جـرى لـك، *ma che're*[٣٦]؟ هل يمكن أن تجعلك مزحة، حرة لحد ما، أن تزعجك لهذه الدرجة؟

فأجابت قائلة:- آه ياعزيزتي، إنني أشعر بالقنوط واليأس. فقد كان من الحقارة أن تقدم لهذا الجمع الكبير مثل هذه المرأة الفذة غير العادية ! إنهـا اعتـادت على أن يحيـط بها أناس يفهمونهـا، لا تضيع لديهم الملاحظة الرائعـة، ونبضة القلب القوية والكلمة الملهمة، إنها اعتادت على الأحاديث الشيقة التي تنم عن الثقافة الرفيعة. أما هنا.. ياآلهي! لم تطرح فكرة واحدة، ولم ترد كلمة واحدة رائعة طوال ثلاث ساعات! ثمـة وجوه بليدة، ورزانة بليدة - فقط لا غـير ! وكم بدا عليها السأم ! كم بدا عليها الإجهاد! لقد رأت ماذا يريدون، وماذا يمكن أن تفهم قرود التنوير هذه، فتفوهت أمامهم بعبارة التورية. واذا بهم يتلقفونها بهذه السرعة ! لقد تملكني الخجل وكنت مستعدة للبكاء...- وتابعت بولينا بحماسـ قائلة: - ليكن، ودعها تحمل معهـا رأياً حول مجتمعنا الراقـي المتخلـف هو جدير به. علـى الأقل أنهـا رأت شعبنا الطيب البسيـط وتفهمـه. هـل سمعت ما قالتـه إلى ذلك العجـوز، المهرج الثقيـل الظل، الذي أراد السخرية من اللحى الروسية بغية إرضاء المرأة الأجنبيـة حين قـال:« إن الشعب الذي دافع قبل مئـة عام مضت عن لحيته، سيدافع في زماننا عن رأسه «. كم هي لطيفة! وكم أحبها! وكما أكره من يضطهدها!».

٣٦. يا عزيزتي (بالفرنسية)

لم أكـن الوحيدة التي لاحظـت استياء بولينا. فهنـاك عيون ثاقبة البصر أخـرى توجهت نحوها في تلك اللحظة: والعينان السوداوان لمدام دي ستال نفسها. ولا أعرف بم كانت تفكر، لكنها اقتربت من صديقتـي بعد مأدبة الغداء وتبادلت معهـا الحديث. وبعد بضعة أيام كتبت مدام دي ستال إليها قصاصة جاء فيها:

Ma che're enfant,je suis toute malade.Il serait bien amiable a' vous de venir me ranimer.Ta'chez de l'obtenir de m-me votre me're et veuillez lui pre'senter les repects de votre amie de S.(37)

إن قصاصـة الورق هذه محفوظة لدي. و لم توضـح بولينا لي أبداً علاقاتهـا مع مـدام دي ستال، بالرغم من كل مـا ابديته من فضول. إنها كانت معجبة للغاية بهذه المرأة الكريمة الطيبة بقدر ما هي فذة.

لكن إلى أي حد يصل الولع بالغمز واللمز.! فمنذ فترة قريبة قلت هـذا كله في أحد المجتمعات المحترمة. فقالوا لي:« ربما أن المدام دي ستـال لم تكن سوى جاسوسة لنابليـون، بينما كانت الأميرة تزودها بالمعلومـات اللازمة «.فقلـت: «رحماكم،إن نابليـون لاحق مدام دي ستـال عدة سنـوات، إن مدام دي ستال النبيلـة والطيبة الهاربة قضـراً لكي تجد الحماية لـدى الإمبراطور الروسي، مـدام دي ستال صديقـة شاتوبريان وبايـرون، مدام دي ستال هل تكـون جاسوسة لنابليون!..». وعارضتني الماركيزة (ب) المعقوفة الأنف قائلة:« كل

٣٧. – صغيرتي العزيزة، انني مريضة تماماً. سيكون من غاية اللطف من جانبك لو أتيت إلي من اجل بعث الحيوية في. اعملي على طلب السماح من امك وأرجو ان تنقلي إليها تحية موقرة من دي سال التي تحبكم(بالفرنسية)– المترجم.

شـيء ممكن جداً، جداً. كان نابليون مكاراً، ومدام دي ستال واحدة ماهرة!».

تحـدث الجميع عن اقـتراب العدو، وكمـا أتذكـر كان حديثهم طائشاً للغاية. وساد تقليد الموضـة الفرنسية في أزمان لويس الخامس عشر. واعتبر حـب الوطن نوعاً من التصنـع والحذلقة. والأذكياء في تلك الأيام عظمـوا نابليون بتذلل غيور وهـزأوا لإخفاقاتنا. ولسوء الحظ فـإن المدافعين عن الوطـن كانوا بسطاء نوعاً مـا، وكان الهزء بهـم يتم من بـاب التسلية جـداً و لم يكن لهم أي نفـوذ. واقتصرت روحهـم الوطنية على التأنيب الشديد لاستخـدام اللغة الفرنسية في المجتمعـات، واستعمال الكلمـات الأجنبية،والتهجمـات الغاضبة على شارع كوزنيتسكي موست[٣٨]. وهلمجرا. أما الشباب فكانوا يتحدثـون عن كل ما هـو روسي باحتقار أو بلا مبـالاة ويسخرون متنبئين أن يكون مصـير روسيا مثل مصير كونفدرالية الراين. صفوة القول أن المجتمع كان يبعث على التقزز جداً.

وبغتـة وردت أنباء الإجتياح وصدور نـداء القيصر مما أثار ذهولنا. وساد القلق في موسكو. وظهرت بلاغات العمدة راستوبتشين المكتوبة بلغة شعبية بسيطة، وسـاد الغضب الشعب. وهدأ المولعون بالسخرية والمجـون في المجتمعات الراقية. بينمـا انتفضت السيـدات. وسيطر في المجتمعـات بحـزم ملاحقوا اللغة الفرنسية وشـارع كوزنيتسكي موسـت وامتلأت الصالونـات بذوي النزعة الوطنيـة: فترى أحدهم ينفضـ من علبة السعوط التبغ الفرنسـي ويبدأ يستنشق التبغ الروسي، بينمـا أخذ آخر بإحراق عشرات الكراريسـ الفرنسية، وعمد البعض

٣٨. شارع تجاري بوسط موسكو كانت تباع فيه ايامذاك السلع الفرنسية –المترجم.

إلى التخلي عن شرب نبيذ لافيت الفرنسي وبدأ يتناول حساء الملفوف الروسي الحامض. وأقسم الجميع بأنهم لن يتحدثوا باللغة الفرنسية بعد اليوم، وهلل الجميع لبوجارسكي ومينين[٣٩]، وصاروا يدعون إلى خوض الحرب الشعبية،معتزمين ركوب العربات والتوجه إلى قرى ساراتوف.

لم تتمالك بولينا عن إخفاء احتقارها، كما لم تخف من قبل غضبها. إن مثل هذا التغير السريع والجبن جعلها تفقد صبرها. وصارت تتحدث باللغة الفرنسية عمداً في البولفار وعند ضفاف برك بريسنيه، وتقوم عند المائدة وبحضور الخدم عمدا بنقد التباهي بالروح الوطنية، وتتحدث عمداً عن قوات نابليون الكبيرة العدد، وعن عبقريته العسكرية. أما الحاضرون فكان الشحوب يعلو سحناتهم خشية أن يقوم أحدهم بالوشاية، ويسارعون إلى لومها لكونها تحابي عدو الوطن. أما بولينا فكانت تبتسم بإحتقار. وقالت: « ليجعل الرب جميع الروس يحبون وطنهم كما أحبه أنا ». كانت تثير دهشتي. فقد عرفت بولينا دوما كفتاة متواضعة وقليلة الكلام و لم أفهم من أين لها كل هذه الجرأة. وقلت لها مرة: « رحماك، ما لك تتدخلين في أمر لا يعنينا. ودعي الرجال يتخاصمون فيما بينهم ويتصايحون حول السياسة. إن النساء لا يذهبن إلى الحرب، ولا يعنيهن أمر بونابرت ». وتألق بريق في عينيها وقالت: « اخجلي، هل النساء بدون وطن؟ ألا يوجد لديهن آباء واخوان وأزواج؟ هل أن الدم الروسي غريب عنا؟ أم انك تعتقدين أننا ولدنا فقط من أجل ان يدوروا بنا في الحفلات في رقصة الايسكيز وتطريز نقوش كلاب على قماش القنب؟ كلا، أنا

---

٣٩. مينين وباجارسكي– من قادة المقاومة الشعبية في الحرب ضد الاحتلال البولندي لموسكو– المترجم.

أعرف مدى ما يمكن أن يكون عليه نفوذ المرأة في الرأي العام أو حتى قلب أحد الرجال. إنني لا أعترف بالمهانة التي تفرض علناً. أنظري إلى مدام دي ستال: لقد كافحها نابليون باعتبارها قوة معادية.. بينما يتجرأ عمي على السخرية من خوفها لدى اقتراب الجيش الفرنسي! « إطمأني ياسيدتي، إن نابليون يحارب ضد روسيا وليس ضدك». نعم ! إذا ما وقع عمي بأيدي الفرنسيين لأفرجوا عنه لكي يتجول في باليه-رويال، أما مدام دي ستال فكانت في هذه الحال ستلقى حتفها في سجن الدولة. وشارلوتا كورديه؟ وإبنة جلدتنا مارفا بوسادنتسا؟ والأميرة داشكوفا؟ بم أنا اقل منهن منزلة؟ حقا إنني ربما أقل منهن في الجرأة والحزم». إنني أصغيت إلى بولينا بتعجب. فإنني لم أكن اتصور أن لديها مثل هذا الحماس، ومثل هذا الشعور بالعزة والكرامة. وأسفاه ! إلى ما قادت إليه خصال روحها غير العادية وسمو العقل الجريء. إن كاتبي المحبوب كان على حق حين قال:

Il n'est de bonheur que dans les voies communes (٤٠).

أثار مجيء القيصر إلى اشتداد الإضطراب العام. وفي نهاية المطاف غمرت بهجمة الحماس الوطني علية القوم في المجتمع. وتحولت الصالونات إلى قاعات للجدل. ودار الحديث في كل مكان عن التبرعات الوطنية فقط. وجرت استعادة الكلمة الخالدة للكونت الشاب مامونوف الذي تبرع بكل ممتلكاته. ولاحظت بعض الأمهات بعد ذلك أن الكونت ليس خطيباً يحسد عليه، لكن الجميع أبدوا الإعجاب به رغم ذلك. وولعت بولينا به. وقالت لأخي مرة:« بم ستتبرع؟». فأجاب أخي الشاب الطائش:« أنا لا امتلك ضيعة بعد.

---

٤٠. ربما ان المقصود بالكاتب هو شاتوبريان. والقول هو أنه لا يمكن ايجاد السعادة إلا في الطرق المعبدة-المترجم.

ولدي فقط ديون بمبلغ ٣٠٠٠٠، وأنا أقدمها قرباناً على مذبح الوطن «. فغضبت بولينا. وقالت:« إن الشرف والوطن لدى بعض الناس من الأمور التافهة كلها. إن إخوانهم يموتون في ميدان القتال، بينما تجدهم يهزلـون في الصالونات. وأنا لا أدري فيما إذا توجد إمرأة، متدنية إلى الحـد الذي تسمح بـه إلى مثل هؤلاء المهرجـين بالتصنع في الإعراب عـن الحب». فانفجر أخي قائـلاً:« إنك صارمة جـداً، أيتها الأميرة. أنت تريديـن أن يرى الجميع فيك مثال مدام دي ستال وتتحدثين إلينا أقوالاً رنانة من رواية « كورينا «. أتعرفين، أن من يهزل مع المرأة يمكن ألا يهـزل أمام الوطـن وأعدائه». وبعد هذا القـول انصرف مبتعداً. واعتقـدت بأنهما تخاصما إلى الأبد، ولكننـي كنت على خطأ: فقد اعجبت بولينا بجسارة أخي، وغفرت له مزحته الثقيلة باعتبارها فورة غضب نبيلة، وعندما علمت بعد أسبوع أنه إنضم إلى كتيبة مامونوف، طلبـت مني نفسها أن أصالحهما. وقد ابتهج أخي لذلك. وعلى الفور طلـب يدها. ووافقت علـى تأجيل الزفاف إلى ما بعـد نهاية الحرب. وفي اليوم التالي سافر أخي للإلتحاق بالجيش.

كان نابليـون يزحف نحو موسكو، بينما كانت قواتنا تتراجع. وساد القلق والإضطراب بموسكو. وصار أهلها يغادرونها الواحد تلو الآخر. وطلب الأمير والأميرة من والدتيالسفر سوية إلى قرية (س)...

وصلنـا إلى القرية(س)، وهي قرية كبـيرة تبعد ٢٠ فرستا عن المدينة مركـز المحافظـة. وكان إلى جانبنا الكثـير من الجيران جـاء أغلبهم من موسكـو. وكانوا يجتمعون يومياً سوية، أما حياتنا الريفية فكانت شبيهة بالحياة في المدينة. وكانت الرسائل ترد من الجيش يومياً، وتنهمك العجائز في البحـث على الخارطة عن أماكن مرابطة المعسكرات، ويغضبن حين لا يجدنهـا. أما بولينا فكانت مشغولـة بالسياسة فقط، ولا تطالع سوى

الصحف، وبلاغات راستوبتشين، ولا تفتح أي كتاب. وأصابتها كآبة شديدة حيث كانت محاطة بأفراد ذوي مفاهيم ضيقة، وتسمع بإستمرار الأحكام السخيفة والأخبار الخالية من أي أساس. كما كانت روحها تفيض حزناً. وبقيت كئيبة كاسفة البال بشأن إنقاذ الوطن، وترائى لها أن روسيا تقترب بسرعة من سقوطها، وكان أي بلاغ رسمي يفاقم يأسها، بينما تجعلها بلاغات الشرطة الصادرة عن الكونت راستوبتشين تفقد صبرها. واعتبرت أسلوبهم في المزاح ذروة الإسفاف، أما التدابير التي يتخذونها فهي وحشية لا تطاق. إنها لم تدرك فكرة ذلك الزمن، العظيمة في هولها، الفكرة التي من شأن تنفيذها بجرأة أن ينقذ روسيا ويحرر أوروبا. وكانت تنفق الساعات بإسناد مرفقيها على خارطة روسيا وحساب الفرستات ومتابعة التحركات السريعة للقوات. وراودت رأسها أفكار غريبة. وقالت لي مرة أنها تعتزم مغادرة القرية والتوجه إلى المعسكر الفرنسي والوصول إلى نابليون واغتياله هناك بيديها. ووجدت صعوبة في إقناعها بأن هذا ضرب من الجنون. لكن لم تفارقها خلال فترة طويلة الفكرة حول شارلوت كورديه.

فقد كان والدها كما ذكرت آنفا رجلا طائشاً، ولم يفكر سوى في أن يحيا في القرية كما في موسكو بقدر الإمكان. وكان يقيم المآدب، ويقدم في بيته عروض "*the'atre de soccie'te*"[41]، حيث كانت تتلى *proverbes*[42] الفرنسية، وكان يسعى بكل السبل إلى تنويع وسائل متعتنا. ووصل إلى القرية عدد من الضباط الأسرى الفرنسيين. وسر الأمير لظهور أشخاص جدد ورجا المحافظ السماح بإسكانهم في ضيعته...

---

٤١. مسرح الهواة البيتي (بالفرنسية)– المترجم.

٤٢. الاقوال المأثورة (بالفرنسية)– المترجم.

كانـوا أربعة - ثلاثة منهـم أفراد لا أهمية لهم ومـن المتعصبين في الـولاء إلى نابليون، وكثـيري الصراخ بشكل لا يحتمـل، حقاً، إنهم يعوضـون عن تبجحهـم بجراحهـم الكريمة. أما الرابع فـكان رجلاً متميزاً للغاية.

وكان في سـن ٢٦ عاماً. وينحدر من محتـد طيب. مشرق الوجه. وأسلوبـه في الـكلام طيب جـداً. وقد جـذب انتباهنـا فوراً. وتقبل ملاطفاتنـا بتواضـع نبيـل. كان قليل الـكلام، ألا أن أقوالـه إتسمت بالمنطـق. وأعجبـت بولينـا به لأنـه ساعدهـا في توضيـح العمليات العسكريـة وتحركات القوات. وطمأنها مؤكـداً أن انسحاب القوات الروسية ليس هروباً بلا معنى، وقد أثار قلق الفرنسيين كما شدد مواقف الروس. وسألته بولينا» وأنت، ألست واثقـا من أن إمبراطكوركم لا يقهر؟ «. ولزم السنيكور(أي العاطل وقد أطلق عليه هذا الإسم السيد زاغوسكـين) لزم الصمـت قليلاً ثم أجـاب بأن الصراحـة في وضعه ستكـون صعبـة. ولكن بولينـا أصرت على تلقي الجـواب. فأعترف السنيكور بأن تقـدم القوات الفرنسية في قلب وأعماق روسيا يمكن أن يشـكل خطراً عليها وأن حملة عام ١٨١٢ لا تمثل، طبعاً، أي شيء حاسـم. وعارضته بولينـا قائلة:« طبعاً ! لكن نابليـون يواصل التقدم ، ونحـن نواصل الإنسحـاب!» - فأجاب السنيكـور « وهو الأسوأ بالنسبة لنا»، ثم غير مجرى الحديث.

علمـاً أن بولينا التي ضجرت من سماع التنبوءات الجبانة، والتبجح الأحمـق لجيراننا، كانت تصغي بنهم إلى الأقـوال القائمة على معرفة بالأمـور وعدم الإنحياز. وكانـت تتلقى من أخـي رسائل لا يمكن أن تفهـم أي شـيء منها. فكانت مترعـة بالفكاهـات، والقضايا الذكية والسيئة عن بولينا، والتأكيـدات المبتذلة في حبها وهلمجرا. وكانت

بولينـا تقرأهـا فتقنط وتهـز كتفيها. وقالـت « إعترفي، بـأن اخيك الكسـي رجل تافه. فحتى في هـذه الظروف، يجد في ميادين المعارك القـدرة علـى كتابة رسائل لا معنـى لها، فماذا سأتحـدث معه في أثناء الحيـاة العائلية الهادئـة؟». لكنها كانت على خطأ. فـإن خواء رسائل أخي نابع ليس من تفاهة شخصيته ، بل من المنطق المهين جداً بالنسبة لنـا نحن النساء: فقد كان يعتقد أنه يجب أن يستخدم لغة تتناسب مع ضعـف مداركنا، وأن الأمور الهامة لا تمسنـا. ومثل هذا الرأي يعتبر في كل مكان فظاً، وبالنسبة لنا فهو سخيف. ولا نكران في أن النساء الروسيـات ذوات تعليـم أفضل مـن الرجال المشغولـين بأمور الرب وحده يعرف ما هي.

انتشر نبـأ معركة بورودينو. وصار الجميـع يتحدثون عنها، وكان لـدى كل واحد النبأ الأكـثر صواباً، ويمتلك كل واحـد قائمة بأسماء القتلـى والجرحى.ولم يبعـث لي أخي الرسائل. وكنـا في غاية الجزع والقلـق.وفي نهاية المطاف جاء إلينا أحد مروجي شتى الأخبار وأبلغنا بأنـه وقع في الأسر، بينما همس لبولينا بأنـه قتل. وجزعت بولينا بالغ الجـزع. إنها لم تكن تحـب أخي وغالبا ما كانت تنزعج منه، لكنها في تلك اللحظة رأت فيه شهيداً وبطلاً، وبكته سراً بعيداً عني. ووجدتها عدة مرات والدموع تترقرق في عينيها. و لم يدهشني ذلك، فقد كنت أعرف مدى تألمها لمصير وطننا المحارب. و لم تراودني الشكوك بصدد السبب الآخر لحزنها.

واتفق لي مرة أن كنت اتنزه في الحديقة صباحاً حين مر بي السنيكور، ودار الحديث بيننا عـن بولينا. وقد لاحظت أنه تحسس تحسساً عميقاً مزاياهـا الفذة وترك جمالها فيه بالغ الإنطباع. فضحكت واشرت إلى ان وضعـه رومانسي جدا. فالفارس الجريح يقع في أسر العدو ويعشق

صاحبة القصر النبيلة، ويمس شغاف قلبها وأخيراً يستلم يدها. فقال لي السنيكور:« كلا، إن إبنة الأمير ترى في عدواً لروسيا، ولن توافق أبدا على مغـادرة وطنها».وفي هذه اللحظة ظهـرت بولينا في نهاية الممر المشجـر فتوجهنا للقائها. اقتربت منا وهي تغذ الخطى. وذهلت لرؤية شحوب وجهها.

فقالـت لي:«سقطـت موسكـو «، دون أن تلقي بـالاً إلى انحناءة السنيكور.وشعـرت بانقباضـ قلبـي، وتدفقت الدمـو ع مدراراً.أما السنيكور فقد لـزم الصمت، وأجال عينيه الشاردتين ذاهلاً. ومضت بولينا قائلة بصوت متهدج من الغضب:« الفرنسيون النبلاء المتنورون كللـوا نصرهم بشكل لائق. إنهم أحرقوا موسكو. موسكو تحترق منذ يومـين». وهتف السنيكور:« ماذا تقولـين، هذا غير ممكن». واجابته بجفاء:«إنتظر قدوم الليـل. وسترى وهج الحريق».وقال السنيكور:« الهي!إنـه هـلاك. ألا تـرون أن حريـق موسكـو هو هـلاك القوات الفرنسيـة كلها، ولن يجـد نابليون في أي مـكان أي شيء للصمود، وسيضطـر عاجلاً للإنسحاب عبر أرض عمهـا الخراب والخواء لدى اقـتراب الشتاء مع قوات يسودها الإضطراب والسخط!وكيف أمكن أن تتصورا بأن الفرنسيين أنفسهم حفروا لأنفسهم جهنم! كلا، كلا، الروسـ والروس هم من أضرم النـار في موسكو. هذه شهامة وحشية ! الآن تقـرر كل شـيء: لقد خرجـت بلادكم من الخطـر، لكن ماذا سيحدث لنا، وماذا سيحدث لإمبراطورنا...».

تركنـا وانصـرف. أما بولينـا وأنا فلـم نتمكن من تمالـك أنفسنا. وقالـت» هل يعقل أن هذا صحيـح، وأن السنيكور على حق وحريق موسكـو من فعل أيادينا؟ إذا كان الأمـر كذلك... فيمكنني أن افتخر بكوني روسية. وسيدهش الكون للتضحية العظيمة ! الأن انا لا أخشى

سقوطنـا، فقد أنقـذ شرفنا. ولن تتجرأ أوروبا علـى القتال ضد شعب يقطع يديه ويحرق عاصمته «.

وتـلألأ بريـق في عينيهـا، واكتسب صوتهـا رنينـا. فاحتضنتها، وامتزجـت دموع البهجة الكريمة بالإبتهالات الحارة من أجل الوطن. وقالـت لي بولينـا وقـد اكتسبت هيئتها سمـة الإلهـام:« ألا تعرفين؟ أخوك... إنه سعيد، إنه ليس في الأسر،فأفرحي: إنه قتل من أجل إنقاذ روسيا».

فصرخت وفقدت الوعي وسقطت في أحضانها...

ملكة البستوني

ملكة البستوني تعني
الحقد الدفين
(كتاب كشف الطالع الحديث)

١

كانوا في الأيام الغائمة
غالباً
ما يجتمعون
وطرحوا–ليغفر لهم الرب!–
من خمسين
إلى المئة،وفازوا،
وسجلوا
بالطباشير.
هكذا كانوا في الأيام الغائمة
يمارسون
العمل.

حـدث مـرة أن مارس رهط مـن الرجـال لعب الـورق في بيت ناروموف الضابط في كتيبة الفرسان. وانقضت الليلة الشتوية الطويلة من دون أن تلحظ، وجلسوا لتناول العشاء في الساعة الخامسة صباحاً. وكان الرابحـون يأكلـون بشهية كبـيرة، أما الباقـون الخاسرون فقد جلسوا شـاردي الذهن أمام صحونهم الفارغـة. لكن عندما قدمت الشمبانيا، بدأ الحديث بحيوية، وشارك الجميع فيه.

سأل صاحب البيت: – ماذا فعلت، ياسورين؟

لقــد خسرت كالعادة. ولابد من الإعــتراف بأن الحظ لا يحالفني: أنــا ألعب الميراندول، ولا أتهيــج أبداً،ولا يوجد ما يحيرني، ومع ذلك أخسر!

هــل إنك لم تستسلم للإغراء أبداً؟ و لم تضــع على الروتيه ولو مرة واحدة؟..إن صمودك يدهشني.

وقال أحد الضيوف: وما حال غيرمان!– وأشار إلى مهندس شاب – إنه لم يمسك ورق اللعب في حياته أبداً، و لم ينخرط في أي رهان في حياته، بينما جلس معنا حتى الساعة الخامسة وراقب اللعب.

فقال غيرمان: إن اللعب يجذبني بقوة. لكنني لا أستطيع التضحية بما هو ضروري أملاً في كسب الفائض.

ولاحــظ تومسكي:– إن غيرمان ألماني يحسب لكل شيء حسابه، وهــذا مجمــل القضية كلهــا! وإذا كان هناك ما لا أفهمــه فهي جدتي الكونتيسة آنا فيدوتوفنا.

فصاح الضيوف:– كيف؟ وماذا؟

وتابــع تومسكي قائــلاً:– أنا لا افهم كيــف لا تتحداني جدتي في اللعب!

وقــال نارووموف:– ما العجــب في أن العجوز البالغة سن الثمانين لا تتحدى في اللعب!

هل إنك لا تعرف شيئاً عنها؟

كلا! حقا، لا أعرف شيئا!

اوه، إذن فاسمع.

لا بد من معرفة أن جدتي سافرت قبل ستين عاما مضت إلى باريس وكانــت هناك في طليعة الموضة. وكان الناس يتراكضون ورائها لرؤية *la Ve'nus moscovite*[٤٣]. وغازلهــا ريشليو، وتؤكد جدتي أنه كاد أن يطلق النار على نفسه بسبب قسوتها تجاهه.

في تلــك الأيام كانت السيــدات تمارسن لعبــة الورق »الفرعون«. وحــدث مرة في البــلاط أن خسرت حسب قــول دوق اورليان مبلغاً كبيراً جداً. ولدى عودة جدتي إلى البيت أزالت عن وجهها الشامات الزائفة ونزعت هيكل الشبكة تحت ردائها وأمرت بدفع مبلغ الخسارة.

وكان المرحوم جدي، كما أذكر، يقوم مقام كبير خدم جدتي. كان يخشاها خشيته من النار، لكنه حين سمع بمبلغ الخسارة الباهضة خرج عن طوره، وجلب لها الحسابات وأثبت لها أنهما خسرا خلال نصف عــام نصف مليــون، ولا توجد لديهما في ضواحــي باريس ممتلكات قرية في ضواحي موسكــو أو ساراتوف. ورفض الدفع بشكل قاطع. ووجهــت جدتي صفعة اليه، ورقــدت في الفراش لوحدها تعبيرا عن عدم رضاها.

في اليــوم التــالي أمرت جدتي بدعــوة زوجها أمــلاً في أن تكون العقوبة البيتية قد أثرت، لكنها وجدت أنه ثابت على رأيه. ولأول مرة في حياتها بلغ الأمر بها لحــد مناقشته وإيضاح الأمور له، وأن الديون مختلفــة عن بعضها البعض وأن هناك فرقا بين الأمير والحوذي. – لكن بــلا جدوى! فقد تمــرد الجد. كلا، فقط ! و لم تعــرف جدتي ما ينبغي عمله.

وكان يوجــد لديهــا أحــد الأشخاص الذيــن لديها معرفــة عابرة

٤٣ . فينوس الموسكوفية (بالفرنسية)– المترجم.

بهم، لكنه إنسان طيب. إنكم سمعتم بالكونت سان–جيرمين الذي تروى عنه أمور عجيبة كثيرة. وانتم تعرفون أنه أعلن بأنه « اليهودي الأبدي»، وانه صنع اكسير الحياة وحجر الفلاسفة وهلمجرا. وكان الناس يسخرون منه ويعتبرونه محتالاً. وذكر كازانوفا في يومياته بأنه كان جاسوساً. إلا أن سان – جيرمين بالرغم من غموض شخصيته كان يتسم بالوقار ويسلك في المجتمع سلوكاً ودياً جداً. علما ان جدتي تحبه حتى الآن وتغتاض اذا ما تحدث احد ما عنه بلا احترام. وكانت جدتي تعرف أن سان –جيرمين ربما يمتلك أموالاً طائلة. وقررت اللجوء اليه. فكتبت اليه رسالة راجية أن يأتي إليها فوراً.

فجاء العجوز الغريب الأطوار إليها حالاً فوجدها وقد روعتها المصيبة وهفا قلبها جزعاً. فحدثته بأبشع العبارات قتامة عن وحشية زوجها وفي نهاية المطاف قالت أنها تضع أملها كله على صداقته ولطفه.

وأمعن سان–جيرمين في التأمل. ثم قال:

« أنا أستطيع أن أعطيك هذا المبلغ.لكنني أعرف بأنك لن تهدأي حتى تردين المبلغ إلي، وأنا لا أريد أن اسبب لك هموما جديدة. ثمة وسيلة أخرى: يمكنك أن تستردي خسارتك».

فأجابت جدتي:« لكنني أقول لك أيها الكونت الطيب أننا لا نمتلك النقود البتة».وقاطعها سان – جيرمين بقوله: – لا حاجة للنقود، وأسمحي بالإصغاء إلي «. وعندئذٍ كشف لها سراً قد يدفع كل واحد منا ثمناً غالياً للحصول عليه...

وضاعف اللاعبون الشباب اهتمامهم. وأخذ تومسكي يجر الأنفاس من غليونه فترة طويلة ثم واصل الكلام.

في مســاء اليوم نفسه جائت الجدة إلى قصـر فرساي *au jeu de la Reine*[٤٤]. وكان دوق اورليــان يوزع الورق. فأعتذرت الجدة قليلا لكونهــا لم تجلب مبلـغ الدين المطلـوب منها، وابتدعــت لتبرير ذلك بقصــة صغيرة مــا وجلست مقابلـه لمنازلته. واختــارت ثلاث أوراق رتبتهــا الواحــدة خلف الأخرى، ففــازت الأوراق الثــلاث لحساب صندوقها(سونيك)، وبهذا استردت الجدة خسارتها كاملة.

قال أحد الضيوف: هل أنها مصادفة؟

فلاحظ غيرمان: حكاية !

واستطرد ثالث قائلاً: ربما أن الأوراق مزورة؟

وأجاب تومسكي بوقار:– لا أعتقد.

وقال ناروموف:– ما الأمر! لديك جدة تحزر ثلاث أوراق متتالية، بينما لم تحصل منها حتى الآن على أرقامها القبلانية السحرية؟

فأجاب تومسكي:– هيهات ! فقد كان لها أربعة أبناء أحدهم أبي، والأربعــة جميعاً من لاعبي القمــار المتهورين،لكنها لم تكشف سرها لأي واحد منهم، بالرغم من أن هذا كان قد يجلب المنفعة لهم وحتى إلي. وإليكــم ما حدثني به عمي، الكونت ايفــان ايليتش، وأكد ذلك بالقسم على شرفه. إن المرحــوم تشابليتسكي وهو الذي مات في فقر مدقع بعد خسارته الملايين، خسر في شبابه – كما أذكر أمام زوريتش – حوالي ثلاثمئة ألف. وكان يائساً.فاشفقت جدتي على تشابليتسكي، رغــم أنها كانــت دوماً صارمة حيــال أفاعيل الشبــاب. فسلمت إليه

---

٤٤. للمشاركة في لعب الورق لدى الملكة–(المترجم).

الأوراق الثلاث الواجب ترتيبها على التوالي، وأخذت منه كلمة شرف بأن لا يمارس بعد هذا لعب القمار أبداً. فجاء تشابليتسكي إلى خصمه الذي خسر أمامه وبدءا اللعب. ووضع تشابليتسكي على الورقة الأولى خمسين ألفا وفاز بالصندوق، وضاعف الرهان ففاز، وكسب المزيد...

لكن حان وقت النوم: إذ بلغت الساعة السادسة إلا ربعاً.

وفعلا لقد انبلج نور الفجر: واحتسى الشباب أقداحهم ثم انصرفوا.

٢

-Il parait que monsieur

est de'cide'ment pour les suivantes.

-Que voulez-vous، madame? Elles sont plus fraiches.(٤٥)

(من احاديث الصالونات الراقية)

كانت الكونتيسة العجوز جالسة أمام المرآة في غرفة الزينة. وأحاطت بها ثلاث فتيات. وأمسكت إحداهن بيدها علبة الحمرة،والأخرى أمسكت علبة الدبابيس، بينما أمسكت الثالثة قلنسوة عالية ذات شرائط بلون ناري. ولم تكن الكونتيسة تصبو البتة إلى الحفاظ على الجمال الذي ذوى منذ وقت بعيد، إلا أنها حافظت على عادات أيام الشباب، والإلتزام الصارم بموضة أعوام السبعينيات. كما كانت ترتدي ملابسها إبان فترة طويلة، وبكل حرص كحالها

٤٥.. - انكم كما يدو تفضلون بشكل قاطع الخادمات المختصات بالازياء (بالفرنسية).

- ما العمل انهن اكثر نضارة.(بالفرنسية)

قبل ستين عاماً خلت. وجلست عند النافذة آنسة هي ربيبتها.

قـال الضابط الشاب لدى دخوله: مرحبـاً، [٤٦]*grand maman*، *jour*،*mademoiselle LiseBon*.لدي رجاء اليك *grand maman*.

ما هو يا *Paul* ؟

إسمحـي لي بأن اقدم لك أحد أصدقائي وأن أدعوه اليك في حفلة البالو يوم الجمعة.

أدعوه إلى الحفل مباشرة وقدمه لي هناك. هل كنت بالأمس عند ؟

طبعـاً. كان الحفل مرحاً جداً، ورقصنا حتـى الساعة الخامسة. ما أحلى يليتسكايا !

هـه، ياعزيزي ! أية حلاوة فيها؟ وهل كانت كذلك جدتها الأميرة داريا بتروفنا؟.. بالمناسبة: انا أقول لك أنها هرمت جداً.. داريا بتروفنا؟

فأجـاب تومسكي بذهول: كيف هرمت؟ إنهـا توفيت قبل سبعة أعوام.

رفعت الآنسة رأسها وأعطت اشارة برأسها إلى الشاب. وتذكر بأنه أخفي عن الكونتيسة العجوز نبأ وفاة قرينتها، فعض على شفته. لكن الكونتيسة سمعت النبأ الجديد بالنسبة لها، بلا مبالاة كبيرة. وقالت:

توفيـت ! وأنا لم أعرف ! لقد اعتمدنـا سوية لشغل وظيفة وصيفة القيصرة، وعندما قدمنا لها أخذت القيصرة...

---

٤٦. يا جدتي.. صباح الخير يا مدموازيل ليزا (بالفرنسية)

وروت لحفيدها للمرة المائة مزحة من تأليفها. ثم قالت:

هيـا يا بـول، ساعدني الآن علـى النهوضـ. ليزانكا، أيـن علبتي للسعوط؟

ومضـت الكونتيسة مع فتياتهـا لإكمال الزينـة وراء البارفان. أما تومسكي فقد بقي مع الآنسة. فسألته ليزافيتا ايفانوفنا بهمس:

من هذا الرجل الذي تريد تقديمه اليها؟

نعوموف. هل تعرفينه؟

كلا! هل هو عسكري أم مدني؟

عسكري.

مهندس؟

لا. من الفرسان. ولماذا ظننت انه مهندس؟

فضحكت الفتاة و لم ترد.

صاحـت الكونتيسة من رواء البارفان:– بـول! أرسل لي رواية ما جديدة، لكن رجاء، فقط ألا تكون من روايات هذه الأيام.

ما معنى ذلك، *grand maman*[٤٧]؟

أي الروايـة التـي لا يختنق فيهـا البطل أبيه ولا أمـه ولا توجد فيها جثث غارقة. أنني أخاف جداً الغرقى!

لا توجد مثل هذه الروايات الآن. لكن ألا تريدين روايات روسية؟

---

٤٧. ياجدتي (بالفرنسية)– المترجم.

وهل توجد روايات روسية؟... أرسل لي يا بني أرسل لي، رجاء.

المعـذرة يـا *grand maman*: فأنـا في عجلة مـن أمري.. المعذرة ليزافيتا ايفانوفنا! لماذا ظننت أن نعوموف مهندس؟

غادر تومسكي غرفة الزينة.

وبقيت ليزافيتـا ايفانوفنا لوحدها ووضعت أشغـال الإبرة جانباً، وأخـذت تتطلع من النافذة. وسرعان مـا ظهر في أحد جانبي الشارع ضابط شـاب. فاصطبغـت وجنتيها بالحمرة. وانهمكـت في أشغال الإبرة مجدداً وأحنت رأسها على طوق قماش القنب. وفي هذه اللحظة خرجت الكونتيسة مرتديةً ملابسها كاملة.

فقالت لها: أأمري ياليزانكا، بإعداد العربة، وسنذهب للنزهة.

نهضت ليزانكا من وراء طارة التطريز وأخذت تجمع مواد أشغالها.

فصاحـت الكونتيسة: – مالـك، يا أماه! هل أنـت صماء؟ أأمري بسرعة بتهيئة العربة.

وأجابت الآنسة بهدوء: الآن! – وهرعت مهرولة إلى غرفة المدخل.

ودخـل خـادم وسلـم الكونتيسـة كتبـاً أرسلهـا الأمـير بافـل الكسندروفيتش.

وقالـت الكونتيسـة: حسنـاً ! شكـراً؟ ليزانكا، ليزانـكا! إلى أين تذهبين؟

لإرتداء ملابسي.

مهلاً، ستجدين الفرصة لذلك.إجلسي هنا. إفتحي المجلد الأول، إقرأي بصوت عال...

أخذت الأنسة الكتاب وقرأت عدة أسطر.

فقالــت الكونتيسة: - بصوت أعلى! ماذا جــرى لك يا أماه؟ هل فقدت صوتك، أم ماذا؟.. مهلاً، قربي مني المصطبة، أقرب.. هيا!

قــرأت ليزافيتا ايفانوفنــا صفحتين أخريين. وتثائبــت الكونتيسة، وقالت:

أتركي هذا الكتاب جانباً. ما هذا السخف! أرسليه إلى الأمير بافل وأأمري بتقديم الشكر له.. والعربة ما حالها؟

قالت ليزافيتا ايفانوفنا وهي تتطلع إلى الشارع: العربة جاهزة.

ونبرت الكونتيسة: ما لك لم ترتدي ملابسك؟ يجب علي انتظارك دائماً! هذا يا أماه شيء لا يحتمل.

وهرولت ليزا إلى غرفتها. و لم تمض سوى دقيقتين وإذا بالكونتيسة تقــرع الجرس بكل قــوة. فظهرت الفتيــات الثلاث بسرعــة في أحد الأبواب بينما ظهر خادم القصر في باب آخر.

وقالت لهــم الكونتيسة: مالي لا أستطيع دعوتكم؟ قولوا لليزافيتا ايفانوفنا إنني إنتظرها.

أما ليزافيتا ايفانوفنا فقد دخلت مرتدية معطفا وقبعة.

فقالــت الكونتيسة: وأخــيرا جئت، يا أماه! ما هــذه الملابس؟ من تريدين

افتتانه؟.. ماهو حال الطقس؟ - أعتقد انه تهب الريح.

ونبر خادم القصر:- كلا، ياسيادتكم! الجو هادئ جداً.

إنك دائماً تلقي الكلام إعتباطاً ! إفتحوا النافذة. وهو كذلك: ثمة رياح! وباردة!أجلوا العربة. ليزانكا، سوف لا نذهب: ما كان الأمر يستحق إرتداء الملابس والتزين.

وجال في خاطر ليزافيتا ايفانوفنا:« هذه هي حياتي».

فعلا كانت ليزافيتا ايفانوفنا مخلوقاً بائساً جداً. وكما يقول دانتي فإن خبز الغير مر وثقيلة درجات مدخل بيت الغير، ومن يعرف مرارة التبعية مثل الربيبة المسكينة لعجوز ثرية؟ طبعاً أن الكونتيسة لم تكن شريرة الطبع، لكنها كانت نزقة، وإمرأة مدللة في المجتمع الراقي وبخيلة وغارقة في الأنانية الباردة شأنها شأن جميع العجائز الذين ولى زمانهم وأصبحوا غرباء عن الزمن الحاضر. وكانت تشارك في جميع محافل المجتمع الراقي ، وترتاد حفلات البالو، وينحني أمامها بإحترام شديد الضيوف من القادمين كما لو كان ذلك وفق طقوس سائدة، ومن ثم لا يلقي أحد بالاً إليها. وكانت تستقبل في قصرها جميع أهالي المدينة، وتلتزم التزاماً صارماً بالإتيكيت من دون أن تعرف أي أحد منهم شخصياً.أما خدمها الكثيرون المترهلون الجالسون في غرفة المدخل وغرفة الفتيات فإنهم كانوا يفعلون كل ما يريدون، ويتنافسون في سرقة العجوز المشارفة على الموت. ويمكن القول أن ليزافيتا ايفانوفنا كانت شهيدة البيت. وكانت تصب الشاي وتتلقى التوبيخ بسبب استهلاك السكر أكثر مما ينبغي، كما تقرأ الروايات بصوت عال وتكون مذنبة بسبب جميع أخطاء المؤلف. وكانت ترافق الكونتيسة في نزهاتها وتكون مسؤولة عن حالة الطقس وسوء الطريق. وقد حدد لها راتب لكنها لم تستلمه أبداً، بينما يطلب منها أن تتزيا مثل الجميع،

أي من القلائل جداً. وكان دورها في المجتمع الراقي بائساً للغاية. فقد كانت معروفة للجميع لكن لا يهتم بها أحد، سوى في حفلات البالو فقط حين يوجد نقص في ال VIS–A'–VIS[٤٨] لدى الراقصين. بينما كانت السيدات تتأبطن ذراعها لدى الذهاب إلى التواليت من أجل تعديل شيء في الملبس والزينة. وكانت شديدة الحساسية، وتتحسس وضعها فتنظر إلى حواليها – وتنتظر بفارغ الصبر ظهور المنقذ، لكن الشبان الحريصين في غرورهم الطائش لا يعيرون اهتماما لها. علماً أن ليزافيتا ايفانوفنا أكثر حسناً بمئة مرة من الخطيبات الوقحات الباردات اللواتي يغازلونهن. وما أكثر المرات التي تترك فيها غرفة الجلوس المملة والفخمة بهدوء لكي تذرف الدموع في غرفتها المتواضعة ذات الستائر الحاجزة والجدران الملصقة بالورق وهناك كومود ومرآة وسرير مطلي بالصبغ وحيث تضيء شمعة شحمية بنور باهت في شمعدان نحاسي.

وحدث مرة – وكان ذلك بعد يومين من المساء الوارد ذكره في بداية هذه القصة ، وقبل أسبوع من المشهد الذي ذكرناه، إن رأت ليزافيتا ايفانوفنا بالصدفة لدى جلوسها عند النافذة وانهماكها بالعمل مع آلة الغزل مهندساً شاباً يتطلع بلا حراك إلى النافذة. فخفضت رأسها وواصلت العمل، وبعد خمس دقائق تطلعت مرة أخرى فوجدت الضابط الشاب واقفاً في المكان نفسه. ولم تكن لديها عادة التغنج والدلع أمام المارة من الضباط. فكفت عن التطلع إلى الشارع وانهمكت بالتطريز طوال ساعتين تقريباً من دون أن ترفع رأسها. ثم نهضت وبدأت بجمع طارة التطريز فنظرت إلى الشارع صدفة ورأت الضابط مجدداً. وبدا هذا أمراً غريباً جداً لها. وبعد الغداء اقتربت من

٤٨ . الثنائي في الرقص –(المترجم).

النافذة بشعور يشوبه نوع من القلق، فلم تر الضابط، – ونسيت أمره..

وبعـد مضي يومين رأته مجدداً لدى الخروج مع الكونتيسة لركوب العربة. رأته واقفاً عند المدخل تماماً وقد غطى وجهه بياقة مصنوعة من فرو القندس: كانت عيناه السوداوان تتألقان تحـت القبعة. فأرتعبت ليزافيتـا ايفانوفنا، من دون أن تعرف السبب، وجلست في العربة وقد غمرتها رجفة مبهمة.

ولـدى عودتها إلى البيت هرعت الى النافذة، – كان الضابط يقف في المـكان السابق متطلعاً إليها بعينيـه: فابتعدت،وقد اعتملت نفسها بعذاب الفضول وبشعور القلق الجديد بالنسبة إليها تماماً.

منـذ ذلك الحـين لم يكن يمر يـوم لا يظهر فيها الشـاب، في ساعة معينـة، تحت نوافـذ بيتهم.ونشـأت بينه وبينها علاقـات غير محددة. وكانت بجلوسها في مكانها مشغولة بعملها تتحسس اقترابه، – فترفع رأسهـا وتنظر إليه بفترات تطول يوما بعد يوم. وترائى أن الشاب كان ممتنـا لها: وقد رأت بالنظرة الثاقبة للفتـوة إحمرار وجنتيه في كل مرة تتلاقى فيها أنظارهما. وبعد أسبوع ابتسمت له...

عندما طلـب تومسكـي السماح بتقـديم صديقـه إلى الكونتيسه انتفض قلـب الفتاة المسكينة. لكنها عندما علمت أن ناروموف ليس مهندساً بل من رجال الفرسان، وأسفت لكونها بسؤالها غير المتواضع قد كشفت سرها لتومسكي الطائش.

كان غيرمـان إبن ألمـاني تروسن خلف له رأسمـالاً صغيراً. ونظراً لقناعته الراسخة بوجـوب تعزيز استقلاليته فان غيرمان لم يمس فوائد إيـداع المـال وعاش براتبه فقـط، و لم يسمح لنفسه بأي نـزوة. علماً

أنـه كان منطوياً على نفسه وطموحاً، وغالبـاً ما كان رفاقه يسخرون من حرصـه الشديد على المال. وقد إتسم بعواطـف مشبوبة وبخيال ملتهب، لكن صلابته أنقذته من ضلالات الشباب المألوفة. فمثلاً كان في قـرارة نفسه لاعب قمار لم يمسك بيديه ورق اللعب أبداً، لأنه كان يعتقد أن وضعه لا يساعـد (حسب قوله) على التضحية بالضرورات أملاً في كسب الفائض عن الحاجة، - بينما كان يمضي ليال بأكملها في مراقبة موائد القمار ومتابعة مختلف تطورات اللعب بارتعاشة محمومة.

لقد تركت المزحـة حول أوراق اللعب الثلاث تأثيرا قوياً في خياله و لم تفارق رأسه طوال الليل. وفكر في مساء اليوم التالي في أثناء تجوله في بطرسبورغ:«مـاذا لـو.. ماذا لـو تكشف لـه الكونتيسة العجوز أوراق اللعـب الصحيحة الثلاث! و لم لا يجـرب حظه؟.. ويقدم لها نفسـه، ويبتغي كسب الحظوة لديها، - بأن يصبح عشيقا لها، - لكن هذا كله يتطلب الوقت - فيما هي في سن الثمانين، - ويمكن أن تموت بعد أسبوع، -أو بعد يومين!.. والمزحة نفسها؟ ربما يمكن تصديقها؟.. كلا ! حسـاب العواقب والإعتدال وحب العمل هي أوراقي الثلاث، وهذا ما يضاعف رأسمالي بمقدار الضعفين أو ثلاثة أضعاف، ويوفر لي الطمأنينة والإستقلال!».

وفيمـا كان يفكـر بهـذه الصورة وجـد نفسه في أحـد الشوارع الرئيسيـة في بطرسبـورغ، قبالـة بيـت ذي طراز عمارة قـديم. كان الشـارع ممتلئاً بالعربات، وكانت العربات تتوالى الواحد تلو الأخرى إلى المدخـل المضيء. وكانت تظهر من العربات تارة ساق حسناء شابة وتـارة جزمـة ثقيلة ذات صليـل، وتارةً اخرى جـورب مقلم وحذاء دبلوماسي. وتألقت معاطف الفرو والمعاطف بمحاذاة البواب الضخم الجثة. توقف غيرمان.

وسأل الشرطي في الناصية:– بيت من هذا؟

فأجابه الشرطي:– إنه بيت الكونتيسة .

خفق قلب غيرمان. وترائت في خياله مجدداً المزحة المدهشة. وصار يدور حول البيت مفكراً بصاحبته وبقدرتها العجيبة. وعاد في وقت متأخر من الليل إلى مسكنه المتواضع، و لم يستطع النوم فترة طويلة، وعندما غلبه النعاس، رأى في الحلم أوراق اللعب والطاولة الخضراء وتلال اوراق البنكنوت وأكوام قطع النقود الذهبية. وكان يلقي الورقة تلو الورقة ويضاعف الرهان بحزم واصرار، فيكسب بلا توقف، ويكدس الذهب أمامه ويضع أوراق البنكنوت في جيبه. إستيقظ في وقت متأخر، وتحسر على فقدان ثورته الخيالية، ومضى يتسكع مجدداً في المدينة فوجد نفسه مجدداً أمام بيت الكونتيسة . وبدا أن قوة سحرية ما قادته إليه. فتوقف وصار يتطلع في النوافذ. وشاهد في إحداها رأس إنسان منحنياً ربما لمطالعة كتاب أو لممارسة عمل ما. إرتفع الرأس وشاهد غيرمان وجهاً نضراً وعينين سوداوين. وهذه اللحظة قررت مصيره.

٣

Vous m'e'crivez ,mon ange,

Des lettres de quatre pages plus

Vite que je ne puis les lire.[49]

مــا كادت ليزافيتا ايفانوفنــا تخلع المعطف والقبعــة حتى وجدت أن الكونتيســة قد أرسلت في طلبهــا وأمرت بتهيئة العربة مرة أخرى. وتوجهتا لركوبها. وفي اللحظة التي كان فيها خادمان يرفعان العجوز ويدخلانها في باب العربة رأت ليزافيتا ايفانوفنا مهندسها بالقرب من العجلــة مباشرة. فأمسك بيديها، و لم تستطــع أن تثوب إلى نفسها من الخــوف، بينما اختفــى الشاب: فيما بقيت في يدهــا رسالة. فاخفتها وراء القفــاز وكانــت طوال الطريــق لا تسمع ولا تــرى شيئاً. وكان مــن عادة الكونتيسة أن تطرح في كل لحظة أسئلة مثل: من هذا الذي قابلنــا؟ – ما إسم هذا الجســر؟ – وماهو مكتوب على هذه اللافتة؟أما ليزفيتا ايفانوفنا فكانت في هذه المرة تجيب كيفما اتفق وبشكل لا صلة له بالموضوع، مما أثار غيظ الكونتيسة.

٤٩. انك ياملاكي تكتبين لي رسالة من اربع صفحات بسرعة اكبر مما استطيع قراءتها(بالفرنسية)– المترجم. –..

مــاذا جرى لك يا أماه؟ هــل اصبت بالذهول، أم ماذا؟ هل أنك لا تسمعينــي أو لا تفهميني؟.. الحمد لله، انني لا ألثغ و لم أصب بمس من الجنون!

لم تكن ليزافيتــا ايفانوفنا تسمعها. ولدى العودة إلى البيت هرعت إلى غرفتها واخرجــت الرسالة من القفاز، و لم تكــن مختومة بالشمع. قرأتها ليزافيتا ايفانوفنا. كانت الرسالة تتضمن عبارات رقيقة وتنم عن الإحترام ومأخوذة كلمة فكلمة من رواية ألمانية. لكن ليزافيتا ايفانوفنا لم تكن تجيد الألمانية وكانت راضية جداً عنها.

بيد أن الرسالة التي استلمتها أثارت القلق البالغ لديها. إذ انها تقيم لأول مرة علاقات سرية وثيقة مع رجل شاب. وأثارت جرأته جزعها. ولامت نفسها على سلوكها غير الحذر و لم تعرف ما يجب عمله: هل تكف عن الجلوس عند النافذة وتخمد بعدم الإهتمام رغبة الضابط في ملاحقتها لاحقاً؟ – هل تبعث إليه برسالة؟ – هل تجيبه ببرود وبحزم؟ لم يكــن لديها من تستشيره في الأمر إذ لم تكن لديها صديقة أو مربية. وقررت ليزافيتا ايفانوفنا الرد على الرسالة.

وجلست إلى منضدة الكتابة وتناولت الريشة والورقة – واستغرقت في التفكــير. وبدأت عدة مــرات بكتابة رسالتها – ثــم مزقتها: فتارة بدت لهــا التعابــير متسامحة جــداً او صارمة جــداً. وفي نهاية المطافة أفلحــت في كتابة عدة سطور رضيت بهــا. فكتبت: «أنا واثقة من أن لديــك نوايا شريفة ولا تريد إهانتي بفعلــة طائشة. لكن التعارف بيننا يجب ألا يتم بهذه الطريقة. أعيد اليك رسالتك وآمل الا تكون هناك لاحقاً أسباب تبرر عدم الإحترام غير المنصف».

في اليوم التالي قامت ليزافيتا ايفانوفنا من وراء طارات التطريز لدى

رؤيتهـا غيرمان قادماً وخرجـت من الصالة وفتحـت النافذة ورمت الرسالـة إلى الشـارع أملاً في حذق الضابط الشـاب. فجرى غيرمان والتقطهـا وولـج إلى دكان بيع الحلويـات والمعجنـات. ونزع الختم ووجـد في المظروف رسالته وجواب ليزافيتـا ايفانوفنا. وكان هذا ما ينتظره وتوجه عائداً الى بيته، وكان ذهنه مشغولاً بعلاقته الغرامية.

بعد مضي ثلاثة أيام من ذلك جائت إلى ليزافيتا ايفانوفنا مدموازيل شابة بعينـين براقتين حاملة رسالة من محل بيع أزيـاء الموضة. وفتحتها ليزافيتا ايفانوفنا بقلق متوقعة أن تتضمن حسابات نقدية، وفجأة رأت خط يد غيرمان.

فقالت:- إنك، ياروحي، قد اخطأت، فهذه الرسالة ليست لي.

وأجابت الفتاة الجريئة، من دون اخفاء إبتسامة ذات مغزى:

- كلا، إنها لك بالضبط ! إسمحي بقرائتها!

ألقـت ليزافيتا ايفانوفنـا نظرة سريعة على قصاصـة الورق. يطلب غيرمان موعداً معها.

هـذا غير ممكن ! - قالت ليزافيتا ايفانوفنا ذلك وقد تملكها الخوف من العجلة في طلب اللقاء والوسيلة التي استخدمها.- إن هذه الرسالة ليست لي حقا!- ومزقت الرسالة إرباً إرباً.

وقالـت المدموازيل:- مادامت الرسالة ليست موجهة اليك فلماذا مزقتها. كنت سأعيدها إلى من أرسلها.

وقالـت ليزافيتا ايفانوفناوقد أغضبها القول:- أرجوك، ياعزيزتي!

لا تجلبـي بعـد ذلك قصاصة ما إلي. وأبلغي مـن أرسلك بأنه يجب أن يخجل...

لكن لم تثبط عزيمة غيرمان. وصارت ليزافيتا ايفانوفنا تتلقي الرسائل منه في كل يوم، بهـذه الوسيلة أو تلك. علماً أنها لم تكن مترجمة عن اللغـة الألمانية. وكان غيرمـان يكتبها،بشـوق ملهم،ويتحدث باللغة المميـزة له: فهي تجسـد ثبات رغباته، واضطـراب خياله الجامح. و لم تعد ليزافيتا ايفانوفنا تفكر في إعادتها: وطفقت تشمت بها، وأخذت تجيب عليها – وصارت قصاصاتها أطول وأرق أكثر فأكثر. وفي نهاية المطاف ألقت من النافذة الرسالة التالية:

« ستقـام اليوم حفلـة بالو عند المبعـوث ال . وستكون الكونتيسة هنـاك. وسنبقى فيها حتـى ساعتين. وستسنح لديـك الفرصة لرؤيتي علـى انفـراد. وحالما تغـادر الكونتيسـة سيتفرق خدمهـا في أغلب الظـن، وسيبقى البواب في صالة المدخل، لكنه يذهب عادة الى غرفته الصغـيرة. فتعال في السـاعـة الحادية عشرة والنصـف. واصعد السلم مباشرة. وإذا لقيت أحـدا ما عند القاعة الأمامية فأسأله فيما إذا كانت الكونتيسة موجودة. فسيقال لك أنها غير موجودة –عندئذ لا مفر من العـودة. وفي أغلب الظن أنك لن تلتقي أحـداً. فالفتيات في مكانهن حيث يسكن جميعاً في غرفة واحدة. وتوجه من السقيفة نحو اليسار وواصـل السير الى الأمام حتى غرفة نوم الكونتيسة. وسترى في غرفة النـوم وراء حاجزين(بارفانين) صغيرين بابـين صغيرين يقود احدهما مـن اليمـين الى غرفة المكتـب التي لا تدخـل إليهـا الكونتيسة عادة، وهناك سلم حلزوني ضيق يقود إلى غرفتي».

كان يرمان يرتجف كالنمر بانتظار وقت الميعاد. وفي الساعة العاشرة

مســاء وقف امــام بيت الكونتيسـة. وكان الطقس رديئـا: فقد عوت الرياح،وتساقط الثلج برذاذ مبلل، وكانت المصابيح تضيء بنور خاب والشــوارع خاوية. وفي بعض الأحيـان كان حوذي «فانكا» معفرسه الهزيـل يترصد زبوناً ما في ذلـك الوقت المتأخر. وأخيراً جائت عربة الكونتيسة. وشاهـد غيرمان كيف حمل الخدم علـى أيديهم العجوز المجعـدة الجسـد الملفوفة في معطف من فرو السمـور، وبدت خلفها ربيبتها في معطف خفيف وقد زينت رأسها بزهور نضرة. واصطفقت الأبواب. واندفعـت العربـة بتثاقل فـوق الثلج الرخـو. أغلق البواب البــاب. وانطفأت الأنوار في النوافـذ. وطفق غيرمان يتمشى بالقرب مـن البيت الذي بـدا خاوياً: فاقترب من المصبـاح في الشارع وتطلع إلى الساعـة وكانت الساعة الحاديـة عشرة وعشرين دقيقة. وبقي تحت المصبـاح متابعاً بناظريه عقـارب الساعة بانتظار مـرور بقية الدقائق. وفي الساعـة الحادية عشرة والنصف تماماً صعد غيرمان مدخل واجهة بيـت الكونتيسة، وولج السقيفة المضاءة بنـور ساطع. لم يكن البواب موجوداً هناك. وصعد غيرمان السلم بسرعة وفتح باب القاعة الأمامية ورأى خادمـاً نائما تحـت المصباح فوق مقاعد عتيقـة وسخة. وخطا غيرمـان بمحاذاته بخطـوات خفيفة وحازمـة. كان الظلام يعم القاعة وصالـة الضيوف. وأنارهما المصباح الخابي في القاعة الأمامية.وولج غيرمان غرفة النوم. وشاهد أمام خزانة مليئة بالأيقونات القديمة سراجاً ذهبيـاً. وصفت متماثلة عنـد الجدران المغطاة بـأوراق صينية مقاعد منجـدة بقماشـ حريـري استحال لونـه وكنبـات ذوات وسائد من الزغــب، وقد زال الطـلاء الذهبي عنها. وعلقت علـى الجدار لوحتا بورتريـه رسمتها في باريس مدام ليبرون. وصور في إحداها رجل في سـن الأربعين أحمـر السحنة وبدينا يرتدي بزة خضـراء فاقعة وعليها نجمة، أما الأخرى فتصور شاباً وسيماً معقوف الأنف وقد مشط شعره

وراء الصدغين وثمة وردة في شعر رأسه المغطى بالبودرة. وانتصبت في جميع الزوايا راعيات من الخزف وساعات من صنع ليروا الشهير وعلب والروليتات والمراوح اليديوية وشتى أنواع اللعب النسائية التي ابتدعت في أواخر القرن الماضي سوية مع كرة منغولفير ومغناطيس ميسمير. وخطا غيرمان وراء البارفانين. فوجد ورائهما سريراً حديدياً صغيراً، ومن اليمين ثمة باب يقود إلى غرفة المكتب، ومن اليسار ثمة باب آخر يقود إلى الممر. ففتحه ورأى غيرمان السلم الحلزوني الضيق المؤدي إلى غرفة الربيبة المسكينة.. لكنه استدار وولج غرفة المكتب المظلمة.

مضى الوقت بصورة بطيئة. وساد الهدوء في المكان. ودقت الساعة في صالة الضيوف معلنة الثانية عشرة ليلاً، كما دقت الساعات في جميع الغرف معلنة الثانية عشرة - ثم ساد الصمت مرة أخرى. وقف غيرمان مستنداً إلى الموقد البارد. وكان رابط الجأش، وقبله ينبض بانتظام كما لدى شخص قرر الإقدام على أمر خطير لكنه ضروري. ودقت الساعات معلنة الواحدة ثم الثانية بعد منتصف الليل.- وسمع صوت عربة من بعيد. وتملكه الإضطراب من دون إرادته. اقتربت العربة ثم توقفت. وسمع صرير إنزال منصة الهبوط فيها. وسادت الحركة في البيت. كان الأشخاص يتراكضون، وسمعت أصوات ما، وانيرت المصابيح في البيت. واندفعت إلى داخل غرفة النوم ثلاث خادمات عجائز ودخلت الكونتيسة ، بإعياء، وإنهارت فوق المقاعد الفولتيرية. ورأى غيرمان عبر الشق وقد مرت به ليزافيتا ايفانوفنا. وسمع غيرمان خطواتها المستعجلة فوق درجات سلمها. وشعر في قلبه بما يشبه وخز تأنيب الضمير ثم هدأ مرة أخرى. فقد تحجر.

بدأت الكونتيسة بخلع ملابسها أمام المرآة. فرفعت الطاقية المزينة

بالـورود، ونزعـت الباروكـة المبودرة مـن رأسها ذي الشعـر الأشيب والمقصوص بكثافـة. وتساقطت الدبابيس كالمطر حولها. وسقط الرداء الأصفـر الموشى بالفضة حولها. وشهـد غيرمان الأسرار المقززة لزينتها. وفي نهاية المطـاف أصبحت الكونتيسة برداء النـوم والقلنسوة الليلية. وبدت في هذا الزي الذي يناسب شيخوختها أقل بشاعة وقبحاً.

كانت الكونتسة شأنها شأن جميع كبار السن عموماً تعاني من الأرق. وبعد نـزع ملابسها جلست عند النافذة في المقعـد الفولتيري وصرفت الخادمات. وأطفأت الشموع وبقيت الغرفة مضاءة بنور السراج وحده. جلســت الكونتيسة شاحبة الوجه كلياً، وهي تدمدم بشيء ما في شفتيها المرتعشتـين، وتـراوح رأسهـا يمينـاً ويســاراً. وكانت عيناهـا خابيتين تعكسان غياب الفكر كلياً، ويمكن لدى النظر إليها الإعتقاد بأن مراوحة المرأة العجوز تتم بلا إرادتها، بل بتأثير تيار كهربائي خفي.

وفجأة تغير هذا الوجه الميت بشكل يصعب تفسيره. فكفت الشفتان عـن الإرتعاش، وتألقت الحيوية في العينين: فقد وقـف أمام الكونتيسة رجل غريب.

وقـال بصـوت واضح وهادئ: لا تخافي، بحـق الرب، لا تخافي! ليست لدي نوايا لايذائك، لقد جئت إليك مستجدياً عطفك في أمر ما.

تطلعـت العجـوز إليه صامتة وبـدا كما لو أنها لم تسمعـه. وأعتقد غيرمان أنها ثقيلة السمع وكرر العبارة نفسها مقترباً من إذنها تماماً. لكن العجوز لزمت الصمت كالسابق.

ومضى غيرمـان قائلاً: – يمكنك أن تهبي لي السعادة في حياتي، من دون أن يكلفـك ذلـك شيئاً: انني أعرف أنـك تستطيعين حزر ثلاث أوراق لعب متتالية...

توقف غيرمان عن الكلام. وبدا أن الكونتيسة أدركت ماذا يطلب منها، وأنها كانت تبحث عن الكلمات للإجابة.

وقالت في نهاية المطاف: – لقد كانت مزحة، وأقسم لك ذلك ! لقد كانت مزحة!

فعارضها غيرمان غاضباً: لا يمكن المزاح في هذه الأمور. تذكري تشابليتسكي الذي ساعدتيه في استعادة خسائره.

يبدو أن الكونتيسة قد أصابتها الحيرة والإرتباك. وتجسدت في سحنة وجهها سمات الإنفعال الشديد، إلا أنها سرعان ما أضحت في حالة الذهول السابق.

وتابع غيرمان قوله:– ربما تذكري لي تلك الأوراق الصحيحة؟

لكن الكونتيسة بقيت صامتة. وواصل غيرمان:

من أجل من تحفظين هذا السر؟ من أجل الأحفاد؟ إنهم أثرياء أصلاً ولا يعرفون قيمة النقود. ولا تنفع المبذر أوراقك الثلاث. ومن لا يحسن صيانة ميراث الآباء سيموت مع هذا في فقر، بالرغم من جميع المساعي الشيطانية..وانا لست مبذراً: انا أعرف قيمة النقود. ولن تضيع أوراقك الثلاث لدي. هيا !..

توقف غيرمان عن الكلام وانتظر جوابها برجفة. لكن الكونتيسة لزمت الصمت. عندئذ ركع غيرمان أمامها وقال:

إذا ما عرف قلبك الحب في وقت ما، وإذا ما تذكرت مسراته، وإذا ما ابتسمت ولو مرة اوحدة لدى بكاء الإبن الوليد، وإذا ما نبض شيء إنساني ما في صدرك في وقت ما، فإنني أتوسل اليك بمشاعر الزوجة والعشيقة والأم – وكل ما هو مقدس في الحياة – لا ترفضي تلبية طلبي! – إكشفي لي سرك! – ما حاجتك اليه؟.. ربما أنه يقترن بخطيئة فظيعة،

وبزوال الخـير الأبدي، وبالتواطؤ مع الشيطـان؟ فكري في الأمر: أنت عجوز، و لم يتبق لديـك زمن طويل للعيش - أنا مستعد لأخذ خطيئتك لكي تتحمل وزرهـا روحي. إكشفي لي سرك فقـط. وفكري أن سعادة إنسـان توجد في يديك، ولست أنا فقط بل وأولادي وأحفادي وأحفاد أحفادي سيباركون ذكراك وسيجلونها كشيء مقدس...

لم تجب العجوز ولو بكلمة واحدة.

فقـام غيرمـان، وقال صـارا بأسنانـه:- أيتهـا العجـوز الشمطاء، سأرغمك على الإجابة..

وأخرج مع هذه العبارة مسدسه من جيبه.

وعندمـا رأت الكونتيسة المسدس إحتدمـت للمرة الثانية مشاعرها بعنـف. فهـزت رأسها ورفعت يدهـا لإتقاء إطلاق النـار.. ثم انهارت ساقطة على ظهرها..وبقيت بلا حراك.

وقال غيرمان ماسكاً يدها: - كفـى صبيانية. إنني أسألك آخر مرة: هل تريدين أن تذكري لي ورقاتك الثلاث؟ - نعم أم لا؟

لم تجب الكونتيسة. ورأى غيرمان أنها فارقت الحياة.

٤

7 Mai 18

Homme sans moeurs et san

Religion!(٥٠)

جلست ليزافيتا ايفانوفنا في غرفتها، وما زالت في زي حفلة البالو، وغرقــت في التفكـير العميق. ولدى رجوعهــا إلى البيت عاجلت في صـرف الصبية النعسة التي تخدمها التي عرضت بلا رغبة خدماتها، - وقالــت لها أنها ستخلع ملابسها بنفسهـا، وولجت غرفتها مرتجفة أمــلاً في أن تجـد غيرمان هناك، ولــو أنها لم ترغــب في أن تجده فيها. ومنذ النظرة الأولى شعرت بالرضــا لغيابه وشكرت القدر للعقبة التي حالت دون لقائهما. فجلست وخلعت ملابسها وبدأت بتذكر جميع الظـروف، في هذا الوقت القصير ومــا أعقبها بزمن بعيد. فقد مضت ثلاثــة أسابيع منذ أن رأت الشاب لأول مــرة من النافذة، - ثم بدأت المراسلات معه، - واستطــا ع الحصول على موافقتها على اللقاء ليلاً! وقــد عرفت إسمه لأنه وقــع بإسمه بعض الرسائــل. و لم تتحدث معه أبداً، و لم تسمع صوته، كما لم تسمع عنه شيئاً ابداً.. حتى ذلك المساء. أمــر غريب ! ففي ذلــك المساء، في حفلة البالــو أراد تومسكي،الذي

٥٠. مراسلات شخص يفتقر الى اي قواعد اخلاقية واي دين. (بالفرنسية)- المترجم

غضب من الأميرة الشابة بولينالأنها بخلاف عادتها تغنجت وتدلعت ليس معه بل مع آخر، أن ينتقم بإظهار اللامبالاة: فدعا ليزفيتا ايفانوفنا ورقص معها المازوركا بلا توقف. وكان طوال الوقت يمزح معها بشأن غرامها بالضابط المهندس، وأكد أنه يعرف أكثر كثيراً مما تعتقد، وكانت بعض مزحاته موفقة في التصويب لحد أن ليزافيتا ايفانوفنا اعتقدت عدة مرات بأنه يعرف سرها.

وسألته ضاحكة:- من أين لك أن تعرف هذا كله؟

فأجاب تومسكي: - من صديق شخص تعرفينه، وهو شخص رائع جداً!

ومن هذا الشخص الرائع؟

إسمه غيرمان.

لم تجب ليزافيتا ايفانوفنا بشيء لكن البرودة سرت في ذراعيها وساقيها...

ومضى تومسكي قائلاً:- إن غيرمان هذا شخصية رومانسية حقاً: فمظهره من الجانب يشبه نابليون، وله روح مفيستوفيل. وأعتقد أنه اقترف ما لا يقل عن ثلاث أفعال شنيعة. يالشحوب وجهك!

- إن رأسي يؤلمني.. وماذا قال لك غيرمان هذا، - أو ما إسمه؟

- غيرمان غير راض عن صديقه، ويقول أنه لو كان مكانه لتصرف بشكل آخر.. وأنا حتى اعتقد ان غيرمان معجب بك، وعلى أي حال فإنه يبدي إهتماماً شديداً للغاية بعبارات الإعجاب الغرامية لصديقه.

- لكن أين رآني؟

- في الكنيسة، وربما في أثناء النزهة!.. الله أعلم! ربما في غرفتك، في أثناء نومك: كل شيء محتمل من جانبه..

قطـع اقتراب ثلاث سيـدات منه وطرحهن السـؤال – *oubli ou regret?*[٥١] – الحديـث الـذي أثـار لـدى ليزافيتا ايفانوفنـا فضولاً موجعاً.

أمـا السيـدة التـي اختارها تومسكي فهـي الامـيرة نفسها. وقد أفلحـت في التفاهـم معـه، بعـد القيام بلفـة إضافية بالـدوران حول مقعدهـا. – أما تومسكي الذي عـاد إلى مكانه فلم يعد يفكر بغيرمان ولا بليزافيتـا ايفانوفنا. وأرادت استئنـاف الحديث الذي انقطع، لكن المازوركا انتهت، وبعد ذلك بفترة قليلة غادرت الكونتيسة الحفل.

لم تكـن أقوال تومسكي سوى ثرثـرة في أثناء رقصة المازوركا، إلا أنها مسـت منابت روح الشابة الحالمة.ولوحـة البورتريه التي رسمها تومسكـي تشبـه الصـورة التـي كونتها نفسهـا، وبفضـل الروايات الحديثـة، أصبـح هـذا الوجه المبتذل كبعبـع واسر خيالهـا. وجلست بذراعين متصالبتين، وأمالـت رأسها على صدرها العاري،و الذي ما زالت تزينه الزهور.. وفجأة فتح الباب، ودخل غيرمان. فارتعبت...

وسألته بهمس يشوبه الخوف:– اين كنت؟

وأجـاب غيرمان:– كنـت في غرفة نوم الكونتيسـة العجوز، وانا الآن قادماً لتوي منها. لقد توفيت الكونتيسة.

يا إلهي !.. ماذا تقول؟

وتابع غيرمان قوله: – أعتقد أنني السبب في وفاتها.

تطلعت ليزافيتا ايفانوفنا إليه، وترددت في دخيلتها أقوال تومسكي:

---

٥١. نسيان أم أسف (بالفرنسية)– المترجم.

اقترف هذا الشخص ما لا يقل عن ثلاث أفعال شنيعة! وجلس غيرمان على حافة النافذة بالقرب منها وروى لها كل شيء.

أصغت ليزافيتا ايفانوفنا إلى حديث غيرمان وقد تملكها الرعب. إذن إن جميع هذه الرسائل العاطفية، وهذه المطالب الملتهبة، وهذه الملاحقات الجسورة والعنيدة لها، لم تكن تعبيراً عن الحب ! النقود - هذا ما كانت تصبو إليه روحه بنهم !و لم تكن هي من يشبع رغباته ويسعده ! و لم تكن الربيبة المسكينة سوى مساعدة عمياء لقاطع الطريق وقاتل ولية نعمتها !..وبكت بحرقة توبتها المتأخرة والموجعة. ورنا غيرمان إليها صامتاً: كان قلبه يتمزق أيضاً لكن لم تمس روحه القاسية لا دموع الفتاة المسكينة ولا الروعة المدهشة لحزنها. و لم يشعر بتأنيب الضمير لدى التفكير بالعجوز الميتة. وأثار جزعه فقط فقدان السر بلا رجعة، والذي كان ينتظر الإثراء منه.

وأخيراً قالت ليزافيتا ايفانوفنا:- إنك وحش!

فأجاب غيرمان: أنا لم أرغب بموتها.وكان مسدسي غير محشو.

ولزما الصمت.

طلع الفجر. فأطفأت ليزافيتا ايفانوفنا الشمعة الموشكة على الإحتراق كلياً: وغمر الغرفة نور باهت. ومسحت عينيها الدامعتين ورفعتهما نحو غيرمان: كان يجلس على طرف النافذة مسبل الذراعين عبوساً بشكل رهيب.وفي هذا الوضع كان يشبه لحد كبير لوحة بورتريه نابليون. وهذا التشابه أذهل حتى ليزافيتا ايفانوفنا.

وأخيرا قالت ليزافيتا ايفانوفنا:- كيف ستخرج من البيت؟ وكنت أفكر في إخراجك عبر السلالم الخفية، لكن يجب المرور عبر غرفة النوم وانا أخاف ذلك.

أخبريني كيف أجد هذه السلالم الخفية،وانا سأخرج بنفسي.

نهضت ليزافيتا ايفانوفنا واخرجت مفتاحاً من الصوان وسلمته إلى غيرمان وأعطتـه شرحا تفصيلياً لكيفية الخروج. وصافح غيرمان يدها الباردة الممتنعة، وقبل رأسها المائل وخرج.

نـزل إلى الأسفـل بواسطة السلم الحلزوني ودخـل مجدداً غرفة نوم الكونتيسـة. كانت العجوز الميتة جالسة بلا حراك، وبان على وجهها تعبير القلق البالغ. توقف غيرمان أمامها، وتطلع إليها فترة طويلة، كما لـو كان يريد التأكد من الحقيقـة الرهيبة. وفي نهاية المطاف ولج غرفة المكتـب وطفق يهبـط سلما معتماً، وقد غمرتـه مشاعر غريبة أثارت قلقـه. لربمـا تسلل بهذا السلـم قبل ستين عاما مضـت،الى غرفة النوم هـذه، وفي مثـل هذه الساعـة،في قفطان موشى بالذهـب وبتسريحة شعر *a' l'oiseau royal*[٥٢]، ضاغطا قبعته الثلاثية الأركان إلى موضع قلبه،شـاب سعيد، يرقد رفاته منذ زمن بعيد في القبر، بينما توقف عن الخفقان اليوم قلب عشيقته...

ووجد غيرمان تحت السلام بابا فتحه بالمفتاح ذاته، فوجد نفسه في ممر قاده إلى الشارع.

٥٢. الطير الملكي(بالفرنسية)– المترجم.

٥

في تلك الليلة جاءت الي البارونة فون ف.

كانت كلها في حلة بيضاء وقالت لي:

« مرحباً أيها السيد المستشار!»

شفيدينبورغ

بعد ثلاثة أيام من تلك الليلة المشؤومة، وفي الساعة التاسعة صباحاً، توجه غيرمان الى دير حيث وجب أن تقام صلاة الميت على روح المرحومة الكونتيسة. علماً أنه لم يشعر بوجوب التوبة لكن لم يستطع تماماً إخماد صوت الضمير، الذي يردد له: أنت قاتل العجوز ! علماً أنه كان ضعيف الايمان الحقيقي لكنه كان يؤمن بكثير من الخرافات. وكان يؤمن أن الكونتيسة الميتة يمكن أن تمارس تأثيرا سيئاً في حياته، – وقد قرر المجيء إلى جنازتها بغية طلب عفوها.

كانت الكنيسة مزدحمة. وشق غيرمان طريقه بصعوبة وسط حشد الناس. ووضع التابوت على منصة فخمة تظللها خيمة من المخمل. كانت المتوفاة ترقد فيه وذراعاهاعلى صدرها، وعلى رأسها قلنسوة من الدنتلا وترتدي فستاناً من الأطلس الأبيض. ووقف حولها أهل بيتها من الخدم بقفطانات سود مزينة بشرائط مطرزة بشعار الأسرة على اكتافهم وبإيديهم الشموع، ووقف من الأقارب

في حزن شديد– الأبناء والأحفاد وأبناء الأحفاد. لم يذرف الدموع أي أحـد، فمن شأن الدموع أن تكـون *une affectation*[٥٣]. وقد كانـت الكونتيسـة طاعنة في السن لذا مـا كان موتها ليستثير جزع أي أحـد وكان الأقـارب ينظرون إليهـا منذ وقت بعيـد باعتبارها راحلة. وألقـى القسـ الشاب كلمة عند التابـوت. وصور بعبارات بسيطـة ومؤثرة الرقـاد المسالم للمؤمنـة، التي كانت خـلال أعوام طويلـة هادئة، وكأنه بمثابة تهيئة مثيرة للعواطف إلى الوفاة المسيحية. وقال المتكلـم: «لقد أخذها ملاك الموت مكللة بأفـكار الخير وبانتظار خطيـب صلاة الفجر». واختتمت الصلـوات بوقار حزين. وتقدم الأقـارب أولاً لتوديـع الجثمان. ثم تقدم الضيـوف الكثيرون الذين جـاءوا لتكريم تلـك التي كانت منـذ وقت بعيـد تشاركهم لهوهم ومرحهـم. وأعقبهم جميع أهـل البيت. وفي الختـام اقتربت سيدة عجوز من حاشية الكونتيسة،وهي قرينة المتوفاة. وقادتها صبيتان من ذراعيها. ولم تكن قادرة على الإنحناء حتى الأرض، – فذرفت عدة دموع، وقبلت اليـد الباردة لسيدتها. وبعدها قرر غيرمان الإقتراب مـن التابـوت. فانحنى حتى الأرضـ وبقي عدة دقائـق راقداً على الأرض الباردة المكسـوة بأغصان الشوح. وفي نهاية المطاف نهض شاحـب الوجه كالفقيدة نفسها وصعـد منصة التابوت وانحنى.. في هـذه اللحظة ترائى لـه أن الميتة نظرت إليه بسخرية، وغمزت له بإحدى عينيها. وتراجع غيرمـان بسرعة، فتعثر وسقط على الأرض علـى ظهره. فأنهضوه. وفي الوقت نفسـه حملت يلزافيتا ايفانوفنا مغيماً عليها إلى طنف الكنيسة. وقد عكر هذا الحادث لعدة لحظات احتفاليـة الطقوسـ الحزينة. وسـرت بـين الزائرين همهمـة مكبوتة وهمس الياور النحيف القوام، وهو من أقرباء المرحومة المقربين، في

---

٥٣. مصطنعة (بالفرنسية).

أذن إنكليـزي كان يقف إلى جانبه قائلاً إن الضابط الشاب هو إبنها غير الشرعي،فأجاب الإنكليزي ببرود:أوه؟

بقي غيرمان معكر المزاج للغاية طوال اليوم. وتناول طعام الغداء في حانـة منعزلة وشرب كثـيراً جداًعلى غير عادتـه أملاً في إخماد الإضطراب في دخيلة نفسه. بيد أن النبيذ اثار الجزع أكثر في مخيلته. ولـدى عودتـه إلى البيـت استلقى علـى الفراش مـن دون أن يخلع ملابسه واستسلم الى النوم العميق.

وصحا من نومه ليـلاً. كان القمر يضي الغرفة بنوره. وتطلع إلى الساعـة: كانت تشير إلى الثالثة إلا ربعـاً. وعافه النوم. فجلس على السرير وأخذ يفكر في جنازة الكونتيسة العجوز.

وفي هذا الوقت رنا إليه من النافذة في الشارع أحد ما، ثم اختفى فوراً. و لم يلـق غيرمان بالاً إليه. وبعد دقيقة سمع صوت فتح الباب في غرفـة المدخل. وفكر غيرمـان أن الجندي خادمه قد عاد مخمورا كعادته من نزهته الليلية. لكن سمع صوت خطوات غير معروفة له: كان أحد ما يمشي مجرجرا حذائه بهدوء. وفتح الباب ودخلت إمرأة بـرداء ابيض. وظن غيرمان أنها مرضعتـه العجوز وأثار عجبه حول ما يمكـن ان يدعوها للمجئ في هذا الوقت.لكـن المرأة ذات الرداء الأبيض تعثرت واضحت فجأة أمامه – وعرف غيرمان الكونتيسة!

وقالـت بصوت حـازم: – لقد جئت إليك ضـد إرادتي، لكني تلقيـت أمرا بتلبيـة طلبـك. الأوراق هي الثلاثـة والسبعة والجوكر تكسـب عندما تكـون متتالية، – لكن بشـرط أن لا تضع الأوراق خلال يوم بعد هذا، وألا تمارس لعب القمار طوال حياتك بعد هذا. أنا اغفر لك موتي، بغية أن تتزوج ربيبتي ليزافيتا ايفانوفنا...

وبعد هذا القول إستــدارت بهدوء ومشت نحو الباب واختفت مجرجــرة حذائها. وسمع غيرمان صوت انغلاق الباب عند المدخل، ورأى احدهم يرنو إليه من النافذة مرة أخرى.

لم يستطــع غيرمان أن يثوب إلى رشده خلال فترة طويلة. وخرج إلى الغرفــة الأخرى. كان الجندي خادمه نائماً على الأرض. وأيقظه غيرمان عنوة. وكان الجندي مخمــوراً كعادته، ولم يكن ممكناً معرفة أي شــيء منه. وكان الباب في غرفة المدخل مغلقاً. وعاد غيرمان إلى غرفته وأوقد شمعة ودون رؤيته.

٦

- اتانده !

- كيف تجرأت على دعوتي باتانده؟

- ياصاحب السيادة انا قلت اتانده-

س !

لا يمكــن أن توجد فكرتــان ساكنتان سويــة في الطبيعة الأخلاقية، كمــا لا يمكــن أن يوجد جسمان في مكان واحــد في العا لم الفيزيقي. وسرعان ما سيطرت على خيال غيرمان صورة العجوز الميتة متجسدة بــالأوراق الثلاثة والسبعة والجوكــر. و لم تفارق رأســه أوراق الثلاثة والسبعة والجوكر كما ترددت هذه الكلمات على شفتيه. وحين ترائت له فتاة شابة قال: « يا لرشاقتها! يا لها من ورقة ثلاثية حقيقية ذات قلب أحمــر وعندما كان يسأل: «كــم الساعة»، يجيب: « سبعة إلا خمس دقائــق». بينما كان كل رجل بديــن يذكره بالجوكــر. وبقيت أوراق الثلاثــة والسبعــة والجوكر تلاحقه في النوم، وتتخــذ مختلف الأشكال المحتملة: فتألقت ورقة الثلاثة أمامه بهيئة زهرة الكوبية(غرانديفلور) المكتنــزة، وبــدت ورقة السبعــة بهيئة بوابــة غوطيــة، والجوكر بهيئة عنكبــوت ضخم. وتركزت جميــع أفكاره في شــيء واحد هو كيفية

الإستفادة من السر الذي كلفه غالياً. وبدأ يفكر في الإستقالة من منصبه والقيام برحلات. وأراد أن يرغم الحظ السحري على أن يتيح له كسب الرهان في بيوت القمار الباريسية المفتوحة. لكن حدث ما لم يكن في الحسبان.

كان يوجد في موسكو رهط من اللاعبين الأثرياء برئاسة تشيكالينسكي الذائع الصيت الذي قضى عمره كله في لعب القمار وكسب في وقت ما الملايين من الفوز بالأوراق المالية والخسارة بأوراق البنكنوت. وقد أكسبته خبرة الأعوام الطويلة ثقة رفاقه، وأكسبته احترام الجمهور داره الرحبة وطاهيه الماهر والمودة واللطف والمرح. وكان قد قدم من بطرسبورغ. وتدفق الشباب عليه، متناسين حفلات البالو من أجل لعب الورق ومفضلين مغريات لعبة «فرعون» على مغازلة الحسان. وقد اقتاد ناروموف غيرمان إليه.

ومرا بالعديد من الصالات الفخمة المملوءة بالندل المهذبين. وكان عدة جنرالات ومستشارين سريين يمارسون لعبة «فيست»، بينما استلقى الشباب فوق الأرائك المزخرفة وهم يتناولون الأيس كريم ويدخنون الغلايين. وجلس في صالة الإستقبال وراء مائدة طويلة عشرون لاعباً، كما جلس رب البيت ووزع الورق. كان في حوالي الستين من العمر وذا مظهر وقور للغاية، ووخط الشيب الفضي شعر رأسه، وسحنته ممتلئة ونضرة تنم عن طيبة القلب. وعيناه تتألقان وتنمان عن الحيوية المقترنة بالإبتسامة الدائمة. وقدم ناروموف غيرمان إليه. وصافحه تشيكالينسكي بمودة، ورجاه أن يرفع الكلفة وواصل توزيع ورق اللعب.

واستمرت دورة اللعب فترة طويلة. وألقي فوق المائدة ما يربو على

ثلاثين ورقة لعب. وكان تشيكالينسكي يتوقف بعد كل توزيع للورق من أجل اعطاء اللاعبين الفرصة لترتيب أمورهم وتسجيل الخسائر والإصغاء إلى مطالبهم بلطف، بينما كان يعدل بلطف أكبر الركن الذي ثناه بالصدفة أحد ما بمرفق يده. وفي نهاية المطاف اختتمت دورة اللعب. فرتب تشيكالينسكي ورق اللعب واستعد لتوزيعه مرة أخرى.

فقال غير مان ماداً يده من رواء سيد بدين وشارك في الرهان تواً:- إسمحوا لي بطرح ورقة لعب.

وابتسم تشيكالينسكي وانحنى له صامتاً تعبيراً عن موافقته طائعاً. بينما ضحك ناروموف مهنئاً غيرمان بإنهاء «الصوم» عن اللعب الذي دام طويلاً وتمنى له بداية موفقة.

وقال غيرمان:- ممكن ! - وكتب بالطباشير مبلغ الرهان لورقته.

فسأل موزع الورق، وقد خزر عينيه:- كم المبلغ؟عفواً أنا لا أراه بوضوح.

وأجاب غيرمان: - أربعة وسبعون ألفا.

إستدارت على الفور جميع الرؤوس وتطلعت جميع الأعين نحو غيرمان. وفكر ناروموف:- هل أصابه مس من الجنون !

وقال تشيكالينسكي بإبتسامته المعهودة:- إسمح لي بالقول لك أن لعبتك قوية: فلم يطرح أحد هنا حتى الآن أكثر من مائتين وسبعين.

فعارضه غيرمان قائلاً: - اذن؟ هل ستراهن على ورقتي أم لا؟

وانحنى تشيكالينسكي له موافقاً بالطاعة نفسها. وقال: أود فقط أن أبلغك بأنه رغم ثقة الرفاق فإنني لا أستطيع توزيع الورق إلا على نقود خالصة. من جهتي طبعا تكفيني كلمتك، لكن أرجو وفقاً لنظام اللعب والمحاسبة أن تضع النقود على ورقة اللعب.

فأخرج غيرمان من جيبه ورق بنكنوت وأعطاها إلى تشيكالينسكي الذي ألقى نظرة سريعة عليها ثم وضعها على ورقة لعب غيرمان.

وبدأ بتوزيع ورق اللعب. كانت ملقاة من جهة اليمين ورقة تسعة ومن جهة اليمين ورقة ثلاثة.

قال غيرمان: ورقة رابحة ! - وأظهر ورقته للعب.

وسرت همسات في أوساط اللاعبين. وقطب تشيكالينسكي جبينه، لكن سرعان ما عادت الإبتسامة إلى سحنة وجهه.

فسأل غيرمان: هل تسمحون لي بالإستلام؟

تفضل.

وأخرج تشيكالينسكي من جيبه عدة أوراق بنكنوت ودفع الحساب على الفور. فأخذ غيرمان نقوده وابتعد عن الطاولة. و لم يستطع ناروموف أن يثوب إلى نفسه. وتجرع غيرمان كأس الليموناده وانصرف إلى بيته.

في مساء اليوم التالي جاء الى تشيكالينسكي مرة أخرى. وكان رب البيت يوزع الورق. فدنا غيرمان من الطاولة ، فأفسح اللاعبون المجال له في المكان فوراً. وانحنى له تشيكالينسكي بلطف.

وانتظر غيرمان حلول دورة اللعب الجديدة، فطرح ورقته للعب ووضع فوقها السبعة وأربعين ألفاً وكذلك ما كسبه بالأمس.

فأخذ تشيكالينسكي يوزع أوراق اللعب. وأضحت ورقة الولد من جهة اليمين، وورقة سبعة من جهة اليسار.

ففتح غيرمان ورقة السبعة.

وتأوه الجميع. وبدأ على تشيكالينسكي الإضطراب. لكنه حسب مبلغ أربع وتسعين ألفا وسلمه إلى غيرمان. فأخذها غيرمان ببرود وانصرف لتوه.

وفي مساء اليوم التالي جاء غيرمان إلى طاولة اللعب مجدداً. وكان الجميع بانتظاره. وترك الجنرالات والمستشارون السريون لعبة «الفيست» من أجل مشاهدة هذا اللعب غير العادي للغاية. وقفز الضباط من الأرائك، وتجمهر كافة الضباط في صالة الإستقبال. واحتشد الجميع حول غيرمان.علماً أن بقية اللاعبين لم يطرحوا أوراق لعبهم وهم ينتظرون بفارغ الصبر بم سيختتم اللعب. ووقف غيرمان أمام الطاولة مستعداً لكي ينازل لوحده تشيكالينسكي الشاحب الوجه، ولو أنه يواصل الإبتسام. وفك كل واحد منهما دستة ورق اللعب. وخلط تشيكالينسكي الورق. بينما سحب غيرمان ورقته وغطاها بكومة من أوراق البنكنوت. وبدا كما لو أن هذا نزالاً فيه مبارزة. وساد الصمت المطبق في كل مكان.

وطفق تشيكالاينسكي يوزع ورق اللعب ويداه ترتجفان. فوضعت من جهة اليمين الورقة الملكة ومن جهة اليسار الورقة الجوكر.

فقال غيرمان وقد فتح ورقته – فاز الجوكر !

بينما قال تشيكالينسكي بلطف:– ملكتك صريعة.

إنتفض غيرمان: فعلاً كانت بيده ورقة ملكة البستوني بدلاً من الجوكر. و لم يصدق عينيه، و لم يفهم كيف حدث أن إلتبس عليه الأمر.

وبدا له في تلك اللحظة أن الملكة البستوني قد غمزت عينيها وابتسمت بسخرية. وذهل لهذا التشابه العجيب.

فصرخ برعب:– العجوز !

سحب تشيكالينسكي إليه الأوراق التي فاز بها. بينما وقف غيرمان بلا حراك. وعندما ابتعد من الطاولة، تصاعدت الغمغمة الشديدة. وقال اللاعبون:– لقد أجاد التحدى في اللعب! – وخلط تشيكالينسبكي أوراق اللعب مجدداً: وتواصل اللعب في مسيرته المعتادة.

خاتمة

أصاب غيرمـــان مس من الجنون. ويرقـــد في مستشفى اوبوخوفو في العنـــبر رقم ١٧، ولا يرد على أية اسئلة ويدمدم بسرعة غير عادية: «ثلاثة، سبعة، جوكر ! ثلاثة، سبعة، ملكة!...».

لقد تزوجـــت ليزافيتا ايفانوفنا شاباً طيباً جـــداً، يعمل في مكان ما ولديـــه ثروة كبيرة: فهو إبن مدير الأعمال السابق للكونتيسة العجوز. وترعى ليزافيتا ايفانوفنا قريبة فقيرة.

أما تومسكي فقد ترقى إلى رتبة نقيب وتزوج الأميرة بولينا.

تاريخ قرية غوريوخينو

إذا اعطـاني الرب القراء فلربما يمكن أن يتولد لديهم الفضول لمعرفة كيف قررت كتابة تاريخ قريـة غوريوخينو. ويتعين علي لهذا الغرض إيراد بعض التفاصيل الأولية.

إننـي ولدت من والديـن شريفين ونبيلين بقريـة غوريوخينو في ١ ابريـل عام ١٨٠١، وتلقيـت التعليم الإبتدائي علـى يد القندلفت في كنيستنا. وأنا مدين إلى هذا الرجل الوقور بتنمية الرغبة لدي لاحقاً في المطالعـة وعموماً في الدراسة الأدبية. وبالرغم من أن نجاحاتي كانت بطيئة، لكنها مترعة بالثقة، فحين بلغت العاشرة من العمر كنت أعرف تقريباً كل ما بقي في ذاكرتي الآن. علماً إنها ضعيفة أصلاً، و لم تسمح لي في إرهاق نفسي أكثر مما ينبغي، بسبب ضعف صحتي.

وكانـت تسمية الأديب دائماً منشودة جداً لدي. أما والداي فهما مـن الناس المحترمين لكنهما مـن البسطاء وتلقيا التربيـة على الطراز القديم، و لم يطالعـا أي شئ أبداً، ولذا لم توجد في البيت كله أية كتب باستثنـاء كتاب «الألفباء» الـذي تم شراؤه من أجلـي، وكذلك كراس تعليم كتابة الرسائل الحديث. وكانت قراءة كراس تعليم كتابة الرسائل التمريـن المحبب لدى خلال فترة طويلة. وقد حفظته عن ظهر قلب، وبالرغـم مـن كل شيء كنـت أجد فيـه في كل يوم بدائـع جديدة لم ألاحظهـا سابقـاً. وكنت أعتبر مؤلفه كورغانـوف رجلاً عظيماً بعد

الجنـرال بليميانيكـوف الـذي كان والدي يـاوره في زمـان ما. وقد سألـت الجميع عن كورغانوف لكـن، وياللأسف، لم يستطع أي أحد إرضاء فضـولي، و لم يعرفه أي أحد شخصياً، وكانوا يجيبون عن كافة أسئلتي بالقول فقط أن كورغانوف مؤلف كراس تعليم كتابة الرسائل، وهو مـا كنت أعرفه بيقين أصلاً سابقاً. وقـد أحاطت بشخصه عتمة المجهـول وكأنه أحد أنصـاف الأرباب القدمـاء. وأحياناً كنت حتى أشك بوجـوده. وبدت لي مفتعلة حتى الخرافة الفارغة عنه التي تنتظر نيبورا[٥٤]جديـدا لفك رموزها. ومع ذلك كان مع هذا يلاحق خيالي ، وكنـت أصبو إلى أن أكسب هذه الشخصية الغامضة صورة ما، وفي نهايـة المطاف قررت إنـه يشبه محلف محكمة الإقليـم كوريوتشكين، وهو عجوز صغير الحجم ذو أنف أحمر وعينين براقتين.

في عـام ١٨١٢ نقلـت إلى موسكو وألحقـوني للتعليم في بنسيون كارل ايفانوفيتش ميير - حيث أمضيت هناك فترة لا تربو على ثلاثة اشهـر، وبعدها صرفونا إلى أهالينا بسبب زحف العدو - فرجعت إلى القريـة. وبعد طرد الغزاة مـن أبناء مختلف الشعوب مـن بلادنا أرادوا إعادتـي إلى موسكـو مجدداً لرؤية فيما إذا رجـع كارل ايفانوفيتش إلى مبنـاه السابق، وبعكس الحال قد يتم إلحاقي بمدرسـة أخرى. لكنني توسلـت إلى أمـي أن تبقيني في القريـة، لأن صحتي لم تكن تسمح لي بالنهوض من الفراش في الساعة السابعة صباحـاً كما هي العادة في جميـع البنسيونات. وهكـذا مضت الأيام حتى بلغـت سن السادسة عشـرة ، وبقيـت في مستوى تعليمـي الإبتدائي، وكنـت أمارس لعبة ضـرب الأوتاد المصفوفة (لابتا) مع أقراني، وهـو العلم الوحيد الذي حصلت عليه بقدر كاف منذ أيام وجودي في البنسيون.

٥٤. بارتولد نيبور مؤرخ ألماني شهير مختص بدراسة التاريخ القديم (المترجم).

وفي هذه الفترة تم إلحاقي في فوج المشاة كمتدرب (يونكر) وبقيت فيه حتى عام ١٨ الماضي. وقد ترك وجودي في الفوج انطباعات طيبة قليلة لدي، باستثناء منحي رتبة ضابط وكسب مبلغ ٢٤٥ روبلا في الوقت الذي لم يتبق في جيبي سوى ٦ هريفينات. وأرغمتني وفاة والدي العزيزين على تقديم استقالتي والمجيء إلى ضيعتي.

كانت هذه الفترة من حياتي ذات أهمية بالنسبة لي، لذا فأنني أنوي الإسهاب في الحديث عنها، راجياً الإعتذار مسبقاً من القارئ الودود، إذا ما كنت أسئ استغلال تسامحه في الإصغاء لي.

كان اليوم خريفياً وغائماً. وعندما وصلت إلى المحطة التي وجب علي التوجه منها إلى غوريوخينو، إستأجرت خيولاً من الأهالي وانطلقت في الطريق الترابي. وبالرغم من طبعي الهادئ فإنني كنت أنتظر بصبر نافد أن أرى مجدداً الأماكن التي أمضيت فيها خيرة أعوامي، وقد تسلطت هذه الرغبة علي بشدة، مما جعلني في كل لحظة أطلب من حوذي عربتي الإسراع، وطفقت أعده تارة بالفودكا، وتارة أخرى أهدده بالضرب، وكنت أجد مريحاً أكثر بالنسبة لي أن اخزه بظهره من اخراج حافظة النقود وفتحها أمامه، واعترف بأنني ضربته ثلاث مرات، وهو ما لم افعله من قبل أبداً، لأنني كنت أكن المودة من دون أن أعرف السبب إلى فئة الحوذيين. وانطلق الحوذي بعربته الترويكا (عربة تجرها ثلاثة خيول - المترجم)، لكن ترائى لي أنه على عادة الحوذيين يشد الأعنة، بالرغم من حثه الخيول والتلويح بالسوط. وفي نهاية المطاف لاح لناظري حرج غوريوخينو، وبعد ١٠ دقائق ولجت فناء الضيعة. وشعرت بوجيف قلبي الشديد -وأخذت أتطلع حوالي بقلق لا يوصف. فأنا لم أر غوريوخينو خلال فترة ثمانية أعوام. وقد نمت أشجار البتولا التي غرست عند السياج، وأصبحت

الآن فارعـة ومتفرعـة الأغصان. أمـا الباحة التي كانـت تزينها ثلاثة أصص أزهار مستقيمة ويمر بينها طريق رملي عريض فقد تحولت الآن إلى روضـة لم تحصد أعشابها وترعى فيها الأبقار. توقفت عربتي أمام المدخـل الأمامي للبيت. وتوجه خادمي لفتح الباب، لكنه كان مغلقاً بلوائـح خشبية مسمرة فيه، ولو أن درفـات النوافذ كانت مفتوحة مما يعني أن البيت كان مسكوناً.وخرجت إمرأة من كوخ الخدم وسألت مـاذا أريد. وبعد أن عرفت أن سيد الضيعة قد جاء هرعت إلى الكوخ مجدداً، وسرعان ما أحاط بي جميع الخدم. وقد تأثرت بالغ التأثر لرؤية الوجـوه المعروفة وغـير المعروفة لدي – وتبادلت معهـم جميعاً القبل بمودة: فقـد أصبح أقراني السابقـين من الصبيان رجـالاً، أما الفتيات الصغـيرات اللواتـي كـن يجلسن على الأرض في زمان مـا بانتظار من يكلفهـن بأمر ما، فقد أصبحن نسـاء متزوجات. وذرف الرجال الدمـوع. وقلت للنساء بلا أية كلفة:« لكم أصبحتن عجائز « – بينما رددن:«لكـم اصبحـت قبيحا يا باتيوشـكا». واقتـادوني إلى الجناح الخلفـي فخرجت مرضعتي لإستقبـالي واحتضنتني في بكاء وعويل، كمـا استقبل اوديسيوس[٥٥] بعد رحلات العـذاب. وانطلقوا لإعداد الحمـام. بينما استدعـي الطباخ، الذي بقي منذ فـترة طويلة بلا عمل وأطلق لحيته، من أجل أن يعد لي وجبة الغداء أو العشاء – فقد زحفت الظلمـة. وجرى علـى الفور تنظيف الغرف مـن أجلي والتي سكنت فيها المرضعة مع الفتيات خادمات المرحومة أمي، ووجدت نفسي في بيت أبي المتواضع الهادئ، وغفوت في غرفتي نفسها التي ولدت فيها قبل ٢٣ عاماً خلت.

أمضيـت فترة ثلاثـة أسابيـع في أداء مختلف الأعمـال – فتعاملت

٥٥. بطل ملحمة هوميروس اليونانية – المترجم.

مـع ممثلي الأهـالي ورؤساء الدوائـر والموظفـين في المحافظة. وأخيرا استلمت الميراث وأصبحت مالك ضيعـة أبي. واستسلمت إلى الدعة والطمأنينة، لكن سرعان ما عذبني الضجر بسبب العطالة. و لم أتعرف بعد على جاري الطيب والمحترم. علماً أن مشاغل إدارة الضيعة كانت غريبة بالنسبة لي. وكانت أحاديث مرضعتي التي ائتمنتها على المفاتيح وشؤون الإدارة تقتصـر على رواية ١٥ فكاهة بيتية، اتسمت بالطرافة البالغـة بالنسبـة لي، لكنها كانت ترويها دائمـاً بالصيغة نفسها، ولذا أصبحـت بالنسبة لي بمثابة كراس آخر لتعليـم كتابة الرسائل الحديث، الـذي كنت أعـرف أين اجد الكلمـة المطلوبة في اي سطـر فيه. وقد وجـدت الكراس الاصلي العتيد في وضـع بائس في حجرة المخزن، وسط شتى أنـواع سقط المتاع. فأخرجته إلى النـور وكنت اود قرائته لكـن المؤلف كورغانوف فقد روعتـه السابقة، فطالعته مرة أخرى ثم لم أفتحه بعد ذلك.

ولابـد أنه طـرأت لي في هذه المفارقـات فكـرة أن أجرب نفسي بتأليف شيء ما؟ والقارئ الكريم يعرف بأنني نشأت في اجواء الفاقة، و لم تسنـح لي الفرصة للحصول بصـورة ذاتية على ما ضاع مرة، فقد كنـت حتى سن السادسة عشرة ألعـب مع صبيان الضيعة، وبعد ذلك لـدى الإنتقال مـن محافظة إلى أخـرى، ومن شقـة إلى أخرى، كنت ألعب على طـاولات بليارد مهترئة وأمضي سائـراً بمشية عسكرية في الأوحال.

زد علـى ذلك فقد بـدا لي أيامذاك شيئاً صعـب التحقيق أن أصبح مؤلفـاً، وشيئـاً بعيد المنال بالنسبـة لنا نحن غير المتنوريـن، لدرجة أن التفكـير في إمساك القلم كانت تخيفني في البداية. فهل يمكن أن أتجرأ علـى الأمل في أن اصبـح في وقت ما في عداد الكتاب والمؤلفين، في

الوقت الـذي لم تتحقق رغبتي القوية في أن ألتقـي أحداً منهم؟ وهذا يذكرني بحادث أنوي روايته لإثبات رغبتي المشبوبة دوما في التعامل مع الأدب الوطني.

فقـد حدث في عام ١٨٢٠ حين كنت عسكرياً متدرباً (يونكر) أن أرسلـت بمهمـة إلى بطرسبـورغ. وعشـت هناك فـترة قصيرة، وبالرغم من أنه لم يكن لدي أي أحد من المعارف فيها، فقد أمضيت الوقت بمرح بالغ: في كل يوم كنت أرتاد المسرح بهدوء، وأجلس في الكالـيري في الطابق الرابع. وعرفت جميع الممثلين بالإسم ووقعت بغـرام التي كانت تؤدي بفن رفيـع في أحد أيام الأحد دور أماليا في درامـا «الحقد على البشـر والغفران». وفي الصباح حين عدت من دائـرة الأركان العامة ولجت كعادتـي دكان بيع الحلويات وأخذت أطالـع المجلات الأدبية وأنا أتناول قـدح الشوكولاتة. وبينما كنت جالساً وغارقاً في مطالعة مقالة نقدية بقلم المدعو» بلاغو ناميريني» دنـا منـي شخص يرتـدي معطفاً بلـون أصفر ضـارب إلى الخضرة وسحب مـن تحت كراستـي ورقة مـن «الصحيفـة الهامبورغية». وكنت مشغولاً في القراءة إلى درجة أنني لم أرفع عيني نحوه. وطلب الشخص المجهول لنفسه طبق بفتيك وجلس قبالتي. بينما واصلت القراءة و لم أعر له انتباهاً، أما هو فقد انهمك في تناول فطوره، وشتم الصبـي غاضباً لتهاونـه في الخدمة، كما شرب نصـف قنينة نبيذ ثم خرج. وكان هناك شابان يتناولان الفطور في المكان. وقال أحدهما للآخـر: «أتعرف من كان هذا؟.. إنه المؤلـف (ب)». وهتفت بلا إرادة منـي: «مؤلـف». فتركت الصحيفـة مـن دون أن أتم قرائتها والقـدح الـذي لم أكمـل شربه، وعاجلـت في دفع ثمـن الفاتورة، وهرولـت إلى الشارع من دون انتظار استلام باقي النقود. وتطلعت

في كافـة الأنحاء ورأيت بعيدا المعطف الأصفر الضارب إلى الخضرة وانطلقــت نحوه في شارع نيفسكي ولكن فقط بدون هرولة. وبعد أن مشيت عدة خطوات شعرت بغتة أن أحداً ما يوقفني، – فالتفت ورائي ووجــدت ضابطاً من الحرس الذي قـال أنه كان يجب علي ألا أدفعـه من الرصيف، والأجدر بـي أن أتوقف واعتدل في القامة تحية لـه. وبعد هذا التوبيخ صرت أكثر حــذراً، ولسوء حظي كنت في كل لحظـة أقابل ضباطاً، فأتوقف أمامهم، أما المؤلف فكان يبتعد ماضيــاً إلى الأمام. و لم يكن معطفــي العسكري كجندي يسبب لي سابقاً مثل هذا الضيق أبداً، كما لم تبدو لي كتافيات الرتب العسكرية أبــداً شيئاً مرغوباً فيه بهذا القــدر. وأخيراً لحقت بالمعطف الأصفر المائــل للإخضرارا عند جسر انيتشكين. وقلــت وأنا ارفع يدي على صدغــي: « إسمحوا لي بالسؤال هل أنتــم السيد (ب) التي سعدت بقــراءة مقالاته الرائعة في صحيفة « سوريفنافاتل بروسفيشينيه»؟». فأجابني: « كلا البتة، أنا لست مؤلفا بل كاتب عدل، إلا أنني أعرف السيــد جــدا، وإلتقيته قبل ربع ساعة عند جســر الشرطة». وهكذا كلفنــي احترامــي لــلأدب الروســي ٣٠ كوبيــكا من باقــي المبلغ، والتوبيخ في مكان الخدمة العسكرية، وكدت أدخل السجن– وكل هذا كان عبثاً.

وبالرغــم من جميع اعتراضات عقلــي، فان الفكرة الجسورة في أن أصبــح كاتبــاً كانت تــدور في رأسي في كل لحظــة. وفي الختام، بعــد أن عجزت عن مقاومة إرادة الطبيعــة أكثر، قمت بخياطة دفتر سميــك وعقدت النية الراسخة على ملئ صفحاته مهما كان الأمر. وقــد تعاملت مع جميــع أصناف الشعــر(حيث أننــي لم أفكر بعد بكتابــة النثر الطيع) وقيمتها، وعقدت العزم بثبات على نظم قصيدة

ملحميــة مستوحاة من تاريخ وطنــي. و لم أبحث طويلا عن البطل. ووقع اختياري على روريك[٥٦]- وانهمكت في العمل.

لقــد اكتسبت مهارة ما في نظم الشعــر لدى استنساخ الدفاتر التي كان يتداولها ضباطنا وهي:« الجار الخطر « و » نقد فيبولفار موسكو « و »عنــد برك بريسنيا « وهلمجرا. وبالرغم من أن نظم قصيدتي جرى ببطئ فإنني تركتها عند المقطع الثالث. وفكرت بأن النوع الملحمي لا يناسبنــي، وبدأت بكتابة مأساة روريك. بيــد أن كتابة المأساة تعثرت. وجربــت أن احولها إلى أنشــودة غنائية (بالادا)، لكن قلمي عجز عن تطويعها، فبدأت وانهيت بنجاح نظم تعليق على بورتريه روريك.

وبالرغــم مــن أن تعليقي لم يكن يستحق الإهتمــام البتة، بالأخص لكونه أول عمل لشاعر شاب، لكنني احسست بأنني لم أولد كشاعر، ولذا فأنني اكتفيت بالتجربة الأولى هذه. بيد أن محاولاتي الإبداعية قد ربطتني بشدة بالأعمال الأدبية، ولهذا لم أستطع التخلي عن الكراس والمحبرة. وأردت الإنصراف إلى النثر. وفي الحالة الاولى، ونظرا لعدم رغبتي في الدراسة الإبتدائية، ووضع الخطة، وربط الأجزاء وهلمجرا، فقد نويت كتابة أفكار متفرقة، بلا رابطة، وبلا أي انتظام، وبالشكل الــذي تترائى لي.ولسوء الحظ لم تخطر الأفــكار في رأسي، وواصلت التفكير خلال يومين كاملين في كتابة الملاحظة التالية فقط:

إن الشخصــ الذي لا يطيع قوانــين العقل ويعتاد علــى النقياد إلى النــزوات والشهوات، غالباً ما يضل الــدرب ويعرض نفسه إلى التوبة متأخراً.

---

٥٦. امير نوفغورود الاسكندنافي الاصل، ويعتبر أحد مؤسسي الدولة الروسية- المترجم

طبعاً إن هذه الفكرة صحيحة لكنها ليست جديدة. فتركت الفكرة وانهمكت في كتابة رواية قصيرة، لكن بما أنني لم أقدر لأنه لم يكن من عادتي ان أروي الحدث المختلق، لذا وقع اختياري على النكات الممتازة التي سمعتها في وقت ما من مختلف الأشخاص، وسعيت إلى تزويق الحقيقة بحيوية السرد، وأحياناً «بالزهور» المنبثقة في خيالي نفسي. ولدى كتابة هذه الروايات بدأت شيئاً فشيئاً في صياغة أسلوبي وتعلمت كيفية التعبير عن نفسي بشكل صحيح وممتع وبحرية. لكن سرعان ما نضب احتياطي وأخذت أبحث مجدداً عن مادة لنشاطي الأدبي.

لقد كانت تشغل خاطري منذ وقت بعيد الفكرة حول التخلي عن النكات المبتذلة والمشبوهة والتفرغ إلى تصوير الأحداث الواقعية والكبرى. وبدأ لي أن هدفي في أن أصبح قاضياً ومراقباً ونبياً للعصور والشعوب يعتبر أسمى درجة يصل إليها الكاتب. لكن ما هي القصة التي أستطيع كتابتها بتعليمي البائس، وحيث لم أجد توجيهات التحذير من جهابذة العلم والرجال النزيهين؟ وأي صنف من التاريخ لم يتناولوه بالدرس والتمحيص؟ وهل أستطيع كتابة التاريخ العالمي – لكن يوجد فعلاً العمل الخالد للأب ميلوت؟ وهل أتناول تاريخ وطني؟ لكن ماذا سأقول بعد المؤرخين تاتيشيف وبولتين وغوليكوف؟ وهل بوسعي تقليب ونبش الأسفار وبلوغ الفكرة المنشودة باللغة البائسة، بينما عجزت عن تعلم الارقام السلافية؟ وفكرت بكتابة تاريخ أقل حجماً مثل تاريخ مدينتنا الريفية،لكن انبجست أمامي على التو عقبات كثيرة لا يمكنني اجتيازها! كالسفر إلى المدينة والقيام بزيارات إلى المحافظ والأسقف وطلب السماح بالإطلاع على الأرشيف ومستودعات الأديرة وغير ذلك. إلا أن تاريخ مدينتنا وكانت قضاءاً ستكون مريحة

أكثر بالنسبة لي، بيد أنها لم تكن تثير اهتمام الفيلسوف ولا البراغماتي ولا توفر غذاء دسماً لممارسة البلاغة اللفظية: لقد تم تغيير إسم إلى مدينة في عام ١٧، والحدث الهام الوحيد فيها والباقي في الأسفار التاريخية هو الحريق الفظيع الذي حدث قبل عشرة أعوام وإلتهم لهيبه السوق ومباني المرافق العامة.

ووقع بالصدفة حادث بدد حيرتي. إذ أن الغسالة التي كانت تنشر الغسيل في علية البيت عثرت على سلة قديمة مملوءة بالجذاذات والزبالة والكتب. وكان البيت كله يعرف ولعي بالمطالعة. ولحظتئذ جائت مدبرة البيت، حين كنت عاكفاً على دفتري، وأنا أقضم الريشة وأفكر بخبرة الوعاظ الريفيين، وجرجرت السلة مسرورة وصاحت بابتهاج: « كتب ! كتب ! » - فكررت « كتب ! » واندفعت فرحا نحو السلة. ورأيت فعلاً كومة من الكتب المجلدة بورق أخضر وأزرق. وكانت مجموعة من التقاويم القديمة. وقد برد هذا الإكتشاف حماسي وبهجتي، ومع ذلك كنت مسروراً باللقية التي وقعت بالصدفة، فهي مع ذلك كتب، وأكرمت بسخاء الغسالة على همتها ونقدتها قطعة نقود فضية من فئة نصف روبل. وحينما بقيت وحيداً أخذت اتفحص تقاويمي، وسرعان ما جذبت اهتمامي الشديد بها. وكانت تشكل سلسلة متصلة من عام ١٧٤٤ إلى عام ١٧٩٩، أي بالضبط ٥٥ عاماً. ودونت على الورق الأزرق الذي لفت به التقاويم كتابات قديمة. وعندما ألقيت نظرة على هذه السطور دهشت حين رأيت أنها تتضمن ليس فقط الملاحظات حول حالة الطقس والحسابات المنزلية بل كذلك الأخبار التاريخية القصيرة المتعلقة بقرية غوريوخينو. وشرعت فوراً بتفحص المدونات الثمينة وسرعان ما وجدت انها تمثل قصة كاملة لقريتي خلال نصف قرن كامل تقريبا بترتيب تاريخي

صارم.زد على ذلك أنها تضمنــت احتياطياً لا ينضب من المعلومات الإقتصاديــة والحسابيــة ومدونات حول حالــة الطقس وغير ذلك من الملاحظـات العلميــة الأخرى. ومنــذ ذلك الحين شغلــت بالي حصراً دراســة هذه الكتابات، لأنني وجدت فيهــا الفرصة لكي استنبط منها سرداً روائيــاً يتسم بالتنسيق والطرافة والموعظــة. وبعد اطلاعي على هــذه اللقيات الثمينة جــداً طفقت أبحث عن مصــادر جديدة لتاريخ قريــة غوريوخينــو. وسرعان ما بهت من وفرتهــا. وأمضيت فترة ستة أشهــر كاملــة في الدراســة الأوليــة، وفي نهاية الأمر شرعــت بالعمل المنشــود الواجــب انجازه منذ وقــت بعيد، واتممت بمعونــة الرب هذا العمل في ٣ نوفمبر عام ١٨٢٧.

والآن، أفعل كما فعل مؤرخ مثلي، لا يحضرني إسمه، لدى اختتام اجــتراح مأثرتــه، فأضــع الريشة جانبــاً وأمضي بحــزن إلى حديقتي حيث استغــرق في التفكير في ما أنجزته. واعتقــد أنني بكتابتي تاريخ غوريوخينــو قد أديت واجبي، و لم أعد بحاجــة إلى العا لم، انني أديت واجبي وحان الحين لكي أخلد للنوم.

أورد هنا قائمة بالمصادر التي استخدمتها في كتابة تاريخ غوريوخينو:

مجموعــة التقاويم القديمــة. ٥٤ جزءا. إستنسخــت الأجزاء ال ٢٠ الأولى منهــا بخط قــديم الأسلوب وبعلامات اختصــار. وسجل هذه المخطوطة جدي الأكبر اندريــه ستيبانوفيتش بيلكين. علماً أنها تتميز بالوضوح والإيجاز، وعلــى سبيل المثال: ٤ مايو.ثلوج.جلد تريشكا بسبب وقاحته.٦ – البقرة السمراء نفقت. جلد سينكا بسبب العربدة وشرب الخمر.٨ – الجو صاح. ثلج عليه آثار الحيوانات. قنصت ثلاثة

ارانب، وهلمجرا، بـدون أي تفكير...أما الأجزاء ال ٣٥ الباقية فقد دونت بخطوط متباينة، وأغلبها ما يسمى بخط أصحاب الدكاكين مع علامات اختصار أو بدونها. وعموماً هي كثيرة وغير مترابطة وبدون الإلتزام بقواعد الخط. ولوحظت في بعض الأماكن يد إمرأة. وفي هذا القسم ترد مدونات جدي ايفان اندرييفتش بيلكين وجدتي، وكذلك زوجتـه يفبراكسيـا الكسييفنا، وكذلك مدونات وكيـل إدارة أعمال الضيعة غاربوفيتسكي.

مخطوطـة شماس غوريوخينو. وعثرت على هذه المخطوطة المثيرة للإهتمـام لدى قسيسنا زوج كاتب المدونـة. وقد مزقت الصفحات الأولى واستخدمهـا أولاد القسيسـ في صنـع ما يسمـى بالطيارات الورقيـة. وسقطـت واحدة منها في وسط فناء بيتـي. فرفعتها وأردت إعادتهـا إلى الأطفـال، لكنني لاحظـت ان عليها كتابـات. ورأيت منـذ مطالعة السطـور الأولى أن الطيـارة الورقية صنعـت من أوراق المخطوطـة، ولحسـن الحظ لحقت في انقاذ البقيـة الباقية. وتتميز هذه المخطوطة التي حصلت عليها مقابل ربع مكيال من الشوفان، بكونها عميقة التفكيروذات تزويق لفظي غير عادي.

الأحاديث المسموعة – انني لم أهمل أية معلومات. وأنا مدين على الأخص إلى اغرافينا تريفونوفاوالدة آفدي عمدة القرية التي كانت كما يزعم البعض عشيقة الوكيل غاربوفيتسكي.

الحكايـات الريفيزسكيه(وثائـق إحصـاء النفوسـ) المتضمنـة ملاحظات العمـداء السابقين(دفاتر الحسابـات والمصروفات) بشأن أخلاقيات الفلاحين وأحوالهم.

تبلـغ مساحـة الإقليم الذي يحمـل إسم عاصمتـه غوريوخينو ما لا يزيـد عن ٢٤٠ ديسياتينـا(٥٧) من مساحة الكـرة الأرضية. ويصل عـدد نفوسه إلى ٦٣ نسمة. وتحاذيه من الشمـال القريتان ديريوخوفو وبيركوخوفو، وأهاليهما فقراء ونحيلـون وقصيروالقامة، أما الأسياد المتكـبرون فهم مشغولون بممارسة أعمال مقحامة هي صيد الأرانب. ومـن الجنوب يفصلها نهر سيفكا عـن ممتلكات القرشايين من زارعي الحبوب الأحرار– وهم جيران يسببون المشاكل، وذاع صيتهم بكون أخلاقهـم تتسـم بالقسـوة الفظة. وتحاذيها من الغـرب حقول زاخار المزهـرة، التي تزدهر تحت سلطة أصحاب أطيـان حكماء ومتنورين. وتنـداح من جهة الشرق أماكن مقفرة موحشة، والمستنقعات الوعرة، حيث تنبت ثمار عنب الدب فقط، وحيث يسمع فقط نقيق الضفادع الرتيب، و تقول الخرافات أنه يقطن هناك شيطان ما.

ملاحظة. تسمـى هذه المستنقعات بالشيطانية. وزعم أن راعية شبه مجنونـة كانت ترعـى الخنازير في مكان منعزل قريـب منه. فحملت و لم تستطع أبداً تفسير هـذه الواقعة. واتهم الناس شيطان المستنقعات بارتـكاب المعصية، بيد أن هذه الحكاية لا تليق باهتمام المؤرخ، وبعد نيبور لا يغفر لأحد تصديق ذلك.

إشتهرت غوريوخينو منذ قـديم الزمان بخصوبة أرضها وبمناخها الرائق الطيب. وينمو في حقولها الجودار والشوفان والشعير والحنطة السوداء. ويزود حرج أشجار البتولا وغابة اشجار الشوح أهالي القرية بالأخشاب والأغصان المتساقطـة من أجل بناء وتدفئة البيوت. وثمة وفرة في الجوز وثمـار عنب الدب وعنب البقر والآس الأسود. وينمو

---

٥٧. ديسياتنيا تعادل ١,٠٩ هكتار – المترجم.

الفطـر بكميات غير عادية، ويقدم بعد قليه مـع السميتانا كطبق لذيذ ولـو أنه غير صحـي. والبركة مليئة بأسماك الشبـوط، بينما توجد في النهر أسماك الكراكي والقد.

إن غالبيـة أهالي غوريوخينو يتسمـون بكونهم ربعة وصلبي العود وشديدي البئس، وعيونهم رمادية، وشعرهم أصهـب أو أحمر. أما النساء فيتميزن بأنوفهن المنتصبة إلى الأعلى قليلا، وبالوجنات المنتفخة وبالبدانة. ملاحظة: المرأة بدينة، غالباً ما يرد هذا التعبير في ملاحظات العمـدا لمدونة في وثائـق إحصاء النفوس(الحكايـات الريفيزسكيه). والرجـال ذو سلـوك طيب ومحبـون للعمل(بالأخص في حقولهم) وجسورون ولهم روح مقدامة: ينطلق كثيرون منها على إنفراد لصيد الدببة وذاع صيتهم في حلبات المصارعة. وعموماً إنهم يتلذذون كل التلذذ بمقارعـة الخمر. وتقاسم النساء الرجـال بالإضافة إلى أعمالهن المنزلية قسماً كبيراً من أعمالهم. علماً أنهن لا يتخلفن عنهم في الجرأة، وقلمـا يخشين بلوغ سن الشيخوخة. إنهن الحرس القوي للمجتمع، الذي يسهر بيقظة في فناء ضيعة المالك، وتطلق عليهن تسمية الرامحات (نسبة إلى كلمة الرمح).والواجب الرئيسي للرامحات هو الدق في اكثر الأوقـات بالحجر على لوح من الحديد الزهر وبهذا يرهبن قوى الشر. إنهن عفيفـات وحسناوات بالقدر ذاته، ويـردن على التحرش بحزم وبفصاحة.

يمارس أهالي غوريوخينو منذ وقت بعيد وبوفرة تجارة الأياف اللبية والسـلال والأحذية المصنوعة من الحبـال والحصر.ويساعد على ذلك نهـر سيفكا الذي يمخـرون عبابه في الـزوارق بالمكاكيك، كما كان يفعـل الإسكندنافيون القدامى، وفي فصول السنة الأخرى يخوضون النهر بعد رفع أطراف سراويلهم.

أما لغة غوريوخينو فهي احدى لهجات اللغة السلافية لكنها بعيدة عنـه كالروسية. إنهـا مترعة بالمجازيات والمحذوفـات، كما أن بعض الحـروف قد ألغيت تماماً او تم تحريفها الى أخرى. ولكن ساكن روسيا الكبرى يفهم بيسر كلام ساكن غوريوخينو، والعكس بالعكس.

كان الرجال يتزوجون في سن ١٣ عاماً والنساء في سن ٢٠ عاما. وكانـت الزوجات يضربن أزواجهن في غضون أربعة أو خمسة أعوام الأولى مـن الزواج. وبعد ذلك يبدأ الأزواج بضرب زوجاتهم. وبهذا تتوفر لدى كلا الجنسين الفرصة للتمتع بالسلطة، ويتم تحقيق التوازن.

كانت مراسم وطقوسـ الجنازة تجري كالأتي: ينقل جثمان الفقيد في يـوم وفاته إلى المقبرة بغية ألا يشغل مكانا زائداً في البيت بلا فائدة. وكان يحـدث أن يعطسـ الفقيـد أو يتثائب في اللحظـة نفسها التي كان ينقـل فيها التابوت إلى خارج سيـاج القرية. وتستغرق النساء في البـكاء على فقدان أزواجهن، فيطلقن العويـل وترديد: « يا نور عيني يـا رجلي المقدام! لمن تتركنـي؟ ومن سيخلفـك في ذاكرتي؟». وبعد العـودة مـن المقبرة تبـدأ مأدبة العـزاء تكريماً للفقيد، ويـو لم ويقصف الأقارب والأصدقاء خلال يومين أو ثلاثة وحتى أسبوع، وفقا لجدهم وتمسكهم بذكراه. وقد بقيت هذه الطقوس والمراسم حتى أيامنا هذه.

كانـت أزياء ابنـاء غوريوخينو تتألف مـن رداء يلبس فوق سروال، تعبـيراً عن الإنتمـاء إلى الأقـوام السلافية. وفي الشتـاء كانوا يرتدون معاطـف من فرو الضأن، بيد أنهم في غالـب الأحيان ولغرض التجمل وليسـ للحاجة فعلاً كانوا عادة يضعون المعطف على كتف واحدة ثم يلقونه لدى القيام بأي عمل يتطلب الحركة.

ومنذ القـدم كانت العلوم والفنون وصنـوف الشعر مزدهرة جداً في غوريوخينـو. وكانـت تنشر فيهـا المعارف دائمـاً إلى جانب عمل

القسيس والشماسين الصغار. ويشار في المخطوطة إلى تيرينتيا من المجلس المحلي الذي عاش في حوالي عام ١٧٦٧ وكان يجيد الكتابة باليد اليمنى وكذلك باليد اليسرى. وذاع صيت هذا الرجل النابغة في المنطقة لكتابته شتى أصناف الرسائل والعرائض والهويات الشخصية وغيرها. وقد عانى أكثر من مرة بسبب مهارته الفنية ومثابرته في الخدمة والمشاركة في مختلف الأحداث المشهودة، فتوفي حين بلغ من العمر أرذله، في الوقت الذي بدأ فيه بتعلم الكتابة بالقدم اليمنى، لكن أسلوب الكتابة باليدين بات معروفاً جداً. وقد مارس، كما سيرى القارئ لاحقاً، دوراً هاماً في تاريخ غوريوخينو.

كانت الموسيقى دائما من الفنون المحبوبة لدى أهالي غوريوخينو. فآلات البالالايكا ومزمار القربة التي تمتع القلب بأنغامها، لا تزال حتى اليوم تطنب الأسماع في البيوت، وبالأخص في المبنى العمومي القديم المزين بشجرة حور وبصورة نسر ذي رأسين.

أما الشعر فقد ازدهر في غوريوخينو القديمة في زمن من الأزمان. وبقيت في ذاكرة الأحفاد أشعار ارخيب - ليسي.

إنها من حيث الرقة لا تقل أهمية عن اناشيد الرعاة للشاعر الشهير فرجيل[٥٨]، ومن حيث جمال الصورة الخيالية تتفوق كثيراً على الأناشيد الريفية للسيد سوماروكوف. وبالرغم من أنها تتخلف عن أعمال شعرائنا المحدثين من حيث التزويق الكلامي فانها تعادلها من حيث الإبتكار والظرافة.

ونورد على سبيل المثال هذه القصيدة الساخرة:

---

٥٨. فرجيل شاعر روماني قديم - المترجم.

يمضي الى بيت النبيل مالك الأطيان

مختار القرية انطون

حاملاً في عبه حسابات الأثمان

فيتطلع النبيل فيه بإمعان

ولم يفهم شيئاً مما تراه العيون وراء الأجفان

آه، أيها المختار انطون

لقد نهبت في كل مكان أصحاب الأطيان

وحكمت على القرية بالادقاع والهوان

بينما أنت لزوجتك ندي البنان.

بعد أن اطلعت القارئ على الوضع الإثنوغرافي والإحصائي لغوريوخينو وأخلاق وعادات أهلها. دعنا الآن نبدأ الرواية نفسها.

أزمان خيالية

العمدة تريفون

لقد تغيرت صورة الإدارة في غوريوخينو مرات عديدة. فتعاقبت فيها سلطة العمد الذين ينتخبهم الناس، والوكلاء في إدارة الضياع الذين يعينهم أصحاب الأطيان، وأخيراً كانت تحت أشراف أصحاب الأطيان مباشرة. وسأتابع في سياق سردي منافع وأضرار هذه الصور المتباينة.

ولا يعرف كيف تم تأسيس غوريوخينو وسكانها الأوائل. وترد في الأسفار روايات غامضة مفادها أن غوريوخيتو كانت قرية غنية

وواسعـة وأن جميع سكانها كانـوا أثرياء ذوي نعمة، وكانت جباية الضرائـب الزراعية تتم مرة واحـدة في العام وترسل إلى جهة مجهولة في عـدة عربات. وفي ذلـك الزمان كانت كل حاجـة تشترى بثمن زهيد، بينمـا كانت السلع تباع بثمن غال. و لم يوجد وكلاء لإدارة الضياع، و لم يلحق العمد الأذى بأي أحد، و لم يعمل الأهالي كثيراً، وعاشـوا في بحبوحة ـ و كان الرعاة يقصون صوف القطيع لا بسين الجـزم. لكـن يجب علينا ألا ننقـاد إلى الأوهام التـي يولدها جمال هذه الصـورة. إذ ان جميـع الشعوب تقع تحت تأثـير الفكرة حول العصـر الذهبـي، والبرهنة على أن الناس لا يرضـون أبداً عن الزمن الحاضر، وحسب الخبرة فهناك حين لا يوجد أمل كبير في المستقبل، يتم تزيين الماضي الذي لا عـودة له بأزهار تنبثق من الخيال. وإليكم الخبر اليقين:

كانـت قريـة غوريوخينـو تابعـة منذ زمن بعيـد إلى أسـرة بيلكين المعروفـة. لكن أسـلافي الذين امتلكوا الكثير مـن الضياع الأخرى لم يهتموا بهـذا الأقليم المنعـزل. وواصلت غوريوخينو دفـع القليل من الضرائـب الزراعية ويتولى إدارتها الوكلاء الذيـن ينتخبهم (الفيتشو) او ما يسمى الإجتماع العام للأهالي.

لكن بمرور الزمن تبعثرت أملاك أسرة بيلكين وتدهورت أحوالها. و لم يستطـع الأحفاد الذين أصابهم الأدقـاع إقناع جدهم بأن يتخلى عن عاداته المترفة، وطالبوا باستعـادة الدخل السابق كاملاً من الضيعة والـذي تقلص بعشرة أمثـال. وتوالت الأوامـر والتوجيهات الواردة منهـم الواحدة تلـو الأخرى. وتلاهـا العمدة في اجتمـاع الفيتشو. فاطنـب المخاتير في الـكلام المنمق، وهـاج جمع الناس، أمـا السادة اصحـاب الأطيان فبدلاً من الحصول علـى الديون المؤجلة مضاعفة،

حصلـوا على وعود ماكرة وشكاوى وادعـة كتبت على ورقة وسخة وختمت بقطعة نقود من فئة القرش.

خيمـت سحابة قاتمة فوق غوريوخينو، و لم يهتم بها أي أحد. وفي العـام الأخير لسلطة تريفون، آخر عمدة ، الذي انتخبه الناس في عيد قديس الكنيسـة المحلية، حينما كان الأهالي يحتشدون بصخب حول مبنى اللهـو (يطلق عليه الناس تسمية الحانة) أم يتجولون في الشوارع وقـد احتضن بعضهـم البعض، وهـم يرفعون عقيرتهـم بالأغاني من نظـم ارخيب – ليسـي بصوت عال، ولجت القريـة عربة ذات غطاء مظفـور، يجرها حصانان بجهد جهيد. وجلـس على مقعد الحوذي يهـودي بأسمـال باليـة، وانبجس منهـا رأس يعتمر قبعـة ذات حافة اماميـة، وبـدا انه كان يتطلـع بفضـول الى الناس المرحـين. واستقبل الأهـالي العربة بالضحك والسخرية الفظة (ملاحظة. كان المحمقون يوجهـون الإهانات إلى الحوذي اليهودي وهم يلفون أطراف أثوابهم ويصيحـون بسخرية « يهـودي، يهـودي، كل أذن الخنزير!..»، من مدونـة شماس غوريوخينو). لكنهـم عجبوا للغايـة عندما توقفت العربة في وسط القرية وقفز منها القادم وأمر باستدعاء العمدة تريفون. وكان هذا الحظتئـذٍ في مبنى اللهو، واقتاده إثنان من الشيوخ من ذراعيه باحـترام إلى الساحة. ونظر القـادم الغريب إليه شـزراً وسلمه رسالة وأمـره بقرائتها فورا. وكان من عـادة العمد في غوريوخينو ألا يقرأوا الرسائل بأنفسهم. والعمدة أمي لا يحسن القراءة والكتابة. فاستدعوا أفدييـف الموظف المحلـي. ووجدوه نائماً تحت الجـدار في زقاق في مـكان قريب. واقتادوه إلى الشخص الغريـب. بيد أنه لم يتمكن، ربما بسبب اقتياده عنوة أو الخوف المفاجئ أو الشعور الداخلي بالحزن، من فك رموز الكلمات المكتوبة بخط واضح. فأرسل الرجل الغريب كلا

مـن العمدة تريفون وافدي الموظف المحلي للنوم مرفقا ذلك باللعنات الفظـة، وأجـل قراءة الرسالة إلى يوم غد وتوجـه الى بيت وكيل إدارة الضيعة وتبعه اليهودي حاملا حقيبة صغيرة.

تطلع أهالي غوروخينو بصمت يشوبه العجب إلى هذا الحادث غير العـادي، لكن سرعـان مانسيت العربة واليهـودي والغريب. واختتم اليوم بصخب ومرح ونامت غوريوخينو من دون التنبؤ بما ينتظرها.

إستيقظ الناس عند طلـوع الشمس في الصباح على صوت دقات علـى النوافذ والدعـوة الى الإجتماع العام. وجـاء المواطنون الواحد تلـو الآخـر إلى فناء بيـت وكيـل إدارة الضيعة الذي تحـول إلى مكان للإجتماع. وكانت عيونهم زائغة كدرة وحمراء ووجوههم منتفخة. وطفقوا يتطلعـون، بتثاؤب وبتسوية تصفيفـة الشعر، إلى الرجل ذي القبعة والقفطان الأزرق العتيق الواقف بمهابة عند مدخل بيت الوكيل، ساعـين إلى تذكـر سمات وجهه التي رأوهـا في وقت ما. ووقف إلى جانبـه العمدة تريفون والموظف المحلي افـدي حاسري الرأس ويدل مظهرهما علـى الذل والبؤسـ. وسأل الغريب:« هـل الجميع هنا؟» فكـرر العمدة:« هل الجميع هنـا؟» فأجابه المواطنـون – الجميع المئة بالمئة. وعندئـذ أعلن العمدة أنه تلقى من السيد صاحب الأطيان رسالة وأمر الموظـفً بقراءتها بصوت عال امام الحشـد. فتقدم أفدي وقرأ بصـوت عـال مـا يلي. (ملاحظة:«عثرت علـى الوثيقـة التي تروى الحدث محفوظة لـدى العمدة تريفون في خزانة حفـظ الأيقونات مع الوثائق الأخرى المتعلقة بسيادته على غوريوخينو». و لم أستطع العثور على الرسالة التي تثير الفضول).

إلى تريفون ايفانوف !

إن حامل هذه الرسالة هو وكيلي الذي يتوجه إلى قريتي غوريوخينو لكي يتولى مهام إدارتها. يجب أن يعقد فوراً بناء على طلبه اجتماع الرجال الموجيك وإبلاغهم بأرادتي السيدة، وهي أنه يجب على الفلاحين الموجيك الإمتثال لأوامر وكيلي كما لو أنها أوامري. ويجب أن تنفذ جميع طلباته بلا حيد، وإلا فإنه سيعاملهم بكل حزم. إن ما دعاني الى ذلك هي عدم طاعتهم الخالية من النزاهة، وسلوكك الفاسد الخبيث ياتريفون إيفانوف.
التوقيع (ن.ن)

عندئذ وقف الغريب مفرجا ساقيه بهيئة حرف x وشرع بتنفيذ نهجه السياسي وألقى بعد أن تشبه بالحرف ϕ الكلمة القصيرة والمعبرة التالية: «أنظروا لي ولا تماحكوا، وأنا أعرف بأنكم شعب مدلل وفاسد، لكنني ساجتث الفساد من رؤوسكم بشكل أسرع من زوال نشوة السكر». لكن لم تكن في أي رأس نشوة سكر يوم أمس. ورفع اهل غوريوخينو أنوفهم كما لو ضربتهم صاعقة وانصرفوا إلى بيوتهم برعب.

إدارة الوكيل

تولى الوكيل قيادة الإدارة وشرع بتنفيذ نهجه السياسي. وهو يتطلب بحثاً خاصاً.

يتلخص مبدأه الرئيسي في البديهية التالية: كلما كان الموجيك أكثر ثراءً أيصبح مدللاً اكثر، وكلما كان أكثر فقراً يصبح مطيعاً أكثر. وفي الحصيلة سعى الوكيل إلى فرض الطاعة على الضيعة، باعتبار

الطاعة الفضيلة الرئيسية للفلاح. وطلب تسجيل الفلاحين في قائمة، وقسمهم إلى إغنياء وفقراء. ١) فرضت الضريبة المتأخرة على الفلاحين الأغنياء وتمت جبايتها منهم بكل صرامة ممكنة. ٢) تم إرسال المقصرين في الدفع وهواة التسلية في الأعياد للعمل في الحقول، واذا ما كان عملهم غير كاف لتسوية لحساباتهم، فأنه كان يحولهم إلى عمال مأجورين لدى الفلاحين الآخرين، ممن يدفعون له الدية طوعاً، كما يتمتع الفلاحون المأجورون بالحق في التعويض عن ديونهم بدفع أكثر من ضعف الضريبة الزراعية في العام. وتقع جريرة أية افعال عدم الطاعة في المجتمع على عاتق الفلاحين الموجيك الأغنياء. أما تجنيد المجندين فقد كان ذا نفع للوكيل الجشع، فبواسطته كان يعفى من التجنيد جميع الفلاحين الموجيك الأغنياء حتى يقع الإختيار في نهاية المطاف على شقي او مفلس ١). وألغيت الإجتماعات العامة. وصارت الضرائب الزراعية تجب ىبكميات قليلة شيئاً فشيئاً وطوال العام. زد على ذلك فرضت ضرائب إضافية غير مقررة.فقد تبين أن الفلاحين الموجيك دفعوا ليس أكثر من السابق بقدر كبير، فانهم لم يستطيعوا كسب وجمع النقود الكافية.وهكذا ساد الأدقاع في غوريوخينو خلال ثلاثة أعوام.

خيمت الكآبة على غوريوخينو، وخلت السوق من الناس،و لم تعد تسمع أغاني ارخيب – ليسي. وأخذ الصبيان يتسولون. وكان نصف الفلاحين الموجيك يعملون في الحقول والنصف الآخر يعملون كأجراء. وحسب تعبير كاتب الأسفار فان عيد القديس راعي كنيسة القرية لم يصبح يوم بهجة وفرح بل يتم فيه احياء الذكرى السنوية للحزن والعزاء بجزع...........

١)وضع الوكيل اللعين الفلاح انطون في السجن مقيدا بالحديد،

بينمـا افتدى العجـوز تيموفي ابنه بمبلـغ ١٠٠ روبل. كما زج الوكيل بتروشـكا يريمييـف بالسجـن وافتداه ابـوه مقابل ٦٨ روبـلا، واراد اللعـين ان يسجن ليخـا تاراسوف لكن هذا هـرب الى الغابة، فثارت ثائرة الوكيـل وغضب واطلـق الشتائم والسباب، بينمـا نقل السكير فانكا الى المدينة وسلم الى مركز التجنيد (من اقوال الفلاحين الموجيك في غوريوخينو).

(ملاحظة ا.س. بوشكين)

الفهرست

بوشكين .. شمس الشعر الروسي النيرة !

لقي الشاعر الروسي الكسندر بوشكين مصرعه في 29 يناير عام 1837 في مبارزة مع المبعوث الهولندي دانتيس الضابط في سلاح الفرسان الذي ابدى وقاحة في مغازلة زوجة الشاعر ناتاليا مما اضطره الى دعوته للمبارزة. ويقال ان الحادث كله كان مؤامرة مدبرة يقف وراءها بلاط القيصر للتخلص من بوشكين ذي الافكار اللبرالية التنويرية التي كان يبشر بها في ابداعه الشعري والنثري. ويومذاك كتبت احدى الصحف قائلة : » غابت شمس شعرنا «. وقد اثار هذا سخط السلطات ودعي رئيس التحرير الى احد المسئولين في الرقابة الذي وبخه قائلا : » ما هذا الكلام ؟ اي شمس للشعر ! وما مكانته في ملاكات الدولة ؟ وهل كان قائدا عسكريا او زيرا او رجل دولة ؟ ».

لكن بوشكين رحل وذاع صيته في روسيا والعالم بصفته امير شعراء روسيا وترجمت اعماله الى مختلف لغات العالم ، بينما نسي القادة ورجال الدولة. واطلق اسمه على الميادين والشوارع في روسيا وبلدان اخرى ، منها العاصمة الاثيوبية حيث يوجد ميدان ونصب له باعتبار اثيوبيا وطن جده الاكبر ابراهيم هانيبال.

كان بوشكين سليل اسرة من النبلاء ولقي تعليمه في مدرسة اريد لها ان تعد كبار الموظفين في ادارة الدولة القيصرية. ورغم انه تعلم الفرنسية منذ نعومة اظفاره ، اذ انها كانت لغة النبلاء الروس، وحتى نظم اولى قصائده في سن 13 عاما بالفرنسية بالذات، فانه تأثر في المدرسة بكبار ادباء عصره الروس بالاضافة الى الحكايات الشعبية مربيته ارينا روديونوفا التي اصدرها لاحقا بأسلوبه الشعري الرشيق.


ISBN 978-2843090127